عالم المعرفة
167

تاريخ الدراسات العربية في فرنسا

تأليف
د. محمود المقداد

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

167

تاريخ الدراسات العربية في فرنسا

تأليف

د. محمود المقداد

نوفمبر 1992

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المدخل

ظهر اهتمام شعوب العالم بالعرب منذ دخولهم القوي، في القرن السابع للميلاد، إلى مسرح التاريخ وصنع الأحداث وتغيير خريطة العالم القديم اللغوية والثقافية والدينية والعرقية. وكان ذلك كله بعد بزوغ الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، وتسجيلها الانتصارات من مدينة النبي (صلى الله عليه وسلم) المنورة داخل جزيرة العرب وعلى أطرافها، وتوحيدها العرب المشتتين لأول مرة في التاريخ، وانطلاقتها المعروفة بهم في آفاق المعمورة شمالا وشرقا وغربا، فيما عرف بـ (الفتوح الإسلامية)، لينتشر اللسان العربي، لسان الوحي الإلهي المبين، في أرجاء واسعة تمتد امتداد سيادة الإسلام نفسه من أواسط الهند وتخوم الصين وهضاب تركستان شرقا إلى شواطئ المحيط الأطلسي وتخوم فرنسا غربا.

كانت ضخامة هذا «الحدث التاريخي»، أو لنقل: هذه «الظاهرة الفريدة» من الفتوح التي عرفها التاريخ موضع دهشة المؤرخين وإعجابهم، نظرا لرسوخ قواعد هذه الظاهرة وثبات آثارها في كل أرض حلت فيها سيادة الإسلام فيما يسميه الفقهاء (ديار الإسلام).

وكان من أبرز هذه الآثار ذلك المزج العرقي واسع النطاق بين العرب والشعوب التي افتتحت بلدانها ودخلت في دين الله أفواجا، وكان «الاستعراب» نتيجة طبيعية لتلك السيادة وذلك المزج والاستعراب

المقصود هنا كان استعرابا لسانيا ودينيا وثقافيا شاملا، وكان اندماجا كليا في بوتقة العروبة بمعناها الحضاري والثقافي الإنساني، لا بمعناها الإتنولوجي العرقي أو التعصبي البغيض الذي قد يذهب إليه بعض دعاة التعصب وأصحاب الأفق الضيق.

غير أن شعوب العالم التي لم تدخل يوما في ظل سيادة الإسلام، ولا في نطاق خلافته، وكانت في الوقت نفسه تجاور (ديار الإسلام) وتقع على تخومها مباشرة، شهدت حركة «استعراب» ولكن بمفهوم آخر غير المفهوم الذي رأيناه آنفا، ويمكننا أن نطلق عليه تسمية دقيقة لائقة به تفسره وتبين حقيقته هي «استعراب الدراسة والاطلاع» وهو استعراب معرفي محض لم يكن يخالط عقيدة المستعرب ولا دمه، ولا يحل محصوله الثقافي منه محل ثقافته، ولا يزحزح اللسان العربي لسانه عن موضعه، لأن المستعرب الدارس هنا لا يهتم بالاندماج في الوسط العربي أو الدخول في الإسلام، وإنما يصب اهتماماته كافة، بشكل أو بآخر، على الإلمام باللسان العربي إلماما متقنا، أو إلماما سطحيا وضحلا، بحسب ما يتاح له من ظروف، تمهيدا للاطلاع على تاريخ العرب ودينهم وآدابهم وفنونهم وعلومهم في مختلف البيئات والعصور، أو باختصار: للاطلاع على (حضارة العرب)، ومن ثم تعريف أبناء وطنه وجلدته ودينه بها بمختلف الطرق. كالدراسة والترجمة والتصوير والتحليل والتعليق والاقتباس والنقد والتأثر والتقليد، وما قارب ذلك أو شابهه من طرق التوصيل والنقل المتبعة بين الشعوب والحضارات.

والغاية المنشودة من الاستعراب المعرفي هذا متعددة الوجوه والألوان: إذ قد تكون لخدمة غاية علمية وأدبية وفنية نبيلة، وقد تكون لخدمة أغراض دفاعية محضة لحماية الذات من خطر متوهم من جيرانهم العرب، وقد تكون لخدمة مصالح تجارية واقتصادية ذات نفع مشترك وعام بين الطرفين، وقد تكون لخدمة أغراض سياسية أو عسكرية أو إعلامية أو تجسسية أو لخدمة حرب نفسية موجهة إلى العرب، وخصوصا في عصر ثورة الاتصالات وطي المسافات المذهلة التي نعيش فيها اليوم.

وقد نشأت عن ذلك حركة واسعة-خصوصا في الغرب الأوربي الناهض والطامح إلى التوسع والسيطرة، إثر سلسلة الحروب الصليبية Croisades وعصر النهضة ,Renaissance متعديا حدود الدفاع عن النفس-أطلق عليها

اسم (الاستشراق) Orientalisme الذي كان يعني: دراسة الشرق من جميع النواحي. وكان مفهوم (الشرق)، في أذهان الأوربيين، ينصرف غالبا إلى الشرق العربي الذي كان يشمل فيما يشمل الشرق الإسلامي كذلك لأنه ينضوي تحت اسم الحضارة العربية الإسلامية ويحمل طوابعها وخصائصها عموما.

غير أن مصطلح الاستشراق هذا أصبح فضفاضا نوعا ما، بعد دخول أوربا في العصر الحديث، إثر الكشوف الجغرافية والثورة الصناعية، إذ استولى الأوربيون، مدفوعين بالنزعة الاستعمارية ,Colonialisme على بلدان وراء البلدان العربية والإسلامية، في كل من أفريقيا وآسيا، وأدخلوا دراسات للغات وحضارات كثيرة (شملت الهند، والصين، واليابان، وإندونيسيا، الخ). وتوسع مفهوم الاستشراق بالتالي ليشمل لغات هذه البلدان وحضاراتها، مما دعا إلى نشأة مصطلح أضيق وأدق ضمن حركة الاستشراق الكبرى، وهو مصطلح (الاستعراب) ,Arabisation ويطلق على الدارس في نطاقه اسم (مستعرب) ,Arabisant أي من يهتم بدراسة اللسان العربي وحضارة العرب. ويطلق على جملة الدراسات التي يقوم بها جمهور الباحثين من المستعربين اسم (الدراسات العربية).

ونلفت الانتباه هنا إلى حقيقة مسلم بها لدى الباحثين في ميادين التواصل الحضاري بين الشعوب عبر التاريخ، هي أنه ما من شعب في العالم أجمع حاز اهتمام الشعوب الأخرى الفاعلة في الحضارة الإنسانية وتاريخها بقدر ما حاز العرب من اهتمام الباحثين والدارسين عند تلك الشعوب، والدليل على ذلك أنه لا تكاد مكتبة من مكتبات العالم تخلو من عدد قليل أو كثير من المخطوطات العربية القديمة، ولا تكاد جامعة من جامعاته تخلو من قسم للغة العربية وآدابها يخرج المستعربين لخدمة البلاد التي توجد فيها هذه الجامعة أو تلك. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مكانة العرب الحضارية في الماضي، وأهميتهم الاستراتيجية والثقافية والاقتصادية في الحاضر.

ويزعم هذا البحث أنه يلقي الأضواء على الدراسات العربية وحركة الاستعراب والمستعربين عموما في فرنسا (بلاد الغال قديما)، التي تعد إلى اليوم إحدى كبريات الدول الغربية الفاعلة في تاريخ حوض البحر الأبيض

المتوسط وفي تاريخ أوربا والعالم عموما، ويرقى الاحتكاك والاتصال الأول بين العرب والفرنسيين (الغاليين) إلى سنة 144 هـ/732 م التي شهدت وقعة بواتييه Poitiers الشهيرة في قلب فرنسا قرب نهر اللوار، وهي الوقعة المعروفة عند المؤرخين العرب بوقعة (بلاط الشهداء)، التي قاد العرب المسلمين فيها الفاتح عبد الرحمن الغافقي، إكمالا لسلسلة فتوح المغرب والأندلس، وقاد جموع الغاليين فيها الأمير شارل مارتل Charles Martel، الذي ممكن من تأسيس ملك قوى مكافأة له على إيقاف زحف المد العربي الإسلامي في غربي أوربا، وكان حفيده الإمبراطور شارلمان Charlemagne المشهور في التاريخ.

وكان لفرنسا دور فعال وأساسي في شن الحروب الصليبية المقدسة على البلاد العربية، وكان لها دور خطير في المسألة الشرقية الشهيرة، ودور كبير في الحركة الاستعمارية التي سيطرت على مجمل البلدان العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين. كما كانت باستمرار وراء دعم الصهيونية وقيام دولة إسرائيل في فلسطين ومدها بأسباب القوة والاستمرار، ويشهد على ذلك العدوان الثلاثي على مصر، وفي تأييدها سرا وعلانية إلى اليوم، على الرغم من تعدد الحكومات الفرنسية وتباين اتجاهاتها وسياساتها.

وقد تتبعت في هذا البحث جملة الصلات بين الغرب الأوربي عامة وفرنسا خاصة وبين الشرق العربي، ثم تطرقت إلى اهتمام الفرنسيين بالمخطوطات العربية منذ أقدم فترة في ميدان هذا الاهتمام، ثم عرجت على دراسة تعليم اللغة العربية في معاهد فرنسا ومؤسساتها التعليمية والعلمية المختلفة، ثم قمت بدراسة أنواع الدراسات العربية التي اشتغل بها المستعربون الفرنسيون، ورصدت مجمل ما قاموا به من أنشطة في غير حقول المخطوطات والتعليم والتأليف، ووقفت في نهاية المطاف على تراجم لعدد من أبرز المستعربين الفرنسيين في القرنين الماضي والحاضر، أردتهم أن يكونوا ممثلين لمجالات عمل المستعربين الفرنسيين واهتماماتهم المختلفة.

وإني لأرجو، أخيرا، أن أكون قد وفقت في تقديم لوحة متكاملة عن الدراسات العربية في فرنسا منذ أقدم فترة من تاريخها إلى اليوم، وأن أكون-في الوقت نفسه-قد أعطيت حركة الاستعراب والمستعربين في فرنسا من الأحكام والآراء ما يكون فيه الحق والإنصاف لهم أو عليهم من غير

تجن ولا إنكار. وأحمد الله تعالى على عونه لي في إنجاز هذا العمل الذي آمل أن يسد ثغرة في مكتبتنا العربية بما يقدم للقارئ العربي الكريم من متعة وفائدة. والله ولي التوفيق.

دمشق في يوم الخميس 6 رجب سنة 1410هـ.

الموافق لـ 1 شباط سنة1990 م

د. محمود المقداد

١ الصلات بين الشرق العربي والغرب الأوربي

إن قولنا (الشرق) و(الغرب) لا يعني أن هناك حدا فاصلا بدقة يمكن أن نفصل به بين مجالين جغرافيين واضحين، وإنما هما مصطلحان جغرافيان سياسيان نشأ في الأوساط الاستعمارية الغربية منذ أن تمكن الغربيون من النهضة الصناعية المادية، وبعد أن انتشر الميل إلى الاستعمار في قلوب أصحاب رؤوس الأموال الصناعية والتجارية من ذوي السلطة والمصالحة في التوسع على حساب الشعوب الأخرى الضعيفة والمتخلفة صناعيا في العالم، فانطلقوا لذلك باحثين عن مصادر المواد الأولية الرخيصة لمصانعهم من جهة، وعن أسواق لترويج بضائعهم المنتجة في بلادهم وتصريفها من جهة أخرى، بالإضافة إلى بحثهم عن مناطق النفوذ والسيطرة لضمان كل ذلك.

وكانت المنافسة شديدة بين دول أوربا، وعلى وجه الخصوص الغربية منها، وكان التسابق فيما بينها في المجال البحري قائما على أوسع نطاق، ومن أبرز هذه الدول: إسبانيا، والبرتغال، وهولندا، وبلجيكا، وفرنسا، وبريطانيا. وكان اتجاه هذه الدول

جميعا منصبا بعد الكشوف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر على العالم الجديد في غرب المحيط الأطلسي، ثم تحول النظر بعد ذلك سريعا إلى الشرق الفسيح والمعمور المكتظ بالسكان أو الذي لا يزال بكرا مجهول البقاع منه. إلى المناطق الشاسعة في أفريقيا وآسيا التي تتميز بالتخلف الاقتصادي والضعف العسكري، فأطلق هؤلاء الغزاة الغربيون من أصحاب الأساطيل البحرية القوية والجيوش الحربية الجرارة والسفن التجارية المشحونة بالبضائع، تسمية: الشرق Orient على هذه المناطق المنتشرة في القارتين.

وكانت البلاد العربية والإسلامية واقعة ضمن نطاق هذا التحديد الجغرافي المفهوم من مصطلح الشرق، ولم يدخل العالم الجديد بقارتيه العظيمتين في نطاق هذا المصطلح، ولكنه دخل شيئا فشيئا في نطاق مصطلح (الغرب) Occident الذي يشتمل على بلدان أوربا، وخاصة بلدان النصف الغربي منها.

ولا نجد، في الواقع، دقة منطقية في مصطلحي (الشرق) و(الغرب) هذين، لأن أفريقيا مثلا تقع جغرافيا في جنوب ما يسمى بالغرب تقليديا أي: أوربا. ولم يكتف المستعمرون بكلمة الشرق على إطلاقها، نظرا لاتساعه الجغرافي، فقيدوها بصفات تعطيها تحديدات غير صارمة مثل قولهم: الشرق الأقصى، والشرق الأوسط، والشرق الأدنى.

أما عن الصلات بين هذا الشرق وذاك الغرب فإنها لم تنقطع منذ أن قامت الحضارات القديمة العريقة في كلا المجالين الجغرافيين، ومنذ أن عرف الإنسان في هذه الحضارات سبل النقل والاتصال البري والبحري وتأسيس دول شمولية متعددة الأجناس واللغات والعقائد عن طريق الغزو أو التجارة، فنجد الفينيقيين والمصريين واليونانيين مثلا يتبادلون المصالح التجارية والمؤثرات، ويؤسسون المستعمرات التي كانت لها في البداية صبغة تجارية، وربما اصطدموا في مواقع حربية لسبب أو لآخر، في صلات عدائية ناجمة من المطامع والمنافسات.

ونجد اليونانيين، بقيادة الإسكندر المقدوني، يمدون سلطان دولتهم على المشرق إلى أن وصل إلى آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق وفارس والهند، وكان ذلك كله عن طريق الحروب المتصلة، فأثر اليونانيون في هذا

الشرق الذي سيطروا عليه وتأثروا به.

ونشأت بعد ذلك الإمبراطورية الرومانية التي انتشرت دولتها في معظم أنحاء أوربا، وخاصة غربيها، وفي شمال أفريقيا، وفي آسيا الصغرى والشام ومصر، مما جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية خالصة زمنا غير قليل من التاريخ، وارثة حضارة اليونان وممتلكاتها السابقة. وكانت هناك بلا ريب مصالح متبادلة في ميدان التجارة بين هذه الإمبراطورية وبين دول الشرق التي لم تسيطر عليه، كما كانت بينها وبين تلك الدول علاقات سياسية أو احتكاكات حربية ساخنة كما هي الحال مع الفرس والعرب وقرطاجة زمن الحروب البونية المشهورة[1]، لأن قرطاجة كانت منافسة لروما في شمال أفريقيا. وكانت الإمبراطورية الرومانية لذلك تؤثر في المناطق التي تسيطر عليها أو تجاورها وتتأثر بها على حد سواء. ومن تأثيرات الشرق العربي مثلا في الرومان أنهم حملوا منه بذور المسيحية ونثروها في كل أنحاء أوربا بعد أن اتخذ إمبراطور هم قسطنطين[2] هذه العقيدة دينا رسميا للدولة، وذلك بعد قرابة ثلاثة قرون من ظهور السيد المسيح (عليه السلام) في فلسطين، حتى أن عاصمتهم روما أصبحت عاصمة روحية لمذهب الكاثوليكية، كما أصبحت العاصمة الثانية المنشقة عنها، وهي بيزنطة، التي عرفت بعد ذلك بالقسطنطينية نسبة إلى الإمبراطور قسطنطين، عاصمة ز روحية للمذهب الأرثوذكسي.

ومنذ بداية العقد الثاني من القرن السابع الميلادي، بدأت بالظهور على مسرح التاريخ في جزيرة العرب دولة عربية واحدة تدين بالإسلام عقيدة وتشريعا كانت تحمل في ذاتها طاقة حضارية إنسانية عظيمة بقيادة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم)، ولم يمض ربع قرن على ظهور الإسلام حتى كانت جيوش الفتح الإسلامي تطرق أبواب العراق والشام ومصر مهددة بالزوال الجزئي أو الكلي لأعظم الدول المعاصرة لها، ومنطلقة إلى ما وراءها من بلدان مبشرة بنشوء عصر جديد من النور والتفتح العقلي والحرية. وقد طرق الإسلام أبواب أوربا من الشرق بمحاولته فتح القسطنطينية، ومن الجنوب بفتحه لصقلية وجنوب إيطاليا، ومن الغرب بفتح الأندلس والتوغل في بلاد الغال (فرنسا اليوم) حتى مدينة بواتييه، بعد فتحه لشمال أفريقيا. ثم عاد الإسلام ليدق أبواب أوربا الشرقية ثم الوسطى زمن السلطان

محمد الفاتح وخلفائه الأقوياء.

ونتحدث، هنا، عن هذه الأفعال من قبل العرب المسلمين وما كان لأوربا بعد ذلك من ردود فعل عليها، لأن كل ذلك أسهم حقيقة في نسج خيوط العلاقات بين الشرق العربي والغرب الأوربي وأعطى هذا النسيج ألوانه المختلفة والمتفاوتة على مر ا لزمان.

١-الفتوح العربية في أوربا:

تم في العقد الأخير من القرن الأول للهجرة فتح شبه جزيرة الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير، وانتقل هم الفاتحين في أوائل القرن الثاني للهجرة إلى فتح بلاد الغال، فاجتازوا بجيوشهم جبال البيرينيه الفاصلة بين بلاد الأندلس وبينها وتقدموا شمالا إلى أن وصلوا إلى مدينة بواتييه التي جرت على مشارفها واقعة بلاط الشهداء سنة 732 م بقيادة عبد الرحمن الغافقي، وكان على رأس جيوش الفرنجة التي حشدت لمواجهتهم شارل مارتل جد الملك شرلمان، وكانت نتيجة المعركة مؤسفة، إذ توقفت بعدها حركة الفتح في هذه الجهة ثم أخذت موجته تنحسر منذئذ إلى أن خرج العرب نهائيا من الأندلس نتيجة رد الفعل عبر قرون في سنة 1492. وقد ذكر جرحى زيدان أنه لو فاز العرب في تلك المعركة «لانتشر الإسلام في فرنسا، ثم في سائر أوربا.. ولانتشرت اللغة العربية في تلك القارة كما انتشرت في قارتي آسيا وأفريقيا وسائر العالم الإسلامي»[3].

وقام الأغالبة في تونس بفتح جزيرة كورسيكا سنة 809 م، واستولوا من ثم على جزيرة سردينيا سنة 810 م. ثم قام جماعة منفيون من الأندلس بالاستيلاء على جزيرة كريت. وقام الوزير الأغلبي القاضي أسد بن الفرات بقيادة أسطول عربي لفتح جزيرة صقلية، المنفذ الجنوبي لأوربا الوسطى سنة 827 م، وتم فتح باليرمو فيها سنة 831 م، واستقر العرب هناك، وكانت مدن إيطاليا المنقسمة فيما بينها تستعين أحيانا بالعرب ليحارب بعضها بعضا، مما أتاح للعرب هناك التدخل في شؤون حكوماتها الداخلية، واستولوا على بعض أجزاء إيطاليا الساحلية، وامتدوا في بعض الأحيان إلى الداخل، حتى اضطروا البابا يوحنا الثامن سنة 872 م إلى أن يدفع الجزية لهم بعد أن هددوا مدينة روما نفسها. إلا أن تحالفا بين البابا ومدن إيطاليا المختلفة

وإمبراطوري ألمانيا وبيزنطة أدى إلى إخراج العرب من إيطاليا إلى صقلية سنة 916 م، ثم استولى النورمنديون على صقلية نفسها في سنة 1091 م.

وكانت جزيرة صقلية هذه همزة الوصل التجارية بين شمال أفريقيا وأوربا، وكانت نقطة احتكاك حضاري على درجة عالية من الأهمية بين العرب والأوربيين. وكانت الأندلس نقطة أخرى للاحتكاك الحضاري بين العرب والأوربيين، إذ كانت بمنزلة مركز إشعاع وتنوير لغربي أوربا الذي كان يستعمل اللغة اللاتينية آنذاك لغة للعلم والمعرفة. وقد أصبحت مدينة طليطلة، التي استولى عليها الأسبان سنة 1085 م، مركزا هاما وحيويا لنقل العلوم وترجمة الفلسفة من العربية إلى اللاتينية، فصارت لذلك كعبة طلاب العلم من أنحاء أوربا الغربية والوسطى كافة. وممن كان لهم إسهام كبير في حركة النقل والترجمة هذه واشتهروا بها: المطران الفرنسي ريمون Raymond, والإيطالي جيراردو كريمون Gerard de Cremone الذي نقل وحده إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابا في شتى العلوم. كما كان هناك علماء آخرون، تعود انتماءاتهم إلى بلدان أوربية أخرى كألمانيا وإنكلترا وغيرهما، يعملون في ميدان الترجمة هذا، وقد أنجزوا كثيرا من الترجمات المفيدة، ولذا نجد مدينة طليطلة تشبه في مكانتها عند الأوربيين مكانة بغداد في عهد ازدهارها العلمي إبان عصر المأمون خاصة، حين كانت مركزا لترجمة الآثار العلمية المحضة المختلفة وغيرها من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها من اللغات الثقافية القديمة آنذاك إلى العربية(4). وظلت طليطلة قرابة أربعة قرون المركز الثقافي والديني الأول في شبه جزيرة الأندلس(5).

وتم استيلاء الأسبان على الأندلس نهائيا بسقوط غرناطة نهائيا في يدهم سنة1492 م، وخرج العرب على أثر ذلك مضطرين منها إلى شمال أفريقيا والمشرق العربي، وظل من بقي منهم وهم قلة قليلة يعانون من آثار الاضطهاد والتعصب الديني الأعمى في ظل حكم إسباني غير متسامح، وتحولوا في نهاية الأمر إلى المسيحية بضغط من محاكم التفتيش التي نصبت في كل مكان.

2-الحروب الصليبية وأثرها في أوربا:

شجعت انتصارات الأسبان على العرب المسلمين في الأندلس، حين

استولى ألفونس السادس[6] على طليطلة سنة1085 م، وحين استولى النورمنديون على جزيرة صقلية سنة 1091 م، على متابعة الحروب والحملات على ديار المسلمين في عقر دارهم، ومما زاد رغبة الأوربيين في ذلك انتصار السلاجقة سنة 1071 م على البيزنطيين في موقعة منازكرت وتهديدهم القسطنطينية، مما دفع الإمبراطور ألكسيس الأول كومنينوس[7] إلى طلب النجدة من البابا أربانيوس الثاني[8]، فلقي طلبه هذا هوى في نفس البابا الطموح إلى توحيد الكنيستين الغربية والشرقية بتقديم العون لبيزنطة، فدعا إلى عقد مجمع كليرمون برئاسة سنة 1095 م، وطلب إلى أحد الحجاج، الذين يدعون أن السلاجقة المسلمين قد آذوهم عندما كانوا يؤدون مناسك حجهم إلى الديار المقدسة، وكان يدعى بطرس الناسك، أن يتكلم في هذا المجمع، فقام وخطب فيه داعيا بحماسة إلى قيام حرب صليبية مقدسة لتخليص قبر السيد المسيح عليه السلام من أيدي المسلمين الكفرة على حد زعمه، فوافق المجمع على دعوته هذه، وصادف كل ذلك ميلا لدى نبلاء أوربا الإقطاعيين الذين يطمعون في التوسع وكسب المغانم من بلاد المسلمين، فتحالفوا مع طبقة رجال الكنيسة في المصالح، وانضم إلى ركبهم طرف ثالث هو تجار الموانئ الأوربية على البحر الأبيض، وخاصة تجار الموانئ الإيطالية.

وتم بالفعل تحقيق ذلك بتسيير تسع حملات كانت تلبي رغبتين أساسيتين: الأولى رغبة رجال الكنيسة من المتعصبين في تخليص بيت المقدس والأراضي المسيحية ذات القداسة من أيدي المسلمين وهيمنتهم. والثانية رغبة نبلاء أوربا والمغامرين فيها والتجار في البحر عن الثروة والغنى والموارد والأسواق الجديدة التي تمدهم بالأموال والسلع.

مرت الفصيلة الأولى من الحملة الصليبية الأولى بالقسطنطينية، عاصمة البيزنطيين ومقر الكنيسة الشرقية، في طريقها إلى الديار المقدسة، فسلبتها ونهبتها وخربتها وارتكبت المذابح والفواحش على اختلافها بحق أبناء دينهم أنفسهم، مبرهنين على الخلفية الحقيقية لحملاتهم كلها. وقد اتجهت هذه الحملة بعد ذلك شرقا فأبادها السلاجقة إبادة كاملة. وأما الفصيلة الثانية من الحملة نفسها فقد تمكنت هن الاستيلاء على مدينة القدس سنة 1099م.

وجاءت موقعة حطين سنة 1187 م حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية

تلك في المنطقة العربية، فقد دحر صلاح الدين الأيوبي فيها الصليبيين، وفتح القدس. وتوالت بعد ذلك الحملات الصليبية، إلا أنها كانت حملات واهنة ضعيفة، وكان سقوط عكا في يد الملك الأشرف ابن السلطان قلاوون نهاية مأسوية لمسرحية الحروب الصليبية في المشرق العربي كله، إذ أن الصليبيين عادوا إلى أوربا يحملون معهم ذكريات مرة ودروسا صعبة من الشرق لأبناء جلدتهم وأخوانهم الأوربيين. وقد ذكر الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في ذلك قائلا: «وهكذا دالت دولة الصليبيين في الشرق الأدنى، وظلت ذكريات الشام ومصر ولويس التاسع عالقة في أذهان الفرنسيين دون غيرهم، أو على الأقل أكثر من غيرهم من الشعوب الغربية التي أسهمت في الحركة الصليبية، ومن ذلك الوقت والفرنسيون يحرصون على بقاء صلتهم قوية بالشرق الأدنى والبلدان العربية-وبخاصة بلاد الشام- وينظرون إلى هذه المنطقة على أنها منطقة نفوذ لهم-على الأقل في المجال الحضاري-وذلك حتى كانت حملة نابليون على مصر والشام، فرأى الفرنسيون فيها إحياء لنفوذهم القديم في الشرق الأدنى على عصر الحروب الصليبية»[9].

وكان من نتيجة هذه الحروب ازدياد معرفة الغرب الأوربي بالشرق العربي، إذ كانا قد ظلا في عزلة «حتى قامت الحروب الصليبية لتفتح عيون الغرب على الشرق، وتلقي ضوءا ولو خافتا على بعض البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام، مما صار له أبعد الأثر بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى فضلا عن مستقبل العلاقات بين الشرق والغرب»[10].

ومن المسلم به لدى المؤرخين الغربيين أن فترة هذه الحروب قد رافقتها حركة تيقظ في أوربا يدعوها بعضهم بـ (النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر)، وهي نهضة مبكرة سبقت النهضة المشهورة بعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين المسلمين، وكان لها أثر كبير في انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوربي في أكثر ميادين الحياة الاجتماعية والعمرانية والتنظيمية والعسكرية.

وقد لفتت هذه الحروب بعنف نظر الغربيين إلى الحضارة العربية وإلى الإسلام، ووجدوا تفاوتا عظيما بين وضعهم المتأخر وأوضاع المسلمين المتطورة والمتقدمة. وقد رافقت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية هذه الفترة،

فكان هنالك اتصال ساخن حربي في المشرق العربي، في حين أن المغرب العربي-والأندلس خاصة-شهد اتصالا حربيا متقطعا، مع سلام متقطع أيضا عملت فيه مراكز الترجمة بنشاط كبير أفاد العقل الأوربي فوائد علمية جمة. وقد نقل بعض العائدين من الشرق العربي إلى أوربا بعض المخطوطات العربية المتعلقة بالطب والفلسفة[11]، ومنهم من أتقن العربية في بلاد الشام. وامتد الاحتكاك بين الأوربيين الغزاة والعرب إلى ميدان الزواج والامتزاج العرقي، وليس بسيطا البتة أن يدوم الاتصال بين هؤلاء الأوربيين والعرب أكثر من قرنين من عمر الزمان، من حدود سنة1095 م إلى سنة 1290 م تقريبا، ومن غير أن يؤخذ العرب بجمال النساء الأوربيات القادمات مع أزواجهن أو المولدات على الأرض العربية نفسها في ظل الدول والممالك الصليبية التي أقاموها عليها.

3-النهضة الأوربية:

كان إحياء العلوم والآداب اليونانية والرومانية القديمة، وسقوط القسطنطينية بيد العثمانيين المسلمين، وتقلص سلطان الكنيسة، وظهور النزعات الفردية وحب المغامرة والحرية، والميل إلى الكشوف الجغرافية، والحقائق العلمية الجديدة المذهلة، والإصلاحات الدينية المسيحية، واختراع الطباعة، وهجرة العلماء البيزنطيين مع مخطوطاتهم إلى إيطاليا خاصة، والتجارة مع الشرق، والحروب الصليبية، وحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، كل ذلك كان من أهم أسباب النهضة في أوربا الغربية على وجه الخصوص. وكان التاريخ الفاصل بين عصر النهضة الأوربية والعصر الذي يطلق عليه الأوربيون اسم (العصر الوسيط) هو سنة 1453 التي شهدت سقوط القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين على البر الأوربي المطل على مضيق البوسفور، بيد السلطان العثماني محمد الذي لقب أثر ذلك ب (الفاتح).

ونلحظ أن الترجمات من العربية إلى اللاتينية، على وجه الإجمال، كانت تخدم حاجات عملية: كالعلوم الطبية، والصيدلة، وعلوم الطبيعة، والكيمياء، والفيزياء، والزراعة، والحيوان والبيطرة. أو كانت تخدم حاجات عقلية: كالفلسفة، والمنطق، والرياضيات، وغيرها. وهذا القانون المتحكم

في حركة الترجمة من لغة متحضرة متطورة إلى لغة أخرى في طور النهوض والتفتح سائد في معظم حالات الاحتكاك بين حضارتين متفاوتتين في المستوى الحضاري، فالناس يلجئون عادة إلى ما يشتركون فيه جميعا، ويكون ذلك في الجوانب الموضوعية التي لا ترتبط بروح الجماعة أو عاطفتها ارتباطا كليا، ولا تكون في الوقت نفسه تعبيرا عنها أو صورة لها. وعلى هذا الأساس، كانت هذه الترجمات تؤدي خدمات موضوعية للعلماء، وتسد ثغرات في صرح التفكير العلمي والعقلي الناشئ في أوربا. وقد قام بهذه الترجمات عدد من كبار العلماء من أمثال ألبير الكبير الألماني (1206-1280م) أستاذ الفلسفة واللاهوت وأعظم علماء عصره في التاريخ الطبيعي، وروجر بيكون (1214-1294 م) العالم الإنكليزي الشهير، وغيرهما من كبار العلماء الأوربيين آنذاك.

وكانت الترجمات تتناول آثارا منقولة من اليونانية إلى العربية لعلماء وفلسفة وأطباء من اليونان، وكانت تتناول أيضا آثارا عربية خالصة لمؤلفين باللغة العربية في مختلف الاختصاصات والمعارف التي ذكرنا آنفا ميادينها.

وقد أحصى الدكتور ليكليرك Leclerc في كتابه: (تاريخ الطب العربي)، عدد المؤلفات التي نقلت من العربية إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقط، فوجدها تزيد على ثلاثمائة ترجمة موزعة كالتالي[12]:

1- تسعون ترجمة تتعلق بالعلوم الفلسفية والفيزيائية، والطبيعية.
2- سبعون ترجمة تتعلق بالعلوم الرياضية، والفلكية.
3- تسعون ترجمة تتعلق بالعلوم الطبية.
4- أربعون ترجمة تتعلق بعلم النجوم، والكيمياء السحرية alchimie.
5- عشر ترجمات منوعة.

ولاشك في أن عددا كهذا من الترجمات، وفي موضوعات متنوعة كهذه، سوف يحدث هزة في أفكار الغربيين تؤدي بهم إلى تنبيه العقول على واقع جديد، وتطلعهم على آفاق رحبة لم يعرفوها من قبل، ويقر ليكليرك بفضل العلم العربي على أوربا فيقول:

«شكل العلم العربي نفسه، هذه المرة، الأساس الذي يثري الأدب اللاتيني الذي أصبحت لغته هي اللغة العلمية في الغرب»[13]

وتطلعنا مراجعة يسيرة للقسم الثامن من الكتاب المذكور آنفا عن تاريخ

الطب العربي، وهو بعنوان: (العلم العربي في الغرب)، بالتفصيل، على أن هذا العلم العربي قد انتقل عن طريق الترجمة، ويحدثنا عن الترجمات عموما، ثم يعطينا لمحة عن المترجمين وعما أنجزه كل منهم من ترجمات في حياته، ويقدم لنا أخيرا ثبتا بأسماء المؤلفين ومؤلفاتهم المترجمة إلى اللاتينية[14].

ويرى إرنست رينان E. Renan أن «دخول النصوص العربية في الدراسات الغربية أدى إلى تقسيم التاريخ العلمي والفلسفي للعصر الوسيط إلى فترتين متميزة إحداهما من الأخرى تماما»[15]، ويضيف إلى ذلك قوله. «في الفترة الثانية عاد العلم القديم أيضا إلى الغرب، ولكن أكمل هذه المرة في الشروح العربية أو في المؤلفات الأصلية للعلم اليوناني التي كان الرومان يفضلون عليها المختصرات»[16]، إلى أن يقول على وجه العموم: «لم تكن الكتب الأولى المترجمة من العربية كتبا فلسفية، إذ ترجم قسطنطين الأفريقي وجربير Gerbert ص وأديلار دوبات Adelardl de Bath، وأفلاطون دو تيفولي Platon de Tivoli، كتبا في الطب والفلك والرياضيات، قبل أن يحلم المرء بطلب معلومات فلسفية من زنادقة (كذا!) كالفارابي وابن سيناء»[17].

وكان ريمون مطران طليطلة هو صاحب الفكرة الأولى الرئيسية في الترجمة، ولما كان مستشارا أكبر لقشتالة من سنة 1130 إلى سنة 1150 م، فقد كون حوله معهدا من المترجمين نجد على رأسه آنذاك كبير الشمامسة دومينيك غونديسلافي Dominique Gondislavi, وكان عدد من اليهود يعمل تحت إمرته، مثل يحيى بن ديث Jean Avendeath ويحيى الإشبيلي Jean de Seville كما أن بعض العرب كان يساعد في الترجمة أحيانا.

وكانت أولى محاولات الترجمة الفلسفية عن ابن سينا، وقام بها جيرار دو كريمون، وألفريد مورلي Alfred Morlay, ثم تناولا بعد ذلك أبحاثا للكندي والفارابي، وبذلك «أصبحت كتبا هامة جدا في الفلسفة العربية معروفة منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي لدى اللاتين»[18].

وكان نشاط التجارة الفكرية والسرعة التي كانت الكتب تنتشر بها من مميزات العصر الوسيط، حتى أن كتابا مؤلفا في المغرب أو القاهرة كان يعرف أحيانا في باريس وكولونيا في وقت أقل مما يتطلبه أي كتاب هام في أيامنا للانتقال من ألمانيا، عبر نهر الراين، إلى فرنسا[19].

كانت إسبانيا، في الحقيقة، وخصوصا طليطلة، هي المكان الذي تحققت فيه الصلات بين أوربا والعرب المسلمين.

وكان لكل من صقلية ونابولي، في إيطاليا، دور في هذه الصلات أيضا، إذ «عمل المترجمون في هاتين النقطتين بحماسة متساوية واتبعوا طرقا متشابهة»[20].

وكانت الترجمة تتم إما مباشرة من العربية إلى اللاتينية، وإما بطريق غير مباشرة من العربية إلى العبرية أو الأسبانية، ثم منهما إلى اللاتينية، غير أننا نتحفظ كثيرا على هذه الطريق، ونرجح أن تكون قلة قليلة من الأعمال هي التي سلكته.

وكان ابن رشد-في نظر الأوربيين-هو ممثل الفلسفة العربية وشارح أعمال أرسطو في القرن الخامس عشر، وقد انتقلت فلسفته إلى الشعوب اللاتينية على يد ميشيل سكوت M.Scott، وروجر بيكون R.Bacon ص وهرمان Hermann. ويبين رينان أهمية حركة الترجمة هذه في الثقافة الغربية فيقول: «لن يكون التاريخ الأدبي للعصر الوسيط كاملا إلا حينما نجري-بحسب المخطوطات-إحصاء للكتب العربية التي كان جهابذة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين يقرؤونها»[21].

وغير خاف علينا ما لتأثير هذه الترجمات عموما في النهضة الأوربية، ذلك لأنها ظلت تقدم للغربيين حتى فترة متأخرة ثمارها الطيبة، كما أن حركة الترجمة إلى اللاتينية استمرت على تفاوت إلى أن بدأت هذه الحركة تتطور، تحت تأثير نشأة الدول القومية في أوربا ونتيجة لحركة الاستشراق أو الاستعراب في القرون الخمسة الأخيرة، لتصب ترجماتها في قوالب اللغات المحلية التي تفرعت من اللاتينية الأم، أو إلى اللغات القومية الأخرى التي لا تمت إلى اللاتينية بصلة سوى كونها لغة الثقافة العامة في أوربا في العصر الوسيط وبدايات عصر النهضة الأوربية الحديثة.

وقد لخص المستشرق الفرنسي المشهور إدغار بلوشيه E.Blochet أثر العلم العربي وترجماته في الغرب الأوربي بقوله إن ما اصطلح على تسميته بالنهضة الأوربيةLa Renaissmce لم يكن ليكون لولا اتصال الأوربيين بالعرب المسلمين وحضارتهم، وهو يذكر بحماسة هؤلاء الأوربيين وهم يقبلون على دراسة هذا العلم العربي[22].

4-الخطر العثماني على أوربا:

بعد أن تكونت نواة الدولة العثمانية في المنطقة الشرقية من آسيا الصغرى في حدود سنة 1300 م، أخذت تتوسع على حساب الدولة السلجوقية والإمبراطورية البيزنطية،وظل خلفاء عثمان، بالفعل، يتبعون سياسة التوسع هذه حتى اجتازوا البوسفور إلى البر الأوربي، وتوسعوا في بلغاريا وصربيا، تاركين خلفهم القسطنطينية تنتظر مصيرها المحتوم الذي قدر لها سنة 1453 على يد السلطان العثماني محمد الفاتح (م1481)، وكان أسلافه قد أثاروا الرعب في أوربا فأطلقوا على ما يتهددهم من العثمانيين اسم (الخطر العثماني) الذي أدى إلى تحالف مقدس بين المجر (هنغاريا) والنمسا وألمانيا وفرنسا ضد العثمانيين، إلا أن السلطان بايزيد هزمه في موقعة (نيكوبوليس) سنة 1396 م، ولكن تيمورلنك (م 1405 م)، الغازي التركي المسلم الشهير، قام بعد احتلاله دمشق بالهجوم على العثمانيين وهزمهم قرب أنقرة سنة 1402 م، وأسر السلطان بايزيد نفسه الذي انتحر في السنة التالية، مما أدى إلى حرب أهلية بين أبنائه على السلطة حتى سنة 1413 م، وأدت هذه الحرب بالنتيجة إلى فقدان مناطق واسعة في البلقان قام باستعادتها فيما بعد السلطان محمد الأول (م 1421)، وتوسع فيها أكثر من ذي قبل، وتابع سياسته التوسعية فيها بعده خلفاؤه، ومن أبرزهم: مراد الثاني (م 1451) ومحمد الثاني الذي لقب كما رأينا ب (الفاتح)[23].

وقد مرت الدولة العثمانية بثلاثة أطوار[24]: طور القوة والصعود الذي امتد من بداية القرن الرابع عشر للميلاد إلى حدود سنة 1566 التي انتهى فيها حكم السلطان سليمان القانوني، وكانت هذه الفترة تخيف الأوربيين كثيرا. وطور التردد بين القوة والضعف، وهو يمتد من سنة 1566 حتى وفاة السلطان سليم الثالث سنة 1807. وطور الضعف والانهيار الذي يمتد من سنة 1807 إلى سنة 1918 التي شهدت انحسار الأتراك إلى المجال الجغرافي الراهن بنتيجة خسارة الدولة العثمانية وحلفائها الحرب العالمية الأولى.

وبالإضافة إلى التوسع العثماني في أوربا في الطور الأول، نجد العثمانيين يتوجهون إلى البلاد العربية ويستولون في عهد السلطان سليم الأول (م1520)- بعد توسعهم في غرب إيران وأرمينيا سنة1515 على الشام سنة 1516 ثم على مصر سنة 1517 بعد إسقاط حكم المماليك فيهما، وعلى الجزائر سنة

1518، وأعلنت سائر البلدان والأقاليم العربية تبعيتها طوعا للباب العالي تباعا، يستثنى منها المغرب الأقصى الذي ظل خارج نطاق الهيمنة العثمانية على البلدان العربية.

وقد حاصر العثمانيون سنة 1683 مدينة فيينا عاصمة النمسا، وكان هذا الحصار يمثل قمة الخطر العثماني على أوربا وذروة التهديد الإسلامي لها، ثم أخذت دولتهم بعده تتحسر تدريجيا إلى أن انفرط عقدها تماما إبان الحرب العالمية الأولى[25].

وإذا لم تكن الدولة العثمانية ذات حضارة رفيعة تنشرها التي هيمنت عليها، فإنها على الأقل كانت قوة ضاربة استطاعت أن تحافظ بها على قدرة الإسلام على الاستمرار والمجابهة، إذ أن السلطان سليم الأول استطاع أن يجعل لسلطانه هيبة الخلافة الإسلامية، وذلك لأنه عد نفسه ممثلا للمسلمين في العالم وحاميا لهم منذ تسلمه مفاتيح الحرمين ولقب نفسه بلقب (حامي الحرمين الشريفين)، وأضاف إليه لقب (الخليفة) في سنتي 1516 و 1517 بعد أن اصطحب معه إلى إستانبول من القاهرة آخر الخلفاء العباسيين وانتزع لقب الخلافة منه بوصفه أقوى رجل في الدولة، فصارت إستانبول بذلك مركز القوة الإسلامية حتى انهيار الدولة وإلغاء الخلافة الإسلامية رسميا على يد الجمهوريين الأتراك بزعامة مصطفى كمال (م 1938) في سنة 1924 بعد أن ألغى نظام السلطنة سنة 1923.

وقد وقع عبء الدفاع عن أوربا إزاء الخطر العثماني أصلا على عتق أسرة هابسبورغ الكاثوليكية، ويتمثل الدور الخطير للنمسا في التاريخ الأوربي، وهو أحد المسوغات الرئيسية لوجود الإمبراطورية النمسوية، في وقوف هذه الإمبراطورية وراء الحدود الجنوبية الشرقية لأوربا، مدافعة عن الحضارة اللاتينية والألمانية في وجه ا لإسلام[26].

ونشأ نتيجة لهذا الخطر العثماني على أوربا مصطلح سياسي هو (المسألة الشرقية) وضعه السياسيون الغربيون وكانوا يعنون به تلك العلاقة القائمة على مختلف الصعد بين الإسلام والدول الشرقية التي تقوم عليه أو يتجسد فيها وبين المسيحية والدول الأوربية التي تتجسد فيها[27]، وكانت هذه المسألة أيضا تعني تلك السياسة الأوربية المتبعة مع الدولة العثمانية للاستفادة منها وترويضها وتحجيمها والحد من فاعليتها تمهيدا لزعزعة كيانها

وإضعافها والاستيلاء تدريجيا على ممتلكاتها والأقاليم الكبرى التابعة لها وتقسيمها غنيمة فيما بينها. فكانت هذه السياسة تتأرجح بين التحالف مع الدولة العثمانية والتحالف عليها بحسب الظروف. وكانت القوى الاستعمارية في أوربا تتطلع بلهفة إلى اقتطاع أجزاء من هذه الدولة. وقد كتب غابرييل مونو G.Driault في مقدمته لكتاب «المسألة الشرقية» الذي ألفه دريو E.Monod حول حقيقة هذه السياسة الأوربية وجوهرها إزاء الدولة العثمانية فقال: «وقد تحالفت روسيا والنمسا معا على إن تصبح منطقة البلقان مستقلة، لتشكل بالتالي حاجزا بينهما وبين الخطر العثماني، فكان هذا التحالف حربا صليبية جديدة منتصرة هذه المرة»[28].

وقد اهتمت فرنسا نتيجة لهذا الخطر العثماني الإسلامي أيضا وبوصفها اكبر الدول الممثلة للكاثوليكية، بتعليم بعض أبنائها اللغة التركية لغة الدولة القوية، كما اهتمت بتعليمهم اللغة العربية لغة الدين الذي تقوم عليه تلك الدولة وتدافع عنه، إضافة إلى كون العربية لغة حضارة عريقة ذات أثر كبير في العصر الأوربي الوسيط ومن أجل تخريج المترجمين بهاتين اللغتين، أسس كولبير[29] Colbert الوزير الفرنسي المشهور زمن لويس الرابع عشر، مدرسة (فتيان اللغات) Jeunes de Langues التي كان لها مركزان في الدولة العثمانية: أحدهما في بيرا Pera قرب استنبول، والثاني في أزمير smyrne, وهي ميناء يطل على بحر إيجة.

وإذا نظرنا إلى الصراع العثماني مع الغرب، في محاولة للتقويم من منظور شامل، فإننا سنجده صراعا خاسرا منذ البداية لأنه لم يعتمد اللغة العربية لغة للدولة العثمانية بوصفها ممثلة الإسلام والحاكمة باسمه طوال قرون في البلاد العربية خاصة، نظرا لكونها لغة استراتيجية للحضارة الإسلامية بغير نزاع. وكان هذا الخطأ خطأ قاتلا أدى بالعرب إلى التخلف عن ركب الحضارة وأدى بالمسلمين عموما إلى حالة من الخمول على الرغم من امتلاك العثمانيين لأقوى جيوش الأرض في مرحلة من مراحل تاريخهم. والأدهى والأمر من ذلك أن هؤلاء العثمانيين كانت لديهم نزعة خفية إلى تتريك العرب خاصة وإلغاء اللغة العربية ثقافيا، وهذه سياسة غريبة جدا لا يفهم منها سوى القصور الذريع في رؤية الآثار السلبية التي ستظهر عمليا على نحو أو آخر في جسد الدولة العثمانية ومستقبلها.

5-التجارة الأوربية مع الشرق:

منذ أقدم العصور كانت القوافل التجارية البرية تعبر المنطقة العربية واصلة بين الشرق والغرب، كما أن السفن التجارية كانت تجوب البحر الأبيض المتوسط وترسو في موانئه على الشواطئ المحيطة به، وكانت تمخر عباب المحيط الهندي والخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر. ونشأت في المنطقة العربية حضارات قوامها النشاط التجاري كاليمن وتدمر ومكة وغيرها.

ويذكر بلوشيه أنه منذ أقدم العصور إلى الأيام الأخيرة من العصر الوسيط كانت هنالك أربع طرق للاتصال التجاري بين الشرق وأوربا، تمتد كالتالي[30]:

الطريق الأولى: تنطلق من شواطئ الخليج العربي، وتسير مع مجرى نهر الفرات أو دجلة، وتجتاز هضبة القوقاز الضخمة، وتسير بعد ذلك في وادي نهر الفولغا Volga كله، ونهر الدون ,Duna وفي جزء من مجرى نهر نييمن Niemen t إلى أن تصل إلى شواطئ بحر البلطيق في بروسيا، وتستمر من ثم إلى السويد والجزر البريطانية وأيرلندا.

الطريق الثانية: تنطلق من سواحل البحر الأسود خلال أودية أنهار الدنيبر والبوغ Boug ودنيستر Dniester و نييمن والفستول Vistule، وكانت هذه الطريق تنتهي إلى النقاط السابق ذكرها آنفا تقريبا.

الطريق الثالثة: تنطلق من دلتا نهر النيل وتحط رحالها على سواحل فرنسا، على مصب فهر الرون Rhone، ثم تتبع مجرى نهر السون Saone، وتسير مع مجرى نهر الراين ثم الموز Meuse أو السين seine وروافده أو مجرى نهر اللوار Loire.

الطريق الرابعة: تنطلق أيضا من دلتا نهر النيل وتحط على الساحل الغربي لخليج ليون Lion قرب مدينة ناربون Narbonne اليوم، وتتبع من ثم مجرى نهر الغارون-Garonne، ثم تصل إلى الساحل الغربي لفرنسا، حيث كان بالإمكان الوصول من هناك بحرا إلى إنكلترا وإلى أيرلندا.

ومن الملاحظ أن الطريقين الأولى والثانية كانتا تصلان ما بين المشرق العربي وأوربا الشرقية والشمالية، في حين أن الطريقين الثالثة والرابعة تصلان هذا المشرق الغربي بوسط أوربا وغربها وشمالها الغربي، وقد دلت

على وجود هذه الطرق التجارية اكتشافات أثرية تتمثل في النقود العربية والإسلامية والشرقية عموما، التي يعتقد أنها كانت تسقط من أحزمة التجار العرب والمسلمين والشرقيين الذين كانوا يسلكونها.

وهناك خطوط تجارية أخرى كانت تربط بين موانئ البحر الأبيض المتوسط العربية وموانئ أوربية.

وعندما جاء عصر الكشوف الجغرافية البحرية وتقدمت وسائط النقل البحري والبري، ازداد النشاط التجاري أكثر فاكثر بين الشرق عموما والغرب الأوربي خصوصا.

وكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح أحد أسباب تطور الصلات العامة بين الشرق والغرب عن طريق الدوران حول أفريقيا، وكان فاسكو دي غاما[31] هو الذي اكتشفه في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، في سنة 1497 م تحديدا. وكان هذا التحول في طرق التجارة البحرية ضربة قاصمة للتجارة المارة عبر البحر الأحمر بمصر متجهة إلى ساحل البحر المتوسط فأوربا، وكان أيضا ضربة قوية للتجارة المارة ببلاد الشام عبر الخليج العربي مما أدى إلى انحطاط الأوضاع الاقتصادية وضعف الموارد المالية في مصر والشام، مما أدى إلى ضعف الدولة المملوكية التي كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب على وجه العموم، فأدى ذلك إلى ضعفها العسكري الذي تمثل سريعا في هزيمة جيوشها أمام العثمانيين الذين كانوا آنذاك في أوج قوتهم العسكرية المتمثلة في الجيش الانكشاري.

وإذا كانت الدول الأوربية قد فرحت كثيرا لاتصالها المباشر بالشرق مستغنية عن الوساطة التجارية العربية التي كانت تكلفهم باهظا، فقد أدركوا سريعا ما يكلفهم طول الطريق التجارية البحرية الجديدة من متاعب وصعوبات جمة ومخاطر لا تحصى، وفكروا بحل ذلك عن طريق الاستيلاء المباشر على المناطق المفصلية والاستراتيجية العربية، إلا أن دخول العثمانيين الأقوياء حال دون التنفيذ السريع لأحلامهم الاستعمارية هذه، وأجلها آمادا متفاوتة انتظارا لفترات ضعف هذه الدولة وعجزها عن الردع والحسم في مثل هذه المناطق المنوي الاستيلاء عليها.

ونظرا لأن المنطقة العربية عموما ذات موقع استراتيجي هام للتجارة الدولية والمواصلات بين الشرق والغرب بفضل موقعها المتوسط في العالم

القديم، وبعد الكشوف الجغرافية للعالم الجديد، فقد لفتت إليها أنظار الطامعين والمستعمرين، وجرى التنافس بين دولهم عليها، ومن ذلك ما جرى بين فرنسا وبريطانيا من تنافس على احتلال مصر فقد حاول الفرنسيون احتلالها بحملة نابليون سنة 1798، بهدف قطع طريق الهند على الإنكليز، فقام هؤلاء بدورهم بأكبر نصيب في القضاء على هذه المحاولة وفي إجلاء المحتلين الفرنسيين من مصر بالتعاون مع العرب والعثمانيين، وذلك بتشجيعهم ومدهم بالسلاح وبتدخلهم المباشر أيضا (كما فعل أمير البحر نلسون في خليج أبي قير، إذ حطم الأسطول الفرنسي الراسي فيه تماما).

ثم عادت بريطانيا نفسها سنة 1807 فأنزلت حملة بقيادة فريزر محاولة احتلال مصر، إلا أن حملتها أخفقت في تحقيق هذا الحلم أمام مقاومة المصريين الشعبية في رشيد.

ثم اتضحت المطامع الاستعمارية في تشجيع الفرنسيين لخديوي مصر على شق قناة السويس لتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط واختصار طريق رأس الرجاء الصالح اختصارا هائلا أمام التجارة عبر هذه القناة، وتم تنفيذ المشروع خلال عشر سنوات بجهود الكادحين المصريين وعرقهم ودمهم، وافتتحت القناة للملاحمة سنة 1869.

ولم تلبث بريطانيا طويلا حتى تدخلت إلى جانب فرنسا في الشؤون المالية والاقتصادية والإدارية لمصر، إلى أن لاحت الفرصة المواتية للإنكليز بالاتفاق مع الفرنسيين على إطلاق يدهم في مصر مقابل إطلاق يد الفرنسيين في تونس في وقت واحد لوضع العثمانيين أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيعون مواجهته ومنع حدوثه نظرا للضعف العسكري والانهيار الإداري اللذين كانت الدولة العثمانية تعاني منهما. فكان احتلال الإنكليز العسكري لمصر سنة 1882 بعد مقاومة وطنية ضعيفة، فأمنت بريطانيا لنفسها طريق التجارة مع الهند، ومتنت سلطانها في بلدان الشرق التي كانت خاضعة لها خضوعا مباشرا.

وطوال العصر العثماني كان لفرنسا علاقات تجارية هامة مع الموانئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، وتعززت أكثر باحتلالها الجزائر ثم بعد ذلك تونس. ولا تزال هذه العلاقات قائمة ومزدهرة إلى اليوم مع مختلف البلدان العربية المطلة على البحر المتوسط.

6-الازدهار الصناعي الأوربي والتوسع الاستعماري على حساب الشرق:

مع نهوض الطبقات الوسطى الصناعية والتجارية في المدن الواقعة في الغرب الأوربي، ومع تفتح وعي هذه الطبقات وازدياد سيطرتها في ظل النظام الإقطاعي البالي الذي فقد أسباب التلاؤم مع الظروف الاقتصادية المتطورة الجديدة واختلال موازين القوى، نشبت صراعات بين البرجوازية ممثلة الطبقات الجديدة الناهضة ذات السلطان المالي والاقتصادي والتأثير الثقافي، وبين طبقة الملك والنبلاء ممثلة النظام الإقطاعي الذي لم يبق منه سوى المظاهر البراقة والقشور الفارغة من المضمون ومن الرسالة الثقافية الملائمة لمتطلبات المجتمع المتبلور في ظل الظروف المستجدة.

وقد أدت هذه الصراعات إلى تحطيم النظام الإقطاعي القديم والمهلهل وبروز البرجوازية الصناعية والتجارية في المدن قوة بديلة له، وكانت الثورة الفرنسية في 14 تموز من سنة 1789 الحد الفاصل بين عصرين تاريخيين عريقين اقتصاديا وسياسيا. وبتسلم البرجوازية مقاليد السلطة ازدهرت الحياة الاقتصادية في ميادين الصناعة والتجارة والزراعة والعمران، وأسهم في هذا الازدهار تلك الاختراعات العلمية المتوالية في أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر. وكل ذلك أدى إلى زيادة الإنتاج واطراد سرعته في بلدان الغرب الأوربي الصناعية، مما أدى إلى تضيق الأسواق المحلية بالمنتجات وتكدس فائض وفير منها كان يحث أصحاب رؤوس الأموال الصناعية إلى التطلع إلى تصريفه خارج حدود بلدانهم بالبحث عن أسواق جديدة.

وقد شجعت الكشوف الجغرافية والمغامرات الفردية على ارتياد عوامل جديدة وكان من حصيلة كل ذلك اطلاع الأوربيين على أراضي بلدان وأقاليم جديدة غنية بالمواد الأولية الهامة التي يمكن استغلالها بغير مقابل لإمداد المصانع الأوربية بكثير مما تحتاج إليه من هذه المواد لتصنيعها، كما أن تصريف المنتجات في أسواق عالمية كان مهمة ملحة عند الرأسماليين الصناعيين الذين تحالفوا مع الرأسماليين التجاريين، لما لهذه العملية من مردود كبير في ميدان الأرباح وتراكم رؤوس الأموال بين أيديهم جميعا.

ولتحقيق هذا الهدف المزدوج: الحصول على المواد الأولية رخيصة الثمن

وتصريف فائض الإنتاج الصناعي الكبير، قامت الدول الأوربية التي تسير أمورها الطبقات الرأسمالية الصناعية والتجارية، التي تمتلك وسائل الإنتاج ومقاليد السلطة معا، بتسيير أساطيلها وجيوشها إلى مختلف بقاع العالم، وخصوصا منطقة الشرق المتمثلة بقارتي آسيا وأفريقيا، فتشكل نتيجة لهذه الحركة النشطة ما أطلق عليه إصلاح (الحركة الاستعمارية) الأوربية colonialisme.

وكان التنافس الاستعماري بين الدول الأوربية الغربية وراء سلسلة من الحروب غير الإنسانية في مختلف البلدان التي تعرضت للاحتلال الأجنبي، وكانت حروب التنافس هذه تقع بين هذه الدول حتى في عقر دارها.

وكانت بريطانيا قد برزت أكبر قوة استعمارية منذ بداية حركة الاستعمار، وظلت تحمل هذه الصفة حتى العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956. وترجع أسباب ذلك إلى قوة أسطولها البحري من جهة وإلى سياستها الذرائعية النفعية الماكرة من جهة ثانية. وكانت فرنسا تليها في هذا الميدان، ثم تأتي دول أخرى كإسبانيا والبرتغال وهولندا. وكان الصراع بين هذه الدول الاستعمارية المتنافسة يؤدي غالبا إلى ربح بعض الممتلكات والمستعمرات أو خسارتها من حين إلى آخر.

وقد تعرضت بعض سواحل المنطقة العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط لهجمات السفن الإسبانية والبرتغالية، وخصوصا سواحل المغرب والجزائر، وكان من نتيجة ذلك احتلال أسبانيا بعض المناطق في شمالي المغرب (كالريف المغربي وطنجة وسبتة ومليلة)، وفي جنوبية (منطقة الصحراء أو ما كان يعرف بساقية الذهب). كما تعرضت سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية لهجمات برتغالية مبكرة، حتى كانت المنافسة البريطانية للبرتغال فيها منذ سنة 1839.

ولم تقع المنطقة العربية الخاضعة للسلطان العثماني في ظل الاحتلال الاستعماري إلا بعد أن ضعفت قوة الدولة العثمانية المركزية وعجزت عن حماية الأطراف البعيدة من ولاياتها. وكان هذا الضعف قد دب في كيان الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر. ولعل المحاولة الفرنسية التي جرت لاحتلال مصر وانتزاعها من السلطان العثماني كانت المحك العملي لاختبار حقيقة هذا الضعف، وكان من نتائج ذلك فيما بعد تجرؤ

فرنسا على احتلال الجزائر القريبة منها سنة 1830 واحتلال تونس المجاورة لها سنة 1881، والمغرب سنة 1911، وأخيرا سورية سنة 1920.

وأما بريطانيا فقد احتلت مصر في سنة 1882، ثم العراق سنة 1914 بعد ذلك فلسطين والأردن سنة 1917.

وسيطرت إيطاليا على ليبيا فقط سنة 1911.

ومن الطبيعي أن تصبح العلاقات بين المنطقة العربية والدولتين الكبريين المستعمرتين نشيطة نشاطا كبيرا وعلى كل المستويات، لأن هذا النشاط نشاط تفاعل واتصال مباشر، أي اتصال تأثر وتأثير عن كثب.

7-النهضة العربية الحديثة:

يرى أكثر مؤرخي العصر الحديث أن النهضة العربية بدأت مع نزول الحملة الفرنسية على مصر بقيادة الجنرال نابليون بونابرت سنة 1798 وامتدت من ثم عبر البر إلى بلاد الشام، وتحديدا إلى مدينة عكا، واستقرت في مصر حتى سنة 1801. وعلى هذا المذهب تكون النهضة العربية في العصر الحديث من عمر الثورة الفرنسية إلا بضع سنين. ولعل في هذه النظرة أو هذا المذهب صوابا كثيرا، ذلك لأن الصراع الدولي الذي جرى بين أربعة أطراف: إذ كان الفرنسيون من جهة، والعرب والعثمانيون والإنكليز من جهة ثانية، أحدث هزة كبيرة في نفوس العرب في كل من مصر والشام معا وهما قاعدة الأمة العربية على طول التاريخ. وإذا أضفنا ذلك إلى الصراع المحلي الذي جرى على السلطة، بعد خروج الفرنسيين، بين محمد علي باشا قائد القوات العثمانية التي أرسلتها الدولة لمحاربة الفرنسيين، والمماليك الحكام التقليديين لمصر قرابة ثلاثة قرون من الزمان وكانوا متنفذين وأصحاب الإقطاع في مصر بعد سقوط سلطانهم بدخول العثمانيين إلى مصر وزعماء الشعب الوطنيين في مصر إذا أضفنا هذا الصراع على السلطة بين هذه الفئات الثلاث، فإننا نرى نشوء وعي عند الناس في مصر لحقائق كثيرة: منها إدراكهم ما لبلادهم من أهمية ومكانة عند الطامعين. ومنها إدراكهم مدى ضعف العثمانيين وعجزهم عن مقاومة الغزو الغربي لبلادهم وعن حمايتها. ومنها إدراكهم عجز المماليك المتنفذين في طول البلاد وعرضها عن صد الغزاة وفي الدفاع عن مزرعتهم الخصبة: مصر.

واكتشفوا أن العثمانيين والمماليك بالتالي لا يستحقون التبعية ولا الطاعة وأن عليهم أن يتخلصوا من نير سيطرتهم عليهم وتولي زمام أمورهم بأنفسهم، ولذا قام المصريون فعلا بتنظيم المقاومة عن بلادهم ضد الفرنسيين وتحملوا الأعباء والتضحيات وحدهم طوال فترة الاحتلال. وقاموا بعد جلائهم بالمطالبة بان يكون لهم حق اختيار حاكمهم وتقرير نسبة الضرائب التي تفرض عليهم، وبان تكون المشورة لهم ليعمل برأيهم المعبر عن مصالحهم الحقيقية، ولتحقيق كل هذه الطموحات والأحلام ساند المصريون زعماءهم في اختيارهم قائدا ذكيا وداهية استطاع أن يتقمص بإخلاص كل ما يصبون إليه وأقلهم بتحقيقه لهم، ألا وهو محمد علي باشا قائد الحملة العثمانية التي جاءت إلى مصر لمقارعة البقايا المضطربة من الحملة الفرنسية، إذ أعجب به المصريون الوطنيون وطالبوا به واليا عليهم من قبل السلطان العثماني، فوافق السلطان على ذلك، وكانت بداية الرحلة مع أسرة محمد علي هذه التي ستنقلب أداة طيعة بيد الأطماع الخارجية في مصر وخيراتها.

عمل محمد علي، منذ تسلمه زمام الأمور في مصر، على تحقيق هدفين اثنين:

الأول: أن ينفرد بمقاليد الحل والربط في مصر، ويكون الحاكم المطلق فيها، ملغيا بالتالي فكرة الشورى والتعاون مع الزعماء الوطنيين الذين لم يلبث أن صفاهم أو أبعدهم عن طريقه. وفي نطاق هذه التوجه قام بتصفية المماليك المطالبين بالسلطة تصفية دموية فيما عرف بـ (مذبحة القلعة).

الثاني: أن يبني جيشا قويا ضاربا في المنطقة يكون أداة طيعة جدا في يده لدعم سلطته من جهة، وتحقيق مشروعاته الطموحة في بناء دولة عربية قوية في المنطقة. ولم يكن ممكنا أن يتم بناء مثل هذا الجيش القوي إلا إذا كان يقوم على أسس حديثة وعلمية تساير تطور العصر وطبيعته، ولذلك اهتم بالتسليح الحديث للقوات، وتأسيس كليات عسكرية تخرج جيشا عارفا أصول الحرب والقتال وفنونهما، إلى جانب بناء مصانع للسلاح والذخيرة، وإنشاء دار صناعة (ترسانة) للسفن الحربية في البحر لتكوين أسطول بحري قوي في البحر الأبيض والبحر الأحمر معا. وكانت مدارس الجيش تشتمل على مختلف الاختصاصات العلمية والتطبيقية. وقد استعان محمد علي في كل ذلك بإرسال بعثات دراسية إلى عدد من البلدان الأوربية

الغربية، ولاسيما إيطاليا في بداية الأمر ثم فرنسا منذ سنة1825 بنصيحة من رئيس الجراحين في الجيش، وهو الطبيب الفرنسي كلوت بك[32] Clot Bey، فكانت أول بعثة توجهت إلى فرنسا تلك التي ضمت بين أفرادها الشيخ رفاعة الطهطاوي، صاحب الكتاب الشهير: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي وصف فيه جميع مظاهر الحياة الفرنسية في باريس خلال فترة بعثته هناك من أجل تدريب الجيش وتعليمه، بما في ذلك حركة الاستعراب التي رآها ورأى القائمين عليها وكانت له مع بعض أعلامها أحاديث وصدا قات.

ولعل محمد علي في طموحه وتطلعاته التي ذكرناها آنفا كان مقلدا ذكيا وسريعا لنموذجين غربيين هما . التجربة الإمبراطورية النابليونية المخفقة في مصر والشام ثم التجربة نفسها ثانية ولكن على المسرح الأوربي. والتجربة البحرية الإنكليزية التي أثبتت جدواها وفعاليتها من خلال حركة الاستعمار الواسعة التي كان نجاحها الأول يعزى إلى قوة الأسطول البحري البريطاني بالدرجة الأولى.

وتم لمحمد علي بالفعل ما أراد من تأسيس أسطول بحري قوي وجيش بري ضارب، ومن توفير خبرات علمية وكفاءات إدارية جيدة في مختلف الشؤون، وظهر أثر ذلك عمليا في حروبه مع الوهابيين في منطقة الحجاز، وفي فتحة السودان وبلاد الشام، وفي تحديه الدولة العثمانية التي كان جنديا لها يوما ما، وفي إجبارها على مصالحته والإقرار له بولايته على مصر وتوريثها أبناءه من بعده.

وإذا عدنا إلى الآثار التي تركتها الحملة الفرنسية في نفوس المصرين وإلى الانطباعات التي طبعتها في عقولهم وعواطفهم، وجدنا ذلك في ميادين شتى: ففي الميدان العسكري أطلعت الحملة المصريين على أنواع حديثه من الأسلحة، وعلى أساليب حربية جديدة، وعلى تنظيمات وألبسة جديدة لم يكونوا يألفونها من قبل. وفي الميدان الاجتماعي نجد الحملة تصطحب معها أسر الضباط والجنود، وتحمل أزياء أهل فرنسا وعاداتهم وتقاليدهم، وتعد أنواعا من الأطعمة وألوانا من الحلويات، وضروبا من المشروبات التي لم يعهدها المصريون قبلهم، إلى غير ذلك من النواحي الاجتماعية العامة. وفي الميدان العلمي كانت الحملة تصطحب معها عددا

من الاختصاصيين والعلماء في مختلف العلوم مع أدواتهم ومعداتهم ومختبراتهم وأجهزتهم المختلفة، وقد لفتت تجاربهم وأعمالهم فضول المصريين وأثارت في عقولهم تساؤلات كثيرة، وهم يستغربون ما لم يعتادوا عليه: ومن ذلك مثلا ما سجله المؤرخ المصري المعاصر للحملة، عبد الرحمن الجبرتي، عن دهشته من بعض التجارب الكيميائية في بعض المختبرات الفرنسية، إذ يقول: «ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من زجاجات موضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئا في كاس، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى، فعلا الماءان، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع، وجف ما في الكأس وصار حجرا أصفر، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه. ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمدت حجرا أزرق، وبأخرى فجمدت حجرا أحمر ياقوتيا. وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هائل.. انزعجنا منه، فضحكوا منا»[33].

وكان بصحبة الحملة عدد من علماء الآثار والتاريخ والجغرافيا، وقد عملوا جميعا على دراسة موقع مصر ومناخها وبيئتها ومواردها وآثارها الشاخصة وحياتها العامة في شتى الميادين، وصنفوا من المادة التي جمعوها والملاحظات التي دونوها والنتائج التي توصلوا إليها كتابهم الشهير (وصف مصر) Description de L'Egypte، وكانت نتائج الحملة عظيمة في ميدان علم الآثار، وخاصة ما كان من فك رموز الكتابة المصرية القديمة المعروفة بـ (الهيروغليفية) التي كانت مدونة على حجر رشيد الذي حمل مع العائدين إلى فرنسا، والذي فك رموزه عالم الآثار الفرنسي شامبليون[34] Champollion.

وكان الفرنسيون قد حملوا معهم إلى مصر مطبعة تطبع النشرات والبلاغات والتعليمات والأوامر والبيانات، باللغات الفرنسية والعربية والتركية، بحسب الحاجة. كما أسس نابليون مؤسسة علمية في القاهرة لا تزال إلى اليوم وهي تؤدي خدمات هامة في ميدان الاستعراب ودراساته، أطلق عليها اسم (معهد مصر) L-ǒstitut In egypte.

وكان المستشرقون والمستعربون الفرنسيون المرافقون للحملة بصفة مترجمين وباحثين قد اكتشفوا لأول مرة وجود اللهجة العامية المصرية لغة

للتفاهم بين السكان، إلى جانب الفصحى التي كانت تستعمل أحيانا في أوساط المثقفين والمتفقهين، فأدهشهم وجود هذين المستويين للغة العربية في هذا القطر، إلا أنهم اكتشفوا الظاهرة نفسها فيما بعد إبان مشاركتهم في الحملة الفرنسية على الجزائر، إذ وجدوا لهجة عامية بين أوساط الشعب تختلف عن اللهجة العامية المصرية، فاكتشفوا اختلاف اللهجة العربية العامية من قطر عربي إلى آخر، إلى جانب اكتشافهم الأول للازدواجية بين الفصحى والعامية في هذه الأقطار[35]. وقد دفعهم ذلك إلى الاهتمام بتعليم اللهجات العامية المشرقية والمغربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس بعد عودتهم، لما في ذلك من فائدة عملية لهم في مجال الاتصال والتعامل وغير ذلك من الفوائد.

ولاشك في أن بدايات النهضة العربية الحديثة قد انطلقت من هذه الفترة في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والعقلية والعلمية والعسكرية، نظرا لأن محمد علي باشا لم يقطع حبل التواصل مع الغرب الأوربي بعد جلاء الفرنسيين عن مصر، بل وسع نطاق هذا التواصل وعزز التعاون معه من أجل بناء الجيش القوي الذي كان يعده أداة لتحقيق ما يصبو إليه من طموحات في المنطقة العربية. إلا أن هذا التواصل لم يستمر على نسق واحد وثابت وإنما كان يتعرض بسبب العوامل المتحكمة فيه إلى فترات نشاط وقوة وإلى فترات فتور وضعف.

وكان إنشاء الصحف وتوطيد حركة الطباعة والإقبال على نشر التراث المخطوط والعناية بدرسه، بالإضافة إلى نشر الكتب التي ترجمها المبعوثون العائدون للمدارس التي افتتحها محمد علي في مصر من ابرز العوامل الفاعلة في هذه النهضة. وقد أدت الترجمة على وجه الخصوص دورا عظيما في تفتح الوعي على آخر ما توصل إليه الغرب الأوربي من تطور في شتى الميادين، فكانت الجسر الذي تعبر عليه العلوم والآداب وعموم الأفكار والمؤثرات إلى المجتمع العرب الناهض. ويحدثنا بعض الباحثين عن السياسة التي اتبعها محمد علي في مجال الترجمة مع الموفدين العائدين إلى مصر من الدول الغربية التي تخرجوا فيها فيقول: «وضعوا في القلعة، وسلم كل منهم كتابا بالفرنسية ليترجمه في مادة تخصصه، على ألا يبرح القلعة إلا بعد أن يتم ترجمته. ولما ترجمت الكتب دفع بها إلى المطبعة الأميرية[36]

ببولاق، ثم وزعت على المدارس.. وقد رؤى إنشاء مدرسة الألسن[37]، بناء على اقتراح من رفاعة الطهطاوي، لتدرس فيها اللغات الفرنسية والتركية والإيطالية والإنكليزية»[38] ولا نظن محمد علي كان مخطئا في اتباع هذه السياسة مع المبعوثين الذين تلقوا العلم، كل في اختصاص ما، من ينابيعه في دول الغرب الأوربي، بل كان سياسيا حكيما ومحنكا في هذه السياسة القسرية للترجمة لأنه كان مدركا أبعادها الاستراتيجية في تحديث المجتمع وتطوير نهضته من سباته العميق والإسهام في تقدمه وتفتحه على أسس نيرة راسخة. ولو اتبعت هذه السياسة في مختلف الأقطار العربية اليوم، مع المبعوثين العائدين من جامعات العالم ومعاهد في شتى الاختصاصات، لاقت أكلها على أحسن وجه[39] ولعل التجربة اليابانية في هذا المجال برهان ساطع لا يقبل الجدل على أهميتها ونجاحها، علما أن هذه التجربة قد تكون بشكل أو بآخر مستمدة من التجربة المصرية نفسها التي لم يقيض لها الاستمرار طويلا في هذا النهج السديد.

وكانت المطبعة الأميرية ببولاق، خلال هذه الفترة وما تلاها، من أهم المطابع ودور النشر وقد أسهمت في نشر كثير من أمهات كتب التراث المخطوطة، وخصوصا تلك الكتب التي كانت مقررة على طلبة العلم في الأزهر، مما يتناول اللغة والأدب والفقه والسير والتفسير والبلاغة والحديث، وكلها كتب أساسية في ثقافتنا العربية القديمة التي لابد من الاستناد إليها في انطلاقتنا الجديدة نحو ثقافة عربية معاصرة.

وكان المستعربون الغربيون في أوربا قد نشروا أمهات الكتب العربية من التراث القديم محققة تحقيقا علميا دقيقا، وكانت هذه الكتب المطبوعة تشتري من أوربا وتدخل إلى مصر والشام على أيدي العلماء والمثقفين في فترة النهضة الأولى وما تلاها، فكان عمل المستعربين هذا، في إحياء التراث ودفعه إلى النور، دعما كبيرا لنهضتنا الفكرية عموما، وهذا فضل يسجل لهم، وإن لم يكن القصد منه أساسا إفادتنا نحن العرب، إذ «لم يكن علماء المشرقيات أو جمعياتهم ومجامعهم يقصدون خدمتنا بل خدمة العلم والأفكار التي يريدون بثها، ليتخذ بعضهم من كتب أسلافنا مادة تنفعهم في موضوع قد يرون غير رأينا فيه أو غير ذلك من المقاصد. ولكن مهما كانت النيات فقد استفاد العرب والعربية من هذه الهمة التي انبعثت من ديار الغرب»[40].

8- أغراض الاستعراب الفرنسي:

كانت الصلات بين الشرق العربي والغرب الأوربي تتخذ أشكالا شتى بحسب الظروف السائدة في كلا الطرفين، عبر الفترات التاريخية المختلفة، وأهم ما يمكن ذكره من أشكال هذه الاتصال:

1- الشكل الصدامي الحربي الذي يتلبس أثوابا دينية تارة واقتصادية تارة أخرى، ويتمثل هذا الشكل في التوسع اليوناني ثم الروماني، وفي الفتوح العربية الإسلامية، وفي الحروب الصليبية طويلة الأمد، ثم في حركة الاستعمار وردود الفعل القومية والوطنية عليها، ثم في قيام الكيان الصهيوني الاستيطاني بدعم عام من الغرب على حساب الحقوق الشرعية والطبيعية للعرب في فلسطين عبر التاريخ.

2- الشكل التجاري، وهو دائم متصل في مختلف الأدوار التاريخية.

3- الشكل السياسي المتمثل في السفارات المتبادلة قديما وحديثا بين دول الشرق ودول الغرب.

4- الشكل العلمي الثقافي المتمثل في حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية في القديم، ثم في الترجمة من العربية إلى اللاتينية أولا، ثم إلى سائر اللغات القومية في أوربا بعد ذلك، ثم أخيرا في الترجمة من اللغات الغربية الحية اليوم إلى العربية أو من اللغة العربية اليوم إليها. كما يظهر لنا هذا الشكل من الاتصال في حركة انتقال المخطوطات العربية في العصور المختلفة التي تلت تنبه الغرب على أهمية العرب وحضارتهم وتأثيرهم فيهم حاضرا ومستقبلا، كما كان لهم من تأثير في القديم. ويظهر أيضا في حركة انتقال الكتب المطبوعة اليوم بين الطرفين.. ولهذا الاحتكاك الثقافي أهمية بالغة في نقل التأثيرات وتعميقها. ولا يغيب عنا إدخال البعثات الدراسية الموفدة إلى الغرب أو البعثات التي كان الغرب يرسلها إلى البلدان العربية في نطاق هذا الشكل من الاتصال العلمي والثقافي الفعال.

ولعلي أجد، بعد كل هذا مسوغا للقول إن الصلات لم تقتصر على شكل واحد من هذه الأشكال في فترة تاريخية واحدة، بل كانت هذه الأشكال جميعا تمتزج امتزاجا كليا، وتتعاون في تشكيل نسيج متداخل من العلاقات بين الشرق العربي والغرب الأوربي على وجه العموم.

وإذا قصرنا الحديث هنا على الصلات التي قامت بين العرب والفرنسيين منذ دخول العرب إلى الأندلس ومحاولتهم من ثم فتح فرنسا التي كانت تعرف آنذاك ببلاد (الغال)، ثم تلك الصلات التي قامت بين العرب وفرنسا الصليبية، ثم فرنسا عصر النهضة، ثم فرنسا الثورة، ثم فرنسا الاستعمارية، ثم فرنسا المعاصرة، فإننا نجد هذه الصلات داخلة تحت شكل من هذه الأشكال المذكورة آنفا أو تحتها جميعا.

في الميدان الحربي قام العرب بغزو فرنسا (بلاد الغال)، وتوغلوا فيها توغلا كبيرا، ثم توقفوا، وانحسروا إلى ما وراء جبال البيرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا اليوم، إذ تصدى شارل مارتل[41] Charles Martel بالجيوش التي تمكن من حشدها في وقعة بواتييه، التي سماها العرب بلاط الشهداء، سنة 114 هـ بقيادة عبد الرحمن الغافقي الذي استشهد يومها في تلك الوقعة. وكانت بعدها مناوشات خفيفة دائمة بين العرب والغاليين، إلى أن نشبت الحروب الصليبية التي كان لفرنسا ضلع كبير في إشعال فتيلها والدعوة إليها وقيادتها وتجهيز جيوشها بالمال والعتاد والسلاح. ثم تلاشت هذه الحروب، إلى أن تجدد الاتصال الحربي الفرنسي بعد الثورة بالعرب في حملة نابليون على مصر مع أفول شمس القرن الثامن عشر وبزوغ شمس القرن التاسع عشر. ثم استفحل هذا الاتصال الحربي بالتوسع الاستعماري الفرنسي في البلدان العربية الذي امتد من احتلال الجزائر سنة 1830 إلى نيل هذا القطر العربي استقلاله التام عن فرنسا سنة 1962.

وفي الميدان التجاري، نجد الصلات متينة إجمالا وعلى امتداد العصور بعد الفتوح العربية الإسلامية بين فرنسا والبلدان العربية.

وفي الميدان السياسي، حدث اتصال بين فرنسا والمنطقة العربية تمثل في انتشار القنصليات والسفارات، ولا يزال مثل هذا الاتصال قائما إلى يومنا هذا. وفي الميدان العلمي الثقافي، حدث اتصال مبكر بين فرنسا والأندلس، إبان حكم العرب لها وازدهار حضارتهم فيها، ثم ازداد هذا الاتصال بعد تفكك أوصال دولة الخلافة فيها إلى دويلات الطوائف والإمارات الصغيرة ذات الصبغة الإقطاعية، إذ تراجعت هذه الدويلات واضمحلت شيئا فشيئا تحت ضربات الأسبان المدعمين من قبل فرنسا ضمن إطار الحروب الصليبية في المشرق العربي وامتدادها. ولما سقطت

طليطلة بيد الملك ألفونس السادس، سنة1085 م، أصبحت كنوز الحضارة العربية، المتمثلة بالمكتبات الضخمة المتخمة بالمخطوطات العربية، في متناول الغزاة، وسرعان ما تشكلت لجان لترجمة هذه الكنوز ونقلها إلى اللغة اللاتينية، فكان لذلك مركز منظم على شكل معهد، وكان القيم على تنظيم العمل فيه ريمون، مطران المدينة الذي كان من أصل فرنسي، مما جعل طليطة في غضون بضعة عقود من الزمان كعبة طلاب العلم والمعرفة من كل أنحاء أوربا، ومن فرنسا على وجه الخصوص. وكانت فرنسا تفيد مما كان أبناؤها يقومون به من أعمال ترجمة عن العربية إلى اللاتينية. كما كانت تفيد أيضا من الأعمال التي كان جيرانها من الإيطاليين والألمان والأسبان والإنكليز يترجمونها عن العربية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد إلى اللغة اللاتينية، قبل أن يفطنوا إلى ضرورة ترجمتها إلى لغاتهم القومية الحية التي يفهمها عامة الناس يومذاك.

وكانت الفترة التي تلت انحسار الحروب الصليبية عن المنطقة العربية ثم شهدت ضربات المغول المفجعة وقيام دولة المماليك، بداية عصر الركود العقلي والسبات الفكري والخمود الاقتصادي عامة، وراحت المجتمعات العربية تنغلق عن العالم الخارجي المحيط بها، وتفشت الأمية في جماهير الناس، وعم ظلام الجهل والتخلف من الأفاق. ورافق كل هذا الهبوط خروج العرب نهائيا من الأندلس سنة 1492، ثم تعرضت المنطقة العربية في نهاية المطاف لغزو العثمانيين الذين لم يكن همهم غير جمع الضرائب وبناء الجيش الانكشاري وتدعيم سلطانهم في الآستانة، من غير نظر إلى مصالح الرعية الحقيقية وحقها في التقدم والازدهار والتفتح العقلي المستمر. وهكذا حافظ العثمانيون، ومن حيث يشعرون أو لا يشعرون، على حالة الركود والتخلف والتقوقع على الذات واجترار ألوان من الثقافات والأفكار والعقائد السقيمة التي ترعرعت في ظلام الجهل والأمية وضيف الأفق. ونحن نرى إن الدولة العثمانية كانت تفتقر إلى النظرة الاستراتيجية للأمور في إدارتها الولايات العربية الخاضعة لسلطانها، مما جعل منها دولة قوة وحرب في المقام الأول لا دولة حضارة وعقل. ولهذا كان نظامها عاجزا عن تطوير الحياة العامة في الدولة والمجتمع لتلائم التطور الذي كان يجرى في أوربا بسرعة مذهلة على الطرف المقابل من البحر المتوسط، بسبب روح النهضة

التي دبت في أوصال أوربا تلك، ونتيجة الإقبال على العلوم والكشوف واعتماد العقل حكما على الأمور، هذا بدوره أدى إلى الكشوف الجغرافية والعلمية والى جملة المخترعات الآلية. وأسهم حب المغامرة والتحرر من كل سيطرة، والميل إلى الفردية والتمرد والاستقلال، في دخول عالم جديد من الحرية. وأدى تغير النظرة إلى الأشياء عند الأوربيين بإحياء الآداب والفنون القديمة، وتعلم الفلسفات، وقيام حركات الإصلاح الديني، وتطور وسائل الإنتاج وتغير العلاقة بين الطبقات الاجتماعية، إلى نشاط عظيم وواسع في المجتمعات الأوربية كان يحركها بقوة لتستيقظ وتنهض من سباتها العميق والطويل الذي كانت تغط فيه من قبل، لتفتح أعينها على نور الحياة. وفي المقابل كان كل شيء، على الطرف العربي، يدعو إلى الكسل والخمول والانغماس في الأوضاع العامة المتردية والانسجام معها من غير التفكير في تغييرها والخلاص منها.

وانقلبت بهذا موازين القوى رأسا على عقب، ففقدت المنطقة العربية، التي كانت تحتمي في بداية الأمر من الحركة الاستعمارية بقوة الدولة العثمانية الحاكمة، كل مقومات التواصل الحضاري، ولو في حده الأدنى، فكانت المواجهة بينها وبين الدول الاستعمارية العربية التي احتلتها بعد ضعف الدولة العثمانية المركزية ثم انحسارها عن المنطقة العربية، أمرا في غاية الصعوبة، نظرا لعدم توفر قوة ذاتية تعتمد عليها.

وبعد أن كانت أوربا قاطبة ترهب الدولة العثمانية، صرنا نسمع الحديث عما يسمى (المسألة الشرقية) التي تعني السياسة الأوربية العدوانية ضد الدولة العثمانية والولايات الخاضعة لها، لإضعافها واقتسام ممتلكاتها. واتبعت فرنسا، على وجه الإجمال، سياسة عدوانية مع هذه الدولة، بعد أن كانت تتبع في فترة من الفترات سياسة ودية حسنة معها، واصبح مصطلح (الرجل المريض) في عالم السياسة الغربية علما على الدولة العثمانية في طورها الأخير طور الضعف والانحلال.

ولما كانت المصالح الفرنسية متزايدة في المنطقة العربية، فقد كان من المتوقع أن توجه فرنسا اهتمامها المعرفي لكشف أسرار الحضارة العربية الإسلامية التي استطاعت أن تنتشر وتثبت أقدامها في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة المطلة على البحر المتوسط من الشرق والجنوب.

والمدخل المؤدي إلى عالم هذه الحضارة العربية هو بلا ريب اللغة العربية وكل ما كتب بها من آثار عبر التاريخ منذ ظهور الإسلام. ولذا اهتم الفرنسيون بتعليم بعض أبنائهم هذه اللغة، من أجل الاطلاع على مخطوطاتها وآثارها القديمة والحديثة المكتوبة بها، والمعروف أن الناس يلجئون إلى تعليم أبنائهم لغة قوم من الأقوام لسبب من ثلاثة: للإفادة من ثقافتهم وعلومهم ومعارفهم وآدابهم وفنونهم على وجه العموم، أو للتسلط عليهم والاستفادة المادية منهم واستغلالهم، أو للتعاون معهم وإقامة علاقات متوازنة على قدم المساواة معهم. ولعل دوافع بعض الفرنسيين إلى تعلم العربية كانت عمليا مزيجا من هذه الأسباب جميعا.

كانت العربية تقف في المرتبة الثانية، بعد اللغة التركية، في عهد لويس الرابع عشر. وفي عهد الثورة الفرنسية، أسست مدرسة اللغات الشرقية، وكان على رأس هذه اللغات على الإطلاق اللغة العربية الفصحى والعامية من أجل خدمة المصالح التجارية والسياسية مع العرب والمنطقة العربية، وتلتها في هذه المدرسة من حيث الأهمية اللغة التركية، ثم اللغة الفارسية.

وكانت لنا، بالمقابل، اهتمامات باللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية في عصر النهضة العربية، لما لها من أهمية في نقل العلوم والثقافة إلى لغتنا. وكانت البعثات الموفدة إلى الغرب الأوربي، منذ عهد محمد علي، مؤشرا إلى حاجتنا الماسة إلى علوم الغرب ومعارفه المتقدمة، لتتفتح عقولنا وتزدهر مجتمعاتنا في مختلف الميادين، بعد طول سبات وتخلف.

وقد أطلق الغربيون على من يدرس اللغات الشرقية وحضاراتها وكل ما يمت إليها في الماضي والحاضر بصلة اسم (مستشرق)[42] Orientaliste, وأسموا حركتهم في هذا المجال (الاستشراق)[43] orientalisme. إلا أن هذا الاستشراق لم يكن مسرحه واحدا، ولم تكن لغته واحدة، لأنه كان يمتد من أقصى الشرق (اليابان، وكوريا، والصين، وفيتنام، والفيليبين، وإندونيسيا) إلى المغرب العربي وجميع أرجاء أفريقيا. ولذا فقد كانت في حركة الاستشراق هذه تخصصات باللغات أو الحضارات الكثيرة في هذا الشرق، وكان هنالك تسمية خاصة بكل حضارة أو لغة. وهكذا عرف المختص بالدراسات العربية باسم (مستعرب)[44] Arabisant.

ومع ازدياد اتصالات الفرنسيين بالشعوب الشرقية في آسيا وأفريقيا،

وحتى في أوربا الشرقية، أخذت دائرة الاهتمام اللغات الشرقية تتوسع، وكان الهدف من ذلك خدمة المصالح الفرنسية في مجال انتشار تلك اللغات.

وفيما يلي ثبت باللغات التي أدرجت في برامج التدريس في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، وهي إحدى المؤسسات التعليمية البارزة في هذا الميدان. ونلاحظ في هذا الثبت تاريخ إدخال كل لغة منها حتى سنة 1947، ولابد لهذا التاريخ من أن يعطينا فكرة عن المصالح الكامنة وراء إدخالها[45]:

1- العربية (1795).
2- التركية(1795).
3- ا لفارسية (1795).
4- الأرمنية(1812).
5- اليونانية العامية أو الحديثة الحية (1819).
6- العربية العامية المشرقية (1821).
7- الهندستانية (1830).
8- الصينية(1843).
9- الماليزية (1844).
10- اليابانية (1868).
11- الأنامية (الفييتنامية 1869).
12- الروسية (1876).
13- الرومانية (1888).
14- السيامية (1899).
15- البربرية (1913).
16- الصربوكرواتية (1920).
17- البولونية (1921).
18- التشيكية(1921).
19- اللغات السودانية (1921).
20- الأمهرية (1926).
21- الملغاشية(1926).
22- الفنلندية-أوغرية[46] finnois-ougrien (1931).

23- البلغارية (1932).

24- الكمبودية (1947).

وقد ازداد عدد هذه اللغات زيادة كبيرة منذ سنة 1947 إلى اليوم تبلغ الضعف تقريبا، ويبلغ عدد سكان العالم الذين يتكلمون بهذه اللغات أكثر من نصف سكان الأرض، وليس هناك لغة هامة في العالم ألا وهي ممثلة في مدرسة اللغات الشرقية الحية هذه[47].

وهكذا نجد حركة الاستشراق في فرنسا مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالحها المنتشرة بين شعوب الشرق المختلفة وبلدانها. وقد ازداد اهتمام الفرنسيين باللغة العربية مع ازدياد اهتمامهم بالعلاقات والمصالح المتبادلة بينهم وبين البلدان العربية المختلفة على امتداد الوطن العربي الكبير.

ولم يقف الاهتمام بالعربية عند الفرنسيين وحدهم وإنما نجد اهتماما عالميا بها حتى كانت اللغة الخامسة المعترف بها دوليا بين لغات الأمم المتحدة، كما أن حرب 6 تشرين الأول 1973 مع إسرائيل لفتت انتباه العالم إلى وزن العرب الدولي وأظهرت أن ترتيبهم معا، إذا توحدت كلمتهم في إطار كإطار التضامن العربي، يمكن أن يكون في المرتبة السادسة بين القوى الكبرى في العالم، ولذا نشهد إقبالا شديدا على تعلم لغتنا بين دول الشرق والغرب على حد سواء وذلك لخدمة مصالحهم الثقافية والمادية في المنطقة العربية ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية المتميزة في العالم الحديث.

2 المخطوطات العربية في فرنسا

لم يعرف الشرق العربي فن الطباعة إلا في وقت متأخر، إذ دخلت المطبعة إلى الدولة العثمانية في أواخر القرن السابع عشر للميلاد، ودخلت إلى مصر مع حملة نابليون، ولم تدخل إلى الشام إلا في أواسط القرن التاسع عشر وأواخره. ولذا كانت الكتب المخطوطة والمنسوخة في دكاكين الوراقين بأيدي النساخين هي وحدها وسيلة الناس إلى الثقافة والعلم والقراءة، وهي الوعاء الذي كانت تسجل فيه الأفكار منذ بداية حركة التدوين عند العرب بعد الإسلام، تلك الحركة التي بدأت عمليا بتدوين الوحي الإلهي، وظل الأمر كذلك إلى أن دخلت المطابع إلى البلاد العربية تباعا، على استحياء في مطلع الأمر ثم تزايدت وكثرت إلى ما نشاهده اليوم على مختلف الصعد..

وبدخول فن الطباعة بآلاتها الحديثة والمتطورة باستمرار، بدأ الباحثون والناشرون بطباعة الكتب المخطوطة على هذه الآلات وبأعداد كبيرة من النسخ وبسرعة عظيمة، وبأسعار أقل بكثير من أسعار المخطوطات، وبكتابة أبقى من الكتابة اليدوية

«إننا لنعجب حين نرى غزارة التأليف في الحضارة الإسلامية، بحيث إن عدد الكتب فاق عدد كتب أية حضارة قديمة غيرها»
آدم ميتز ل

وأسهل للعين عند القراءة وأيسر تناولا.

كما أن هذه المطابع أخذت تنشر ثمرات الجهود الجديدة في التأليف والترجمة وغير ذلك. ولما كانت المخطوطات بحالتها الأولية مادة ساذجة لا يمكن الإفادة منها بيسر وسهولة، فقد اضطر الناس إلى تحقيق نصوص هذه المخطوطات القديمة والتثبت من صحتها مع شرحها وفهرستها قبل طبعها للإفادة من محتوياتها على خير وجه ممكن، وهذا كله أدى إلى انتشار عادة القراءة وبناء المكتبات الخاصة في البيوت.

وكان رجوع المستشرقين إلى هذه المخطوطات أمرا لازما من أجل فهم ما جاء فيها من معارف مختلفة تتعلق بحضارة العرب، ولذا كان عليهم أن يجمعوها من مختلف الأماكن والمواضع التي تتوفر فيها، وبشتى السبل التي تتاح لهم سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة. وفيما يلي حديث عن الجوانب الهامة التي تربط بين هذه المخطوطات والمستعربين الفرنسيين حصرا.

١- بدايات الاهتمام بالمخطوطات العربية في فرنسا وأسبابه:

ارتكب الصليبيون خطأ كبيرا عندما سيروا جيوشهم إلى المشرق العربي لمحاربة العرب والإسلام فيه، وهم يجهلون كل شيء تقريبا عن الأخلاق الإسلامية، وقد عبر بعض الباحثين الغربيين عن ذلك بقوله: «قامت الشعوب بالحرب، ولكن-كما هو الأمر دائما-من غير البحث عن فهم لحياة الخصم الروحية والاجتماعية والمادية، وهكذا لم يكن لدى الغربيين عن الشرق غير صورة مبهمة جدا كانت غارقة غالبا في ضباب الجهل»[1]

وقد تلقن الفرنسيون هذا الدرس القاسي باشتراكهم مع الأوربيين الآخرين في هذه الحروب، وخلاصة هذا الدرس أن «الحملات المسيحية الأولى إلى الأرض المقدسة وإلى مصر جاءت من غير خطة مدروسة جيدا، ومن غير معرفة شيء عن أخلاق الشعوب التي ذهبوا لقتالها أو عن تسليحها»[2]، و«قد برهنت النكبات المتوالية التي صبت فوق الصليبيين أنه لا يمكنهم الانتصار على هؤلاء المسلمين إلا إذا قلدوا تكتيكهم العلمي واستراتيجيتهم الماهرة»[3]

وبعد أن كان المحاربون يعتقدون، تحت تأثير الخرافات والأساطير

المنتشرة بينهم عن الشرق وأهله، أن أحدهم قادر أن يهزم منفردا فرقا أو جيوشا من المسلمين، ثبت لهم الواقع المر البعيد عن الدونكيشوتية الغبية[4].

وقد ذكر المستشرق الفرنسي بلوشيه إقبال الغرب الأوربي على معرفة الشرق العربd معرفة واقعية من خلال السبل الحقيقية المؤدية إليها، بعد قرابة قرن من انتهاء الحروب الصليبية، فقال: «مما لا يقبل الجدل أن اندفاعة شديدة إلى الدراسات الشرقية قد تمت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.. وكانت شبيهة بالحركة التي جرت في نهاية القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر، على أثر اكتشاف كتب الهند وفارس الدينية، وعلى أثر نفض الغبار عن الحضارتين الكبيرتين للفراعنة وملوك بابل على وجه الخصوص..»[5] ويضيف إلى ذلك قوله عن تلك الاندفاعة المبكرة في الغرب إلى دراسة الشرق. «انطفأت تلك الحركة أو تحولت بعد القرن الرابع عشر، لأن العصر لم يكن يتعاطى العلم النظري الخالص، ولأن عصر النهضة الإغريقية-اللاتينية أبعدت دراسة الاستشراق إلى الدرجة الثانية من الاهتمام»[6]

وهكذا حاول الفرنسيون أن يتعرفوا أخلاق العرب والشرقيين وعاداتهم وتقاليدهم ومالهم من معارف وثقافات، وكان المفتاح لمعرفة العرب وحضارتهم هو بالدرجة الأولى اللغة العربية التي يمكنهم بها أن يتعرفوا الآثار المكتوبة، ولهذا أتجه الغربيون عامة، والفرنسيون خاصة، إلى جمع أعداد من المخطوطات التي تتفاوت في قيمتها وموضوعاتها من فترة إلى أخرى، من المشرق العربي إلى أقصى المغرب العربي، ومن مختلف البلاد الإسلامية الأخرى التي تتوفر فيها مكتبات كبرى ومخطوطات عربية، وكانوا يرسلونها إلى بلدانهم دفعة إثر أخرى. وقد جند لهذا الغرض رهبان مبشرون، وتجار، وجواسيس، ودبلوماسيون، وسفراء في العالم العربي والإسلامي، ورحالة، وسواح، ومستعربون كلفوا خصيصا بهذا العمل.

وإن نحن ألقينا نظرة متفحصة على فهارس المخطوطات العربية التي أحصاها المستعرب الألماني المشهور كارل بروكلمان[7] C.Brockelmann, في مطلع الجزء الأول من كتابه الضخم الهام: (تاريخ الأدب العربي)، فإننا سنقف مدهوشين إزاء اتساع دائرة انتشار المخطوطات العربية في الغالبية

العظمى من كبريات المكتبات المعروفة في العالم المتحضر، بالإضافة إلى غزارتها الملحوظة لدى المتتبعين، ويدل هذا العدد الكبير من الفهارس في ثبت بروكلمان-وقد اصبح اليوم قديما نوعا ما بالنسبة إلى ما استجد من فهارس لمكتبات أو لمخطوطات لم يدركها بروكلمان نفسه ولم يطلع عليها- على ضخامة التراث العربي المخطوط الذي يقف وراءها.

وفي فرنسا كان الوزير الشهير كولبير يكلف بعض المعتمدين في الشرق بالبحث عن المخطوطات العربية لتزويد مكتبة الملك لويس الرابع عشر بها، فكانت تشتري من العاصمة العثمانية استنبول، التي كانت مكتباتها العامة والخاصة تعج بالمخطوطات العربية المجلوبة إليها من الولايات العربية المختلفة، وكانت تجمع أيضا من بعض المدن العربية الكبيرة. ومن ذلك تلك البعثة التي أرسلها كولبير برئاسة فانسليبن Wansleben أو فانسليب G.B.Vansleb إلى المشرق العربي، فطافت في المدن الرئيسية في البلدان العربية ما بين سنتي 1671 و 1675، ثم عادت إلى فرنسا حاملة معها ثروة طيبة من هذه المخطوطات العربية[8].

وقام بتي دولا كروا Petis de la Croix بجمع عدد من المخطوطات خلال رحلاته وجولاته في آسيا. وقام بمثل ذلك أيضا بول لوكا P.Lukas أثناء رحلاته إلى الشرق العربي. وقد أرسل، سنة 1730، قسان فرنسيان، كل على حدة، إلى الشرق للبحث عن المخطوطات والتحف، وهما: سفان Sevin وفورمون Fourmont. وكان بعض هؤلاء الرحالة والزائرين للشرق يعقدون علاقات صداقة مع بعض أهل البلاد التي يمرون بها، أو يقيمون فيها، فكانت هذه الصداقات تعينهم على طلب بعض المخطوطات العربية والشرقية بعد عودتهم من هذه البلاد.

وكان كولبير يزود أيضا مكتبته الخاصة بالمخطوطات العربية، وربما خضعت عملية شراء المخطوطات من الشرق لأهواء المشرفين على مكتبة الملك ورغباتهم، فنرى مثلا على ذلك لتولييه Le Tellier, مطران ريمس Reims, والأمين العام لمكتبة الملك، الذي كان يكن مقتا شديدا للمخطوطات الشرقية، ولم يكن يحمل للآداب الشرقية عموما ذلك الاهتمام الذي كان عند سلفه في هذه الوظيفة، ولذا يشعر المرء في عهده بضعف الرغبة في اقتناء هذه المخطوطات الشرقية[9]

وكان غالان[10] Galland قد ذهب إلى الشرق، وأقام فيه، وتنقل في أرجاء المنطقة العربية حين كان مرافقا لدونوانتل de Nointel سفير فرنسا إلى الباب العالي سنة 1680، ثم أرسله كل من الوزيرين كولبير ولوفوا Louvois إلى الشرق في مهمة محددة هي البحث عن المخطوطات الشرقية القيمة، ومنها العربية، بغية جمعها وشرائها لصالح مكتبة الملك أو لمكتبتيهما الخاصتين بهما، ففعل ذلك، وجمع لنفسه أيضا عددا من المخطوطات العربية، كان من أبرزها مخطوطات لقصص ألف ليلة وليلة التي قام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية لأول مرة تلك الترجمة الشهيرة التي كانت لها تأثيرات كبيرة في آداب الغرب وفنونه وأخلاقه العامة.

وكون ثيفنو Thévenot لنفسه مجموعة من المخطوطات العربية عن طريق الشراء سنة 1712. وحمل بنوا دومايية B. de Maillet معه من الشرق عددا من المخطوطات سنة 1738، حين كان يشغل وظيفة قنصل عام ووظيفة مفتش على المؤسسات الفرنسية في الشرق العربي.

وطرأ بعد قيام الثورة الفرنسية سنة 1789 تطور جديد على جمع المخطوطات الشرقية والعربية وتنظيمها، ذلك لأن أول ما قامت به الثورة دمج مكتبات الأديرة، وجمع ما فيها من كنوز المخطوطات المختلفة في باريس. وحصلت فرنسا على مجموعة قيمة من المخطوطات العربية أثناء حملة نابليون على مصر.

ثم ازدادت حركة جلب المخطوطات العربية إلى فرنسا نشاطا في القرن التاسع عشر على أيدي العسكريين، كوزير الحربية الفرنسي الذي نقل مخطوطات عربية متنوعة من الجزائر سنة 1832 بعد احتلالها. وعلى أيدي أطباء كالدكتور كلوت بك الذي كان يدرس الطب في المدارس التي أحدثها محمد علي باشا في مصر.

وفي سنة 1833، حصلت فرنسا على قرابة ألف وخمسمائة مخطوط، كان أسلان دو شرفيل A. de Cherville المعتمد القنصلي بمصر قد جمعها.

وما بين سنتي 1847 و 1857، شغل شارل شيفر Ch. Schefer عددا من الوظائف في العالم الإسلامي، إذ عين أولا في وظيفة مترجم أول في سفارة فرنسا باستنبول. وكان لذلك أهميته في تمكن هذا المستشرق، الذي يتقن العربية والتركية والفارسية، من جمع عدد كبير من المخطوطات بهذه

اللغات الثلاث الرئيسية في منطقة الشرق الأوسط، ودخلت إلى المكتبة الوطنية بباريس بعد وفاته باسم (مجموعة شيفر)[11]. وفي هذه المجموعة يقول باربييه دو مينار B. de Meynard، رئيس الجمعية الآسيوية بباريس، إنها كانت ثمرة بحث متواصل بلا انقطاع طيلة ما يقرب من نصف قرن في مصر والشام و في الإمبراطورية العثمانية وفارس والهند الإسلامية[12]. وقد عمل شيفر بعد عودته إلى باريس من الشرق مديرا لمدرسة اللغات الشرقية الحية.

2-ازدياد المخطوطات العربية مع ازدهار عملية الجمع:

يمكننا، من خلال حديثنا السابق، أن نضع علامات تاريخية فاصلة تميز مراحل الاهتمام الفرنسي بالمخطوطات العربية وبجمعها الذي أخذ يزداد باطراد الحاجة إلى الاتصال بالمنطقة التي تتكلم باللغة العربية، من أجل فهم حضارتها بالاطلاع على آثارها التي خلفتها عبر العصور المختلفة من تاريخها. وسنحاول فيما يلي إحصاء عدد المخطوطات العربية في فرنسا إبان كل مرحلة منها بحسب ما ورد في افتتاحية زوتنبرغ Zotenberg التي كتبها لفهرس دوسلان de Slane لهذه المخطوطات في المكتبة الوطنية بباريس:

المرحلة الأولى:

وتمتد من بداية القرن الثامن الميلادي، الذي شهد دخول العرب إلى الأندلس، إلى نهاية القرن الحادي عشر للميلاد. ولا نجد في هذه الفترة أي اهتمام جدي من الغرب الأوربي عموما، من الناحية الفكرية، بالشرق أو باللغة العربية.

المرحلة الثانية:

وتشمل القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وفيها كان الفرنسيون يفيدون من التراث العلمي العربي في ترجماته اللاتينية التي أنجزها علماء فرنسيون أو غربيون من مختلف بلدان أوربا الغربية والوسطى. وفي هذه الفترة تركز نشاط حركة الترجمة في مدينة طليطلة Tolide بأسبانيا، وفي بعض مدن إيطاليا. وهذا يعني أن المخطوطات العربية لم تكن تقرأ بعد من قبل الفرنسيين. وقد شهد هذان القرنان الحملات الصليبية

على قلب العالم الإسلامي. مصر والشام. وكان لهذه الحملات أثر كبير في تعريف الغربيين على المنطقة العربية وحضارتها المزدهرة بالقياس على حالتهم الحضارية المتخلفة آنذاك.

المرحلة الثالثة:

وتمتد من بداية القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية الربع الثالث من القرن السابع عشر: ونشهد خلال هذه الفترة تقدما ملحوظا في جمع المخطوطات العربية، فقد ذكر وجود ست مخطوطات عربية في مكتبة قصر بلوا Blois على نهر اللوار. وأما مكتبة قصر فونتينبلو Fontainebleux على نهر السين، فقد كانت تحتوي على أربعين مجلدا شرقيا من بينها بعض المجلدات العربية المخطوطة. وكانت مكتبة الملكة كاترين دوميديتشي[13] Catherine de Medicis تحتوي، بحسب ما ذكر الجرد الذي أجري لها سنة 1589، على خمس مخطوطات عربية فقط. ولم يزد هذا العدد من المخطوطات حتى سنة 1668, بل إن قسما منه تعرض للتلف أو الضياع والفقدان. وصنع فهرس لمكتبة الملك، سنة1645، لم يذكر أكثر من تسع مخطوطات عربية.

وهكذا يتبين لنا أنه لم تكن في فرنسا، حتى نهاية النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، غير قرابة عشرين مخطوطة فقط. وهذا يدل دلالة قاطعة على عدم الاهتمام الجدي بالآثار العربية المخطوطة من قبل الفرنسيين. ونجد فوكيه Foucquet بعد ذلك بقليل يشتري عبر تجارة الكتب خمس مخطوطات عربية تضاف إلى العدد السابق ذكره.

المرحلة الرابعة:

وتمتد من بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي إلى قيام الثورة الفرنسية سنة 1789: ومنذ هذه الفترة بدئ بتلقي مخطوطات مشتراة من بلدان المشرق العربي. إذ كان كولبير يرسل المبعوثين-كما رأينا- أو يكلف بعض المعتمدين في القنصليات الفرنسية في المشرق، وخصوصا في إستنبول والمنطقة العربية، لجمع المخطوطات العربية والشرقية، والمعروف أن هذا الوزير كان وراء مشروع إقامة مدرسة فتيات اللغات التي تعلم اللغات العربية والتركية والفارسية لعدد من الطلاب الفرنسيين، لأنه كان يخطط بذلك لخدمة مطامع بلاده التجارية والسياسية أو الاستعمارية

على وجه التحديد.

وقد تمكنت بعثة فانسليبن، المار ذكرها من قبل، من أن تجمع لمكتبة الملك قرابة ستمائة وثلاثين مخطوطة شرقية كان عدد العربية منها أربعمائة وثلاثين. وقد أحصي بطرس دياب (أو بيير ديبي P.Dipy كما عرف في فرنسا) في الجرد الذي أجراه سنة 1677 قرابة ثمانمائة وسبع وتسعين مخطوطة عربية.

وفي سنة 1668 تم نقل مئة وأربع وتسعين مخطوطة عربية من مكتبة الكردينال مازاران[14] Mazarin إلى مكتبة الملك، كما نقل إليها أيضا مئتان وسبع وأربعون مخطوطة عربية أخرى من مكتبة جلبير غولمن G.Gaulmin.

ثم توقفت عملية الحصول على المخطوطات منذ سنة 1682 إلى نهاية القرن السابع عشر، إذ لم تسجل-خلال هذه الفترة-زيادة هامة في عدد هذه المخطوطات.

وفي سنة 1700، تم الحصول على ثماني مخطوطات تقريبا، وأضافت مجموعة ثيفنو إلى هذا العدد قرابة ست وتسعين مخطوطة سنة 1712 ثم أضافت إليها تركة غالان سنة1715 قرابة خمس عشرة مخطوطة أخرى. ثم زاد عدد المخطوطات سنة 1719 قرابة ثماني مخطوطات من مكتبة فيليبير دولامار Ph. de La Marre. وكانت حصيلة رحلة بول لوكا إلى الشرق ثلاثا وعشرين مخطوطة. وحصل القس سفان، المبعوث إلى الشرق في سنتي 1729 و1730، على مئتي مخطوطة عربية من إستنبول، ثم تلقى بعد عودته إلى فرنسا عددا آخر منها كان معارفه في تركيا يرسلونها إليه.

وحصلت مكتبة الملك سنة 1732 على تركة كولبير من المخطوطات العربية، وكان عددها مئة وثماني وثمانين مخطوطة. وحمل دومابيه، القنصل الفرنسي في الشرق، قرابة أربع وأربعين مخطوطة عربية.

وأصبح العدد الإجمالي للمخطوطات العربية سنة 1738، بحسب الفهرس الذي وضع لها ونشر في العام التالي، ألفا وستمائة وثلاثا وثمانين مخطوطة.

ومن سنة 1739 إلى سنة 1789، أي طيلة نصف قرن من الزمان، لم نلحظ غير زيادة طفيفة على العدد الإجمالي الآنف ذكره.

ولا يفوتنا، هنا أن نذكر أنه منذ نهاية الحروب الصليبية في حدود سنة 1290 حتى الثورة الفرنسية، لم ينقطع اهتمام رجال الدين المسيحي في

الأديرة عن جلب المخطوطات العربية لتحقيق غايات دينية أو علمية أو لغوية ما، وسوف نرى أن كثيرا من الأديرة، التي وضعت الثورة يدها على مكتباتها، كانت تضم بين كتبها أعدادا من المخطوطات العربية، التي ربما تعلق أكثرها بالشؤون الدينية المتعلقة بمسيحيي المشرق العربي، إلا أن عدد هذه المخطوطات لم يحدد بدقة في المصادر التي عدنا إليها بشأنها. وهي على أي حال تزيد عدد المخطوطات العربية في مكتبات فرنسا عامة.

المرحلة الخامسة:

وتمتد من الثورة الفرنسية 1789 إلى السنة التي بدأ فيها نشر فهرس دوسلان للمخطوطات العربية في المكتبة الوطنية La Bibliotheque Nationale بباريس، أي إلى سنة 1883: وأول ما نلاحظ، في مجال جمع المخطوطات العربية في فرنسا خلال هذه الفترة، قيام حكومة الثورة بجمع كل ما تضمه أديرة فرنسا وكنائسها من هذه المخطوطات، في إطار عملية واسعة النطاق لجمع المخطوطات عموما في تلك المكتبة الوطنية المركزية في فرنسا. وقد دمج الحاصل من هذا الجمع بما استولى عليه الثوار من مكتبات ملوك فرنسا ووزرائهم على اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم، وكانت هذه المكتبات تنمو منذ زمن بعيد وتزدهر بما يتوفر لها من إمكانات مادية وفيرة وقدرة على استجلاب المخطوطات من كل مكان. ولم يلبث اسم هذه المكتبة المركزية أن أصبح في زمن إمبراطورية نابليون (المكتبة الإمبراطورية Imperiale)، ثم اصبح اسمها مع عودة الملكية (المكتبة الملكية Royale)، إلى أن عاد اسمها الأول، أي المكتبة الوطنية، بعد قيام النظام الجمهوري (الجمهورية الثانية بين سنتي 1848 و 1852، ثم الجمهورية الثالثة منذ سنة 1870 التي قامت على أثر الحرب مع ألمانيا وعرفت بحرب السبعين، ولا تزال المكتبة تحمل هذه التسمية إلى يومنا هذا).

كان عدد المخطوطات التي جمعت من مكتبات الأديرة بفرنسا ثلاثمائة وخمسين مخطوطة، منها ثلاثمائة من مكتبة دير سان جرمان دي بري St- Germain des Pres وحدها، مما يؤكد لنا عدم دقة هذا الإحصاء على وجه العموم، إذ لا يعقل أن يشتمل دير واحد منها على هذا العدد الكبير في حين أن سائر الأديرة لا تحتوي على غير خمسين مخطوطة منها.

وأما نزول الحملة الفرنسية في مصر وامتدادها إلى بلاد الشام فقد

كانت حصيلته أكثر من ثلاثمائة وعشرين مخطوطة كان معظمها عربيا، وقد جمعت بعناية فائقة من قبل علماء المشرقيات الذين كانوا يرافقون نابليون، ومنهم: بارادي دو فنتور Paradis de Ventoure الذي توفي هناك بعد فك الحصار عن عكا[15]، وآميدي جوبير Aemedee Jaubert، ومارسيل Marcel.

وجاء احتلال الجزائر-منذ سنة 1830- ليدفع عجلة الدراسات العربية في فرنسا أشواطا بعيدة إلى الأمام، لأن الجزائر أصبحت مصدرا ثرا للحصول على المخطوطات العربية خاصة. ونجد وزير الحربية الفرنسية نفسه قد افتتح عمليات الحصول على هذه المخطوطات وإرسالها إلى بلاده سنة 1832، فكانت الدفعة التي نقلها إلى المكتبة الوطنية (الملكية) بباريس تبلغ ثماني عشرة مخطوطة.

وكانت مجموعة دو شرفيل التي جمعت من مصر تشتمل على قرابة ألف وخمسمائة مخطوطة، ومعظمها مخطوطات عربية، وقد أرسلت إلى فرنسا سنة 1833، وكان لهذه الدفعة الكبيرة أهميتها الخاصة في تنمية مقتنيات فرنسا من هذه المخطوطات، ودلالة هذا العدد الكبير منها هي أن الاهتمام بالدراسات العربية قد اتخذ اتجاها جادا وجديدا في فرنسا، ولعل أهم ما شجع على هذه النقلة الواسعة (معهد فرنسا) الذي أنشأه نابليون في القاهرة إبان الحملة، بالإضافة إلى العلاقات الحسنة التي قامت بين فرنسا ومحمد علي باشا في تلك الفترة التي أعقبت تمكن محمد علي من وضع يده على مقاليد الأمور في مصر بقوة.

وكان الطبيب الفرنسي كلوت بك قد نقل إلى فرنسا سنة1866 قرابة ثماني عشرة مخطوطة، وكان سنة 1825 رئيسا لجراحي الجيش المصري ومدرسا في مدرسة الطب التي أنشأها محمد علي[16]. وأضاف أوجين بوجا Eug. Boujade إلى ذلك سبع عشرة مخطوطة أخرى في سنة 1867.

ولا تأتي سنة 1883 حتى يبلغ عدد المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية وحدها، بحسب فهرس دوسلان الذي طبعه زوتنبرغ، قرابة ثلاثة آلاف مجلد وأربعة مجلدات، ويحتمل أن يكون كثير من هذه المجلدات قد احتوى كل منها على أكثر من مخطوطة في الوقت نفسه. يضاف إلى هذا العدد قرابة أربعمائة وتسع وأربعين مخطوطة جلبت إلى المكتبة الوطنية بعد توقف العمل في الفهرس المذكور آنفا وقبيل نشره.

ولم تكن المكتبة الوطنية الوحيدة التي تضم مخطوطات عربية في باريس أو فرنسا، إذ يمكننا أن نضيف إليها المكتبة التابعة للمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية على سبيل المثال. وكانت هذه المدرسة قد أنشئت أولا في نطاق المكتبة الوطنية بباريس سنة1795، ولكن التوسع الذي فرض عليها هناك بزيادة عدد اللغات من جهة، وعدد الطلاب من جهة أخرى، أدى إلى نقلها إلى مكان آخر في المدينة بعيد عن المكتبة الوطنية التي كانت محتوياتها من المخطوطات والمطبوعات موضوعة تحت تصرف أساتذة اللغات الشرقية وطلابهم في المدرسة، فدفع هذا البعد إلى إنشاء مكتبة خاصة بهذه المدرسة تضم كتبا مطبوعة ومخطوطة بمختلف اللغات الشرقية التي تدرس فيها، ومن بينها اللغة العربية، وكان الحصول على هذه الكتب المخطوطة يتم إما بالشراء أو بتلقي الهبات التي كانت تقدم لها من داخل فرنسا وخارجها[17].

ونضيف إلى هذه المكتبة تلك المكتبات الخاصة بكبار المستعربين وهواة جمع الكتب والأديرة، فقد كانت هذه المكتبات تغص أحيانا بالمخطوطات، ومن جملتها المخطوطات العربية. فالمستعربون، مثلا، في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين كان بإمكانهم الحصول على ما شاؤوا من مخطوطات عربية من مختلف البقاع وبأي وسيلة من أجل خدمة دراساتهم وبحوثهم، أو للقيام بتحقيق هذه المخطوطات ونشرها، أو من أجل ترجمتها إلى اللغة الفرنسية. وكان بعض هؤلاء المستعربين يوصي بمكتبته الخاصة التي جمعها طوال حياته إما لمكتبة مدرسة اللغات الشرقية، وإما للمكتبة الوطنية. ونجد مثالا على ذلك ما فعلته زوجة المستعرب هرتويغ ديرنبورغ H.Derenbourg من تقديم مكتبة عمل زوجها، بعد وفاته، إلى مدرسة اللغات الشرقية التي كان أستاذا فيها إلى أن مات سنة 1909، وكان هذا التصرف بناء على وصية منه بذلك[18].

ولنقرأ السطور التالية التي نقتبسها من رسالة بعث بها دومينار، رئيس الجمعية الآسيوية بباريس في 21 تموز من سنة 1898 بعد وفاة شارل شيفر بشهور، إلى رئيس المكتبة الوطنية بباريس عن مجموعة مخطوطات شيفر:

«إذا كانت المصادفة المأسوف لها قد خطفت منا قبل أربعين سنة مجموعة ايتيين كاترمير Et. Quatremere الجميلة، لصالح المكتبة الملكية في ميونيخ، فإن لدينا ثقة تامة اليوم في التحرر المستنير للبرلمان، ونحن نرجو بشدة ألا

يسمح بتبعثر مجموعة كونها عالم فرنسي. . لتذهب وتنمي المكتبات الأجنبية أو رفوف الهواة غير المبالين بالفوائد الحقيقية للعلم والفن. وبكم يتعلق الدفاع عن هذه القضية التي هي أيضا قضية المكتبة الوطنية، أضعها بين يديكم مع يقيني أنكم ترغبون في دعمها بقوة لدى السيد وزير التعليم العام والفنون الجميلة»[19]

وقد وضع ورثة شيفر، بالفعل، مجمل المخطوطات الشرقية التي جمعها طيلة حياته تحت تصرف المكتبة الوطنية في سنة 1899[20]. وكانت هذه المجموعة تحتوي على زهاء سبعمائة وواحد وتسعين مجلدا عربيا وتركيا وفارسيا، منها أربعمائة وست مخطوطات عربية تقع في مئتين وستة وسبعين مجلدا، وهي منتقاة انتقاء متقنا، والمعروف أن شيفر كان مدرسا للفارسية في المدرسة، ثم عمل مديرا لها من سنة 1867 إلى سنة 1898 التي توفي فيها.

ونضيف إلى ذلك المكتبة التي تمتلكها الجمعية الآسيوية، وهي تشتمل على كتب ومخطوطات عربية أيضا. وهناك مكتبة جامعة ستراسبورغ التي تحتوي على مخطوطات عربية كذلك. إضافة إلى احتمال وجود مخطوطات قليلة أو كثيرة في مكتبات الجامعات الفرنسية المختلفة أو في مكتبات خاصة بأساتذة هذه الجامعات أو في مؤسسات علمية لم يحصر بعد ما تملك من هذه المخطوطات العربية.

المرحلة السادسة:

وتمتد من سنة1883 إلى سنة 1975: وفيها أضافت فرنسا مجموعات جديدة من المخطوطات العربية، وخاصة بعد احتلالها تونس سنة 1882 ثم مراكش (المملكة المغربية) سنة 1914، ثم سورية سنة 1920.

ولا شك في أن النهضة العربية قد أظهرت للمثقفين ورجال العلم والمسؤولين في بلادنا تلك الأهمية التي تتمتع بها المخطوطات المتوفرة في مختلف المكتبات الخاصة والعامة في أقطارنا مدنا وقرى. وهذا الوعي لقيمة المخطوطات أدى إلى الدعوة إلى حفظها وعدم التفريط بها في بيع أو إهداء أو غيرهما من أساليب فقد المخطوطات وهدرها، وكان من أبرز هؤلاء الدعاة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي الذي كان يرى أن «من المصائب التي أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا

وبريطانيا والعظمى وهولندا وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتبا تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكان القوم، ولاسيما بعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع، بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل أن يفضلوا درهما على أنفس كتاب.. . حدثني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق ويختلف إلى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة.. وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام.. رحل بها إلى بلاده، فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها»[21]

ولذا صارت مهمة الفرنسيين صعبة في الحصول على المخطوطات العربية من بلدان المشرق العربي، إذ أخذت دار الكتب الوطنية بمصر تحرص على ما لديها منها، وكذا صارت تفعل دار الكتب الظاهرية بدمشق التي قام إلى جانبها الغربي المجمع العلمي العربي سنة 1919 أيام الاستقلال الأول في ظل الحكم الفيصلي، وسلمت رئاسته لمنشئه الأول والساعي في تأسيسه الأستاذ الرئيس محمد كرد علي.

وقد أحسنت جامعة الدول العربية صنعا عندما قامت هيئاتها الثقافية بالاهتمام بفهرسة المخطوطات العربية في البلدان العربية، وبمحاولتها استرداد ما لدى الدول الأجنبية من هذه المخطوطات في مكتباتها، ولما كان من العسير جدا الحصول على أصولها المخطوطة نفسها في تلك الدول الأجنبية، الحريصة بدورها على مقتنياتها منها، لإعادتها إلى الوطن الأم، فقد اتجهت جامعة الدول العربية إلى الحصول على هذه المخطوطات ولكن بطريقة التصوير الوثائق (المكروفلم) لأهم ما تصل إليه أيدي الخبراء العرب في هذا الميدان من مخطوطات، بل إن هذه الطريقة امتدت إلى المكتباتالعربية نفسها لتجميع صور لمخطوطاتها تجميعا مركزيا في موضع واحد يوضع تحت تصرف الباحثين مباشرة وترسل منه نسخ لها لمن يرغب فيها من الباحثين العرب على مستوى الوطن العربي. وقد صنعت لهذه المخطوطات المصورة فهارس تساعد الباحث في الرجوع إليها عند الحاجة.

وهكذا حدث تحول في إمكانيات الحصول على المخطوطات العربية من

قبل الدول الأجنبية، ومن بينها فرنسا، وصارت مؤسساتها العلمية والثقافية تعتاض عن الأصل المخطوط بالحصول على صور مكروفلمية لها، وتعمل الجهات المسؤولة في مكتباتها على طلب مقابل أو بديل لما يصور عندها من مخطوطات في بعض الأحيان من أجل إغناء مقتنياتها من المخطوطات العربية.

ونستطيع القول بهذا أن المخطوطات الأصلية لم تعد موضوعا للاقتناء المباشر والتداول والتبادل، لأنها صارت ملكا تاريخيا للمؤسسات الثقافية الوطنية التي لا تفرط بها، لما لها من قيمة فنية وأثرية إلى جانب قيمتها العلمية والأدبية.

ومما يسهل العمل على الباحثين تطور وسائل النسخ والتصوير ودقتها الفنية في هذا المجال إلى حد إظهار أنعم التفاصيل وأصغرها إذا تم هذا التصوير بفلم ملون مثلا، وقد خففت هذه الحقيقة من الاندفاع وراء الحصول على المخطوطات الأصلية، وأسهم في هذا التخفيف أيضا أن عددا لا يستهان به منها قد رأى النور عن طريق النشر والتوزيع على أوسع نطاق ممكن.

ويزيد عدد المخطوطات العربية اليوم في المكتبات الفرنسية المختلفة، والتي جمعت عبر المراحل التاريخية المختلفة التي مر بنا عرضها، على سبعة آلاف مخطوطة يعود تاريخ نسخها إلى عصور تاريخية مختلفة، فمنها ما يعود إلى القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري)، ومنها ما يعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي (أي الثاني عشر الهجري) قبل انتشار الطباعة والمطابع في البلدان العربية على وجه العموم.

وقد اهتم فهرس دوسلان بذكر تاريخ نسخ كل مخطوطة، وتاريخ مولد مؤلفها أو وفاته، ولهذا قيمته في توثيق المخطوطة وبيان العصر الذي ألفت فيه أو الذي نسخت فيه.

3- موضوعات المخطوطات العربية في فرنسا:

إذا استثنينا المخطوطات العربية التي تتناول بالذكر الأناجيل وسير القديسين وتاريخ العقيدة واللاهوت وغير ذلك من الشؤون الدينية المسيحية، وهي التي يبدأ دوسلان بإحصائها في فهرسه تحت رمز A، فإننا نجد

دوسلان هذا يحصي في فهرسه هذا المخطوطات العربية الإسلامية تحت رمز B. وهذه هي تقسيمات دوسلان لموضوعات المخطوطات العربية تحت الرمز B، أذكرها كما وردت في مطلع الفهرس لما فيها من فائدة كبيرة في تبيان موضوعات واحدة من أهم مجموعات المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس خاصة وفي فرنسا عامة:

1- القرآن.
2- تفاسير القرآن.
3- الأحاديث.
4- الفقه.
5- علم الكلام.
6- التاريخ.
7- السيرة.
8- علم الكون والجغرافيا.
9- الموسوعات.
10- الفلسفة.
11- الأخلاق العامة.
12- الإدارة.
13- الرياضيات.
14- الميكانيك.
15- الموسيقى.
16- الفلك.
17- التقويم.
18- النجوم.
19- العلوم الخفية (السحر والكيمياء السحرية..).
20- التاريخ الطبيعي.
21- الزراعة.
22- البيطرة وعلم الخيل.
23- الفروسية والطرد وفن الحرب.
24- الطب.

25- كتب في المجون والجنس.
26- الشعر:
أ- الدواوين والقصائد.
ب- المجموعات والمختارات.
27- القصص الخيالية:
أ- الحكايات والخرافات الحكمية والقصص المختلفة.
ب- القصص والروايات.
جـ- قصص الفروسية.
د- المقامات.
28- الأمثال والحكم.
29- فقه اللغة:
أ- بشكل عام.
ب- النحو.
جـ- المعاجم.
30- البلاغة.
31- الإنشاء.
32- العروض.
33- كتب المصادر (البيبليوغرافيا).

ولا شك في أن قراءة متأنية لهذا الجدول المذكور أعلاه تبين لنا جملة الموضوعات التي تدور عليها المخطوطات العربية في فرنسا على وجه الإجمال، وهي تصور في الوقت نفسه تلك الاهتمامات التي كانت تشغل بال علماء الاستعراب والمسؤولين السياسيين معا خلال المراحل التاريخية المختلفة التي شهدت جمع هذه المخطوطات.

فالمخطوطات العربية الإسلامية ذات الطابع الديني دليل على رغبة العلماء والسياسيين في معرفة الإسلام الذي ظهر دينا في جزيرة العرب، ثم حمل العرب لواءه بعد أن آمنوا به وخرجوا ينشرونه بالدعوة شرقا وشمالا وغربا، وعلى أساسه أقاموا دولة قوية واسعة نشأت في ظلالها حضارة إنسانية راقية امتدت آثارها إلى العصر الحديث، وكان لها دور في تغيير تاريخ العالم ورسم خريطته، ودفعت إلى النهضة الأوربية.

وكانت الرغبة في هذه المعرفة وراء البحث عن سر هذه القوة التي يتمتع بها الإسلام حتى اليوم. وكانت بوادر هذه المحاولة لتعرف الإسلام وحضارته قد ظهرت مع الحروب الصليبية وحملاتها على الديار المقدسة خاصة والشام ومصر عامة، وكان كثير من قادة الصليبيين ورعاياهم يعرفون شيئا أو أشياء عن العرب والإسلام، ومن ذلك أن الصليبي الفرنسي رينو دو شاتيون Renaud de Chatillon سيد الكرك «كان يعرف العربية وقواعدها، وكان يقرأ كتب التاريخ الإسلامي وكتب الحديث النبوي»[22]

وكان لسقوط القسطنطينية بيد العثمانيين المسلمين سنة 1453 وتهديدهم المباشر لأوربا من الشرق دور هام في التوجه إلى دراسة الإسلام وفهمه. وزاد رغبة الفرنسيين في معرفة الشرق العربي كذلك استيلاء العثمانيين على البلدان العربية في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، وحاجة فرنسا الماسة إلى خدمة مصالحها التجارية عن طريق معرفة لغات الشرق الأوسط والأدنى الرئيسية، وهي. العربية والتركية والفارسية.

وأما المخطوطات ذات الموضوعات التاريخية فلعلها كانت تمثل رغبة الفرنسيين في معرفة تاريخ العرب كما كتبوه بأيديهم. والمعرفة التاريخية بلا شك ضرورة هامة لكل دراسة تتعلق بدين أو مذهب أو مجتمع أو أمة أو أدب، لأن التاريخ هو الذي يضع كل شيء في سياقه العام من التاريخ أو الزمان الذي حدث فيه. وبذا تعرف نسبة الظواهر والوقائع بعضها إلى بعض.

وتعد المعرفة الجغرافية متممة أيضا للمعرفة التاريخية، لأن الجغرافيا تدرس المجال الحيوي للأمة والبيئة الطبيعية التي شهدت تطورها فيها، كما أن الشخصيات التي صنعت أحداث التاريخ إنما كانت تتحرك ضمن ذلك المجال وتحيا في تلك البيئة، ولذا لم يفت الفرنسيين أن يهتموا بالكتب العربية المخطوطة ذات الموضوعات الجغرافية لما تقدم لهم في أثنائها من معلومات طيبة عن جغرافية البلدان العربية والعالم الإسلامي، أو حتى العالم القديم كما رآه ووصفه أو تصوره الجغرافيون العرب والمسلمون. أضف إلى ذلك أن هذه الكتب كانت تتناول أيضا كثيرا من الجوانب الاجتماعية التي لها صلة بالأخلاق والعادات والتقاليد والأزياء والأطعمة والأشربة، كما تتناول بالوصف أحيانا بعض الآثار والأوابد القديمة أو

بعض القضايا الدينية والتاريخية، وربما تطرقت كذلك إلى شيء من اللغات واللهجات. وهذا كله أدى إلى نشأة دراسات خاصة عند المستعربين الفرنسيين وغيرهم عرفت باسم (الأدب الجغرافي العربي).

وكانت المخطوطات العربية اللغوية التي دارت حول النحو والبلاغة والعروض والمعاجم تمثل رغبة الفرنسيين في معرفة الأداة الحضارية الأولى التي انسكبت فيها أو منها الأفكار في مختلف نواحي المعرفة الإنسانية، وأعني بها اللغة العربية، لأنها لسان الإسلام التي استعملها العرب والموالي (وهم المسلمون من غير العرب) في مؤلفاتهم فكانت أداة التعبير عن آدابهم وعلومهم وفنونهم المختلفة.

وجاءت المخطوطات المتعلقة بموضوعات أدبية مختلفة، كالشعر ودواوينه ومجموعاته ومختاراته، أو النثر الفني كالقصص والمقامات والأمثال والحكم، تعبيرا عن رغبة هؤلاء الفرنسيين في معرفة روح الأمة التي تتمثل أكثر ما تتمثل في مطلق الأحوال في آثارها الأدبية شعرا ونثرا فنيا على حد سواء.

ووقعت المخطوطات المتعلقة بالفلسفة في دائرة اهتمام المستعربين الفرنسيين للإلمام بما لدى المسلمين من فلسفة خاصة بهم، أو للاطلاع على ما نقلوا إلى لغتهم من الفلسفة اليونانية القديمة عن طريق الترجمة مع ما أضافوا إليها من بنات أفكارهم على أيدي فلاسفتهم الذين تعمقوا في دراسة تلك الفلسفة. والهدف من وراء ذلك، كما هو ظاهر، رصد حركة الأفكار في المجتمعات الإسلامية. ومثل ذلك يقال في المخطوطات المتعلقة بعلم الكلام عند العرب.

ونرى المخطوطات العربية ذات الموضوعات العلمية والعقلية: كالرياضيات، والطب، والطبيعيات، والكيمياء، والفلك، والزراعة، والحيوان، والبيطرة، تحتل حيزا كبيرا بين المخطوطات عامة، وهذا يشكل دليلا على رغبة الفرنسيين في الاطلاع على الحياة العلمية والعقلية في إطار الحضارة العربية، وهي جانب مهم من جوانب تلك الحضارة، وللإفادة من محتوياتها قدر الإمكان كما كان أسلافهم من قبل يفعلون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد مع أخذ الفارق بين العصرين بعين التقدير.

يضاف إلى ذلك اهتمام الفرنسيين بموضوعات فنية واجتماعية أخرى تتمثل في المخطوطات ذات الموضوعات التالية: الموسيقى، وفن الحرب،

والفروسية، والطرد، وما أشبه ذلك، لما فيها من فوائد عملية مباشرة، إلى جانب الفائدة النظرية.

وكان للمخطوطات المتعلقة بالإدارة وشؤونها أهمية خاصة في فهم شؤون الإدارة في الدول العربية ومجتمعاتها، وفي الإفادة منها قليلا أو كثيرا في تطوير الإدارة الفرنسية ونظمها إن كان ذلك ملائما للعصر.

4- أنشطة المستعربين الفرنسيين وجهودهم حول المخطوطات العربية:

يمكننا أن نلخص جهود المستعربين التي بذلت حول المخطوطات العربية وخدماتها في الجوانب التالية:

1- البحث عن هذه المخطوطات وجمعها ونقلها إلى فرنسا.

2- حفظ هذه المخطوطات.

3- وضع فهارس تنظم الإفادة منها.

4- تحقيق بعضها ونشره.

5- نشر اقتباسات من بعض هذه المخطوطات أو خلاصات لها بغية تعريفها.

6- ترجمة بعض هذه المخطوطات إلى الفرنسية.

7- نسخ بعض هذه المخطوطات أو تصويرها.

وقد مر بنا، فيما سلف، ما كان المستعربون يقومون به في مجال النقطة الأولى من هذه الأنشطة، كما يمكن أن نلمس اهتمامهم بتنفيذ النقطة الثانية وهي حفظ هذه المخطوطات وصونها من التلف بكل الوسائل المتاحة لهم من خلال إقبالهم على اقتنائها والحرص على عدم التفريط بها.

وكان المستعربون قد فطنوا إلى أهمية النقطة الثالثة، وهي فهرسة المخطوطات العربية في مكتباتهم الخاصة والعامة، للإفادة منها والرجوع إليها بأيسر كلفة، مع تعرف أوصافها من خلال نبذة قصيرة عن كل مخطوطة في مثل هذه الفهارس التي يضعونها لها. وكان أول فهرس للمخطوطات العربية في فرنسا هو ذاك الذي وضعه بطرس دياب الحلبي، سنة1667، لمكتبة الملك. ويروى أنه قام بوصف المخطوطات العربية التي كانت تحتوي عليها مكتبة الوزير كولبير، ويقال إنه لم يكن وحده في هذا العمل، وإنما

شاركه في إنجازه آخرون، إلا أن هذا الفهرس لم يكن تاما.

وأنجز المستشرق دربلو d'Herbelot والقس رينو دو Renaudot، سنة 1690، ملخصلت مجموعة ومنسقة كونت المجلد الزول من الفهرس العام لمخطوطات مكتبة الملك، وكان موضوعها المخطوطات العربية في تلك المكتبة[23]

وقام باروت الشامي ,Barout الذي كان مترجما في مكتبة الملك، سنة1715، بجرد فهرس جديد للمكتبة يشمل المخطوطات العربية والتركية والفارسية، ولكنه لم يتمه.

ولما صار بالإمكان طبع الفهرس الذي يوضع للمخطوطات، شرع الماروني يوسف الأشقر، الذي كان يعرف بالـ Achcar والـ Ascary عند الفرنسيين، في وضع وصف للمخطوطات المجتلبة حديثا، وللمخطوطات العربية والسريانية السابقة، وذلك سنة 1735، وتم نشر فهرس للمخطوطات الشرقية سنة 1739 شمل فيما شمل عمل كل من دربلو والقس رينودو معا.

وصنع إلزيار دو سنكسي Alzear de Sanxay، مبشر الأخوية الكبوشية، فهرسا لمخطوطات مكتبة سيغييه Seguier مستشار الملك لويس الثالث عشر تم الرابع عشر.

وقام سلفستر دو ساسي S.de Sacy، بعد حريق مكتبة دير سان جرمان أثناء أعمال العنف الثوري سنة 1794، بوضع جرد للمخطوطات الشرقية فيها ومن جملتها المخطوطات العربية.

وقد صنع فهرس لمجموعة دو شرفيل في القاهرة سنة 1825، وعندما دخلت هذه المجموعة في المكتبة الوطنية صنع لها دو سلان فهرسا آخر.

ولما كثرت المخطوطات العربية، وحدث ما يشبه الارتباك في العودة إليها في المكتبة الوطنية، عمد المسؤولون فيها إلى وضع فهرس جديد شامل ومطبوع ليكون أداة عمل بين أيدي العلماء والباحثين من المستعربين أساتذة وطلابا على حد سواء. وكلف هؤلاء المسؤولون المستعرب الإيطالي المعروف ميشيل أماري[24] M.Amari بوضع مثل هذا الفهرس، فأخضع التراث العربي في المكتبة لمراجعات دقيقة ووضع عددا كبيرا من الملخصات والنبذ خلال عدد من السنين، ولكن الموت لم يمهله حتى ينجز ما كان قد بدأ به، إذ اختطفه سنة 1859، فتوقف العمل، إلى أن تابعه بالهمة نفسها المستعرب هرتويغ ديرنبورغ سنة 1867، ولكنه توقف عن متابعته سنة 1870، فقامت

إدارة المكتبة الوطنية بتكليف المستعرب الفرنسي ماك غوكان دوسلان Mac Guckin de Slane، وهو من أصل أيرلندي، بمهمة متابعة العمل في هذا الفهرس سنة1872، فتمم العمل به بوضع الملخصات التي تصف كل ما يتعلق بالمخطوطة، وذلك بإعطاء المعلومات التالية: قياس قطع ورق المخطوطة طولا وعرضا بالسنتيمتر، وعدد الأسطر في الصفحة الواحدة وسطيا، وتاريخ نسخها، واسم الناسخ إن كانت منسوخة عن مخطوطة سابقة، واسم المؤلف إن كانت تلك المخطوطة مكتوبة بخطه، مع تاريخ وفاته، وعدد ورقات المخطوطة، مع إثبات الأسطر الأولى من هذه المخطوطة وشيء من خاتمتها، مع إعطاء وصف مقتضب لمضمونها أو موضوعها، والإشارة إلى حالتها العامة إن كانت سليمة أو أصابها شيء من العطب أو الخرم أو النقص، إلى غير ذلك من المعلومات الدقيقة التي كانت تتطلب صبرا ودقة ومنهجية فائقة في العمل. وكانت حصيلة جهد دو سلان جاهزة للطبع حين تخطفه الموت أيضا 1878. وقد أعطى هذا العمل الجديد المتكامل تسلسلا جديدا لأرقام المخطوطات التي كانت قد أعطيت لكل منها من قبل. وكان وصفه للمخطوطات العربية دقيقا مفيدا كل الفائدة بحسب ما ذكرنا. وظل هذا الفهرس الفريد مخطوطا إلى أن كلف المستعرب زوتنبرغ بإخراجه للنور مطبوعا لتعم فائدته، فتم نشره فعلا ما بين سنتي 1883 , 1895.

نلحظ من خلال هذا الاستعراض المتسلسل زمنيا أن الفهارس والجرود التي وضعت للمخطوطات العربية كانت تزداد دقة وشمولا وكمالا مع تقدم الزمان وتطور البحث، ولم تقتصر الفهرسة على مخطوطات مكتبات ملوك فرنسا التي تحولت إلى المكتبة الوطنية، وإنما كانت تشمل أيضا مكتبات خاصة أو مكتبات لمؤسسات علمية أخرى.

وقد نشر في فرنسا سنة 1900 فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية التي تضمها مجموعة شيفر، وكان بلوشيه قد وضعه لها، ثم أدخلت هذه المجموعة في المكتبة الوطنية سنة 1899 بعد وفاة صاحبها كما ذكرنا من قبل.

ووضع بلوشيه نفسه فهرسا آخر للمخطوطات العربية التي اقتنتها المكتبة الوطنية ما بين سنتي 1884 و1924، أي خلال أربعين سنة، وقد شمل هذا الفهرس وصف زهاء ألفين وثمان وثمانين مخطوطة عربية، وتم نشره

في باريس سنة1925، فجاء متمما لفهرس دوسلان المذكور آنفا، وهو مفيد جدا للباحثين.

ونشر غريفو R.Griveau، في مجلة (الشرق المسيحي) La revue de L'Orient Chretien، ما بين سنتي 1909 و 1912، فهرسا للمخطوطات العربية المسيحية التي اقتنتها المكتبة الوطنية بعد وضع فهرس دوسلان.

وقام جورج فايدا G.Vajda بوضع فهرس للمخطوطات العربية التي أدرجت سهوا في المكتبة الوطنية بباريس بين المخطوطات التركية والفارسية والعبرية، فكان متمما كذلك لعمل دو سلان، ونشره سنة 1953.

ووضع الأب أبانيس Abbanes، في مرسيليا، فهرسا عاما للمخطوطات الشرقية، ومنها العربية، وتم نشره في باريس سنة 1892.

وصنع غوليوس اوتنغ G.Otting، سنة 1877، فهرسا للمخطوطات العربية في جامعة ستراسبورغ.

وصنع لامبريشت Lambrecht، سنة 1897، فهرسا للمخطوطات العربية في مكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية.

ووضع فايدا أيضا فهرسا للمخطوطات العربية في المكتبة التابعة للجمعية الآسيوية بباريس، ونشره في مجلة هذه الجمعية المعروفة باسم (المجلة الآسيوية) le Journal Asiatique سنة 1950.

ونلحظ فيما سلف أن عددا ممن قاموا بوضع فهارس للمخطوطات العربية في المكتبات الفرنسية المختلفة لم يكونوا فرنسيين صليبة وإنما كانوا دخلاء على الجنسية الفرنسية، من مثل: الشاميين بطرس دياب وباروت الأشقر، والإيطالي أماري، والايرلندي دو سلان.

ولم يكن مجال الفهرسة محصورا، عند المستعربين الفرنسيين، على فهرسة المخطوطات العربية المتوفرة في المكتبات الفرنسية المختلفة التي رأيناها حتى الآن، وإنما امتد نشاطهم الفهرسي ليشمل وضع فهارس للمخطوطات العربية في مكتبات خارج فرنسا: سواء أكانت هذه المكتبات في بعض البلدان العربية أم بعض البلدان الأجنبية الأخرى.

ومن ذلك أن المستعرب الفرنسي ديرنبورغ ذهب إلى مكتبة قصر الإسكوريال-Es curial قرب مدريد بإسبانيا، في مهمة رسمية، لفهرسة ما فيها من مخطوطات عربية، فصنع لها فهرسا من جزأين نشر الأول منهما

سنة 1884، وكان يتناول موضوعات النحو والبلاغة والشعر والآداب والمعاجم والفلسفة. ونشر الثاني سنة 1903، وكان يتناول موضوعات الأخلاق والسياسة. وقد أكمل ليفي-بروفنسال Levi-ProvencaI فهرسة هذه المخطوطات في المكتبة نفسها سنة 1928، وكانت حصيلة ذلك جزءا ثالثا متمما للجزأين الأولين. ثم نشر رينو Renaud، في سنتي 1939 و1941، فهرسا مكملا لهذه الفهارس استنادا إلى بعض المذكرات التي خلفها ديرنبورغ نفسه.

وأما في البلدان العربية، فقد قام المستعرب رنيه باسيه R.Basset في الجزائر، بوضع فهرس لمخطوطات جلفا، نشره سنة 1884 في نشرة (المراسلات الأفريقية) Le Bulletin de la Correspondance Africaine.

ووضع فانيان E.Fagnan فهرسا للمخطوطات العربية والتركية والفارسية في المكتبة الوطنية بمدينة الجزائر، ذيله بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين والنساخ، ونشره في سلسلة الفهرس العام لمخطوطات المكتبات العامة في فرنسا سنة 1893 في المجلد الثامن منها.

ثم وضع أوغست كور A.Cour فهرسا للمخطوطات العربية في المكتبات الجزائرية الرئيسية، ونشره في الجزائر سنة 1907.

كما قام رنيه باسيه كذلك بوضع فهرس لمخطوطات مكتبة آل عظوم في القيروان بتونس، ونشره في نشرة (المراسلات الأفريقية) سنة 1884 أيضا.

وقام روا B.Roy بنشر فهرس للمخطوطات التاريخية المحفوظة في مكتبتي جامع الزيتونة (العبدلية والأحمدية)، كما وضع كذلك فهرس المخطوطات والمطبوعات في مكتبة الجامع الكبير بتونس، ونشره في تونس سنة 1900.

ووضع باسيه كذلك، في مراكش، فهرسا للمخطوطات العربية في مكتبتي فاس، ونشره في الجزائر سنة 1883.

ونشر جورج سالمون G.Salmon فهرسا لمخطوطات إحدى المكتبات الخاصة في مدينة طنجة، في مجلة (المحفوظات المراكشية) Archives Marocaines وذلك في سنة 1905.

ووضع ميار Mayard فهرسا للمصنفات المغربية في مدينة طنجة نشر في مجلة (العالم الإسلامي) La Revue du Monde Musulman في سنتي 1917 و 1918.

ووضع ديستان Destaing فهرسا للمخطوطات العربية في غربي أفريقيا، ونشرها في (المجلة الأفريقية) La Revue Africaine في السنوات 1911 و 1912 و1913.

ونشر ليفي-بروفنسال أيضا، في باريس سنة 1921 ثم في الرباط سنة 1922، فهرسا للمخطوطات العربية في مدينة الرباط.

ووضع بلاشير R.Blachere ورينو فهرسا للمخطوطات العربية المستجدة في المكتبة العامة للمحمية الفرنسية بمراكش، ونشراه في سنتي 1929 و1930 في مجلة (هسبيرس) Hesperis.

ونشر رينو كذلك فهرسا للمخطوطات العربية المتعلقة بالطب في مكتبة الرباط أيضا، ونشره في نشرة الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب سنة1923.

كان هذا حديثا وافيا تقريبا عن نشاط الفهرسة الذي قام المستعربون في فرنسا بتغطيته، وأما عن النقطتين الرابعة والسادسة من الجهود التي بذلها هؤلاء المستعربون، وأعني بهما: تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، فقد كان لهم فيهما باع طويل، ويمكننا أن نقول بحق أنهم كانوا يتفوقون في ميدان تحقيق هذه المخطوطات حتى وقت متأخر على كثير من محققينا العرب الذين تتلمذوا عليهم في العصر الحديث ولكن هؤلاء التلاميذ سرعان ما لحقوا بأساتذتهم في هذا الميدان وضارعوهم فيه ثم سبقوهم وانتزعوا راية التحقيق من أيديهم نهائيا تقريبا بعد أن توفرت للعرب المحدثين كل الوسائل والإمكانات المطلوبة في نطاق هذا النشاط العلمي: من جامعات تخرج أجيالا من الباحثين والدارسين المحققين المختصين، ومن توفر المطابع العربية ذوات الحروف الجيدة والإخراج الجميل، ومن حاجة ماسة إلى إحياء التراث العربي المخطوط حرصا عليه من الاندثار، ومن ازدهار الثقافة العربية والإقبال على المطالعة والقراءة بشغف بانتشار التعليم المستمر والدائب على مختلف الصعد بين أبناء العربية ونشوء أجيال جديدة متعطشة لكل فروع المعرفة القديمة والحديثة.

وأما الأمر الذي يسر للمستعربين القيام بمثل هذا النشاط فهو وجود هذه المخطوطات العربية تحت أنظارهم وفي متناول أيديهم في مكتبات بلدانهم أو مكتبات المستعمرات التي يسيطرون عليها أيام الاستعمار الفرنسي لبعض البلدان العربية، إضافة إلى وجود الرغبة الملحة لكشف العالم العربي

وتوثيق الصلة به خدمة للمصالح السياسية والاقتصادية والثقافية في آن واحد.

وكانت كنوز المخطوطات العربية قد لفتت الانتباه، منذ زمن بعيد، وأثارت الاهتمام بمعرفة محتوياتها والإفادة منها. ففي سنة1785 كان الملك لويس السادس عشر يفكر في تنفيذ مشروع هام يقوم على ترجمة كل ما في المكتبة الملكية من مخطوطات شرقية، ومن بينها العربية، للاطلاع على ما فيها من معرفة يمكن أن تثري الثقافة الفرنسية وتدفعها إلى الأمام[25]. غير أن الزمن لم يمهله لتحقيق هذا المشروع الطموح، فطوي إلى أن جاء بعد ذلك مستشرقون ومستعربون كثيرون قدموا جهودهم منفردين أو متعاونين جزئيا في السبيل نفسه.

ويمكننا القول إن طباعة المخطوطات العربية قد سارت ببطء شديد ما بين سنتي 1696 و 1779، أي طوال ما يقرب من تسعين سنة، حتى أنه لم ينشر خلالها سطر واحد باللغة العربية[26]. غير أن الأمور انقلبت رأسا على عقب بعد ظهور المستعرب سلفستر دو ساسي الذي فتح بابا واسعا بما نشر من مخطوطات عربية لمن يريد سلوك هذا السبيل. فقد نشر في سنة 1822 مقامات الحريري بمقدمة عربية، ونشر معها شرحا مختارا من مختلف الشروح القديمة لها. وكان قد نشر من قبل، سنة 1806، كتاب (مختارات عربية) تتكون من ثلاثة أجزاء، متنا وترجمة، أطلق عليها عنوانا عربيا نصه: (الأنيس المفيد للطالب المستفيد)، مع بعض التعليقات. كما نشر نص (ألفية ابن مالك)، ومعلقة لبيد، وكتاب (كليلة ودمنة). فجاءت هذه الأعمال فاتحة عهد جديد مهم للمخطوطات العربية في فرنسا. إذ أخذت عمليات نشر المخطوطات العربية بعد ذلك تتوالى باطراد، ونشرت مختارات منها على نطاق واسع وفي شتى الموضوعات حتى بلغ عددها من الكثرة حدا يحتاج إلى دراسة خاصة به وحده مع ترجمات لأغلب ما نشر منها.

ويبدو لنا، في المقابل أن المستعمرين، على وجه العموم، قد اتجهوا في السنوات الأخيرة إلى ترجمة المخطوطات العربية واعتنوا بها أكثر من عنايتهم بتحقيق نصوصها، تاركين للمحققين العرب أن يصولوا ويجولوا في ميدانهم الأصيل[27]، إذ ان ميدان المستعربين الأكثر أصالة هو الترجمة بلا شك، وهم أقدر عليها بطبيعة الحال من أي مترجم عربي لها إلى لغتهم مهما

أوتي من مقدرة على إتقانها.

ولم تكن عملية نشر المخطوطات العربية أو ترجمتها تجري عشوائيا بلا ضابط لها أو ناظم، بل كانت هنالك ضوابط وقواعد نشأت منذ أن بدئ بنشر هذه المخطوطات أو ترجمتها، ثم تطورت مع الزمن وترسخت وشاعت بين المستعربين، حتى أثبتها جميعا المستعربان الفرنسيان ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه J.Sauvaget في كتيب نشر في باريس سنة 1953، ليكون دليل عمل يهتدي به المستعربون عامة والناشئون منهم خاصة، ومن أجل توحيد المنهج المتبع والمصطلح المستعمل فيما بينهم. فجاء هذا الكتيب على صغره ذروة تدل على نضج هذين النشاطين عند هؤلاء المستعربين، وعنوانه. (قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها)[28] Règles pour editions et traductions de textes arabes.

ولم يكن المستعربون، في الواقع، يكتفون بنشر النص المخطوط أو ترجمته، وإنما كانوا يكتبون له مقدمات يحاولون فيها دراسة مضمون المخطوطة التي ينشرونها أو يعرفون بها وبمؤلفها وبمنهج تأليفها، وكانوا يضيفون على النص هوامش توضيحية لما فيه من إشارات تحتاج إلى توضيح، وكانوا يصنعون لهذا النص فهارس متنوعة تسهم في كشف محتوياته والإفادة من مادته قدر المستطاع، وتسهل عمل الباحثين فيه، وكانت هذه الفهارس تثبت في آخر النص عادة.

وإذا ما استثنينا، هنا، ذكر المخطوطات العربية ذوات الطابع الأدبي واللغوي، التي نشرها المستعربون الفرنسيون، نظرا لأننا سنتطرق إليها في فصل لاحق، فإننا سنحاول فيما يلي أن نلم بشيء من أبرز ما نشر المستعربون الفرنسيون من مخطوطات عربية أو ترجموا في مختلف الموضوعات البارزة التالية على سبيل التمثيل لها لا الحصر.

أ- في الإسلام

اعتنى المستعربون بنص القرآن الكريم، فترجموه مرارا إلى اللغة الفرنسية، ومن أبرز ترجماته إليها:

1- ترجمة دورييه du Ryer (باريس، 1634).

2- ترجمة سفاري Savary (باريس، 1783).

3- ترجمة كازيميرسكي Kasimirsky (باريس، 1845).

4- ترجمة ماردروس Mardrus (باريس، 1926).

5- ترجمة مونتيه Montet (باريس, 1929).

6- ترجمة بلاشير (باريس، 1949- 1950).

وكانت كل ترجمة من ترجمات القرآن هذه تعاد طباعتها مرارا.

وفي مجال سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، قام ديفرجيه Desvergers باستخلاص ما ذكره منها أبو الفداء في تاريخه، ونشره متنا وترجمة في باريس سنة 1837.

وترجم برون Perron (قصة المعراج) ونشرها سنة 1854، كما نشر هو نفسه كتاب (المختصر في الفقه) لخليل بن إسحاق مع ترجمته في سبعة أجزاء بين سنتي 1848 و 1854.

ونشر وليم مارسيهW.Marcais كتاب (التقريب والتيسير) للإمام النووي متنا وترجمة مع الشرح، سنة 1900. وترجم كذلك (جامع الأحاديث) للإمام البخاري في أربعة مجلدات، وقد عاونه في الجزأين الأول والثاني هوداس Houdas، وتم النشر بين سنتي 1902 و 1914.

ب- في التاريخ:

1- كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي: وقد نشره كاترمير متنا وترجمة مع تعليقات غنية متنوعة، في أربعة مجلدات، بين سنتي 1837 و1845.

2- مقدمة ابن خلدون: وقد نشرها كاترمير أيضا متنا وترجمة، ثم أعاد دوسلان نشرها وترجمتها في ثلاثة مجلدات سنة 1872.

3- مقدمة تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: وقد نشرها جورج سالمون متنا وترجمة في باريس سنة 1904.

4- تاريخ فتح الأندلس لابن القوطية: وقد نشر هوداس، ثم قام بنشر مختارات منه مع ترجمتها في باريس سنة 1889.

5- كتاب (الخطط) للمقريزي: وقد نشره ثلاثة مستعربين فرنسيين في سبعة أجزاء على التوالي ضمن منشورات المعهد الفرنسي في القاهرة، فنشر بوريان الجزء الأول سنة 1895 والثاني سنة 1900. ونشر كازانوفا الجزء الثالث سنة 1906 والرابع سنة 1920. ونشر فييت الأجزاء الخامس والسادس والسابع بين سنتي 1911 و1927 متنا وترجمة.

6- كتاب (البدء والتاريخ) لابن مطهر المقدسي: وقد نشره هوار Cl. Huart متنا وترجمة في ستة أجزاء بباريس بين سنتي 1899 و1919.

7- مروج الذهب للمسعودي: وقد نشره دومينار متنا وترجمة في تسعة مجلدات، وعاونه في الثلاثة الأولى منها دو كورتي ,de Courteille في باريس بين سنتي 1861 و 1877.

8- كتاب (الروضتين) لأبي شامة: وقد نشره دو مينار أيضا متنا وترجمة سنة 1888.

9- الفخري لابن الطقطقي: وقد نشره ديرنبورغ بالتعاون مع أمار Amare متنا وترجمة.

10- تاريخ حلب لابن العديم: ترجمه بلوشيه سنة 1900.

11- فتوح شمالي أفريقيا والأندلس لابن عبد الحكم القرشي: وقد نشر غاتو Gateau متنا وترجمة في (كراسات تونس) Cahiers de Tunis بين سنتي 1931 و1939. ثم أعاد تحقيقه ونشره مع الترجمة منقحا وفي مجلد واحد سنة 1948.

12- مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك غرناطة: وقد نشرها ليفي-بروفنسال متنا وترجمة بين سنتي 1936 و1940.

جـ- في الجغرافيا:

1- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي: وقد نشره بخرائطه جوبير-Jaubert متنا وترجمة في جزأين بباريس بين سنتي 1836 و840.

2- تقويم البلدان لأبي الفداء: وقد نشره كاترمير بالتعاون مع ديرنبورغ ودو سلان سنة 1940.

3- المسالك والممالك للبكري: وقد نشره دو سلان متنا وترجمة في باريس سنة 1857.

4- تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة: وقد نشره سانغينتي-San guinetti على نفقة الجمعية الآسيوية بباريس في أربعة أجزاء متنا وترجمة، مع جزء إضافي للفهارس (الطبعة الأولى بين سنتي 1853 و 1858، والطبعة الثانية بين سنتي 1869 و 1879، والطبعة الثالثة بين سنتي1893 و1895).

5- المسالك والممالك لابن خرداذبة: وقد نشره دومينار متنا وترجمة

سنة 1865.

6- رحلة ابن جبير: وقد ترجمها غودفروا-ديمومبين Gaudefroy Demombynes ونشرها بين سنتي 1953 و 1956.

7- كتاب (البلدان) لليعقوبي: ترجمه فييت ونشره في منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة 1937.

د- في الفلسفة:

1- قصة حي بن يقظان: وقد نشرها ليون غوتييه L.Gauthier متنا وترجمة في الجزائر سنة 1990، وفي بيروت سنة 1936، وفي باريس سنة 1937.

2- الكشف في مناهج الأدلة لابن رشد: وقد ترجمه غوتييه أيضا ونشره في باريس سنة 1905.

هـ- في الفلك:

1- جامع المبادئ والغايات في علم الميقات لأبي علي المراكشي: وقد نشره لوي سيديو L.Sedillot متنا وترجمه في جزأين في سنتي 1834 و1835.

2- مقدمة كتاب (الكواكب الثابتة) لأبي الحسين الرازي: وقد نشرها متنا وترجمة كوسان دوبرسفال Caussin de Perceval سنة 1831.

و-في الرياضيات:

1- كتاب (خلاصة الحساب) لبهاء الدين العاملي: وقد نشر ترجمته مار Marre في باريس سنة 1864.

ز- في الزراعة والطبيعية والحيوان والنبات:

1- كتاب (الفلاحة الأندلسية) لابن العوام: وقد نشره موليه Mullet في ثلاثة أجزاء بين سنتي 1864 و 1867.

2- ملخص في الطبيعيات عن القزويني: وقد نشره موليه أيضا سنة 1854.

3- كتاب (الصناعتين في تربية الخيل) لأبي بكر البيطار: وقد ترجمه برون في ثلاثة أجزاء بين سنتي 1852 و1861.

4- كتاب (كشف الأسرار عن حكم الطيور وإزهار) لابن غانم القمدسي: وقد نشره دو تاسي de Tassy متنا وترجمة في باريس سنة1821.

5- قسم الحيوان من (رسائل إخوان الصفاء): وقد ترجمه دو تاسي أيضا سنة 1864.

حـ- في الطب:

1- كتاب (الطب النبوي) لجلال الدين أبي سليمان داود: وقد نشر ترجمته برون سنة 1860.

2- أقسام من كتاب (التصريف) للزهراوي: وقد ترجمها ليكليرك سنة 1861.

3- كتاب (الجدري والحصبة) للرازي: وقد ترجمه ليكليرك أيضا بالتعاون مع لينوار سنة 1866.

4- كتاب (الحاوي في علم التداوي) لنجم الدين الشيرازي: وقد نشره غيغ Guigue متنا وترجمة في بيروت سنة 1903.

وما ذكرناه آنفا من مخطوطات عربية حققت أو ترجمت ليس سوى غيض من فيض مما نشره المستعربون الفرنسيون أو ترجموه من تراثنا العربي الغني والواسع في مختلف ميادين المعرفة النظرية والعملية.

وقد كان لنشر أمهات المخطوطات العربية في فرنسا خاصة وأوربا عامة نشرا محققا، أثر عميق في إحياء تراثنا وإظهاره للنور على أوسع نطاق ممكن للإفادة منه، وقد أدى ذلك إلى تطوير نهضتنا الحديثة ودفعها إلى الأمام أشواطا بعيدة. ويرى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي أنه «لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومعجم ما استعجم، وفتوح البلدان، وفهرست ابن النديم، ومفاتيح العلوم، وطبقات الأطباء، وأخبار الحكماء، والمقدسي، والاصطخري، وابن حوقل، والهمذاني، وشيخ الربوة، وابن جبير، وابن بطوطة، إلى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي، وبها وقفنا على درجة حضارتها. ولولا أحياؤهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير وأبي الفداء واليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن أبي شامة وابن الطقطقي وحمزة الأصفهاني وأمثالهم، لجهلنا تاريخنا الصحيح، وأصبحنا في عماية من أمرنا، ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر أو كتب الأدب والعلم التي أحيوها لطال بنا المطال»[29]

وقام المستعربون الفرنسيون بأنشطة أخرى أيضا حول المخطوطات العربية وخدمتها، كنسخ مخطوطات معينة منها لأهميتها أو لتعذر الحصول عليها مباشرة، وهذا النشاط داخل في النقطة السابعة التي رأيناها آنفا.

وقد كانوا يكلفون بهذه المهمة أحيانا بعض العرب من أمثال ميشيل صباغ المصري الذي ارتبط اسمه بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس منذ سنة 1810 إلى سنة وفاته 1816 بصفة (ناسخ للمخطوطات العربية المستعارة من المكتبات الأخرى من خارج فرنسا).

وكان دوساسي قد كتب إلى وزير الداخلية في 3 أيلول من سنة 1807 رسالة يقول فيها: «منذ زمن طويل وأنا أرغب في أن تضع الحكومة في خدمتها ناسخا للغات الشرقية، ولاسيما العربية..»، ويشهد في الرسالة نفسها بجمال خط ميشيل صباغ ويثني على معارفه الأدبية الجيدة، ويذكر أن زميله لانغليس Langles يشاطره الرغبة في استخدامه في هذا المجال، ويبدو أن الوزير استجاب لهذا المطلب، ولذا يجد المرء مجموعة من المخطوطات العربية المنسوخة بخط ميشيل هذا، وهي لا تزال محفوظة إلى اليوم في المكتبة الوطنية بباريس[30].

ويمكننا، مع ذلك، أن نعترف هنا بندرة قيام المستعربين الفرنسيين أنفسهم بمثل هذه المهمة. غير أن ذلك لا يعني أن القيام بها كان معدوما، ويعود سبب ذلك إلى صعوبة النسخ على كاتب غير عربي، كما يعود إلى إمكانية الحصول على المخطوطة المطلوبة بمختلف السبل من غير معاناة مشقة نسخها. حتى إذا تعذر أمر الحصول عليها، لكونها محفوظة وفي نسخة وحيدة، كان بالإمكان تكليف واحد من النساخ العرب بهذه المهمة للحصول على نسخة منها مقابل أجر معين، ويشترط في مثل هذه الحالة أن يكون خط الناسخ جميلا وواضحا كما رأينا آنفا. إلا أن هذه الطريقة في تحصيل المخطوطات واقتنائها قد أهملت بعد تطور وسائل التصوير المختلفة هذا التطور السريع والهائل، إذ أصبح من الممكن الحصول على صورة كاملة وواضحة تماما في وقت قصير وبتكاليف زهيدة نسبيا، وقد أصبح في مقدور الباحث أن يحصل على نسخة مصورة بأي طريقة يريد من أي مخطوطة في المكتبات العربية والعالمية. وكانت هذه الطريقة ناجعة في محاولة جامعة الدول العربية لاستعادة نسخ المخطوطات العربية من مختلف المكتبات الأجنبية في العالم لتوضع في النهاية تحت تصرف الباحثين العرب في كل مكان كما رأينا من قبل.

وأما ما يتعلق بمراجعة المخطوطات العربية ووضع خلاصات موجزة

عن موضوعاتها وما تتضمنه من أفكار رئيسية-وهذا مضمون النقطة الخامسة من الجهود التي يقوم بها المستعربون الفرنسيون لخدمة المخطوطات العربية كما ذكرناها آنفا-فقد كان واضعو الفهارس يهتمون به على وجه الخصوص، لأنهم كانوا يهدفون إلى وضع هذه المخطوطات تحت أنظار الباحثين كما هي وبأكبر قدر من الدقة والوضوح، بغية عثورهم بسرعة على مبتغاهم منها أو على الموضوع الذي يريد كل منهم العمل في نطاقه.

وكان بعض المستعربين الفرنسيين ينشرون في بعض الصحف الاستشراقية العامة أو الاستعرابية الخاصة، نبذا واقتباسات من بعض المخطوطات تعطي فكرة عن هذه المخطوطات التي يتناولونها بالتعريف، لتشجيع بعض الباحثين على خوض غمار تحقيقها ونشرها أو ترجمتها، لشعورهم بفائدة ما تحتوي عليه، ومن ذلك ما كان دوساسي يقدم من نبذ واقتباسات مختلفة، منها على سبيل المثال ما يدور حول:

1- كتاب (الكواكب السايرة في أخبار مصر والقاهرة).
2- كتاب (البرق اليماني في الفتح العثماني).
3- كتاب (بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام).
4- كتاب (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام).

وكثير من هذه النبذ والاقتباسات كان يتناول المخطوطات العربية التي تحتوي عليها المكتبة الوطنية بباريس، في سلسلة هامة تدعى (نبذا واقتباسات) Notices et extraits.

وبهذا نكون قد ألممنا إلمامة شاملة بما يتعلق بالمخطوطات العربية في فرنسا عبر العصور المختلفة إلى اليوم، ولعلنا بحديثنا هذا قد وضحنا الصورة الحقيقية التي رسمتها العصور المتوالية للمخطوطات العربية وحركة تنقلاتها من مواطنها إلى مختلف أنحاء العالم، ونأمل أن نكون قد وفقنا إلى بيان المصير الذي آلت إليه هذه المخطوطات على أيدي العرب والمستعربين، ليكون هذا كله حافزا لنا يدفعنا باستمرار إلى العناية بتراثنا المخطوط وإحيائه بالتحقيق والنشر، بكل ما نملك من وسائل وقدرات علمية وفنية ومادية، لخدمة هذه الأمة ولغتها خدمة جليلة خالدة.

3 تعليم العربية في فرنسا

كان إقبال بعض الفرنسيين على تعلم اللغة العربية أو تعليمها استجابة لظروف الاحتكاك بين فرنسا والمنطقة العربية، خلال فترة طويلة من الزمان تمتد من مطلع القرن الثامن الميلادي إلى اليوم، وكان كذلك تلبية للحاجة والمصالح والمطامع المختلفة. وقد أسهم كل ذلك-مع مرور الوقت-في ترسيخ تعليم العربية وفي تعزيز المؤسسات الأهلية والحكومية القائمة على هذا التعليم في فرنسا.

وكان نصيب العلماء الفرنسيين، خلال مرحلة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، كبيرا في ميدان تعلم العربية وتعليمها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وقد مر بنا أن المحرض الأول على الترجمة هو الفرنسي ريمون، مطران طليطلة، الذي أنشأ معهدا للمترجمين فيها لنقل علوم العرب إلى لغة العلم والثقافة والآداب آنذاك: اللاتينية.

وتطور الاهتمام بتعليم العربية بعد ذلك في عصر النهضة الأوربية، إذ قامت اللغات القومية واستقلت بنفسها للتعبير عن المعارف والعلوم والآداب المختلفة، ومن هذه اللغات الفرنسية المتفرعة أصلا من اللاتينية، فصرنا نرى بعض العلماء الفرنسيين يسعون إلى تعلم العربية، أو نرى

الدولة تتوجه إلى تحريض بعض رعاياها على تعلمها وتعليمها، ليكونوا واسطة اتصال وتفاهم مع العرب في مختلف الميادين، وليعملوا تراجمة في مكتبة الملك ومراسلاته وسفاراته وقنصلياته في المنطقة العربية، وليشرفوا كذلك على مصالح فرنسا التجارية في الشرق العربي.

وكان من أسباب الاندفاع إلى تعلم العربية أيضا سقوط القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وتهديد العثمانيين المسلمين لأوربا المسيحية في أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر للميلاد. ولهذا نجد اللغة التركية تواكب اللغة العربية في أهميتها لدى الفرنسيين حتى أواخر القرن الماضي. ونضيف إلى هاتين اللغتين لغة إسلامية ثالثة، أن صح التعبير، هي الفارسية التي كانت موضع اهتمام الفرنسيين كذلك. وكان الاهتمام بكل لغة من هذه اللغات مرتبطا بحاجة معينة تختلف قليلا أو كثيرا عن اللغتين الأخريين: فنرى، مثلا، أن تعليم العربية كان بهدف الاطلاع على الحضارة العربية، ونقل علومها، ومعرفة الإسلام وأسرار قوته عن كثب. وكان تعليم التركية لأنها لغة الدولة الإسلامية القوية التي تقف في مواجهة الغرب وتهدد مصالحه في حوض البحر الأبيض المتوسط على الأقل، واللغة التركية تيسر سبل الاتصال بأصحاب هذه القوة، وتجعل دراسة أحوالهم الاجتماعية والسياسية في متناول اليد. وكان تعليم الفارسية تعبيرا عن الرغبة في الاطلاع والكشف من جهة، وبناء العلاقات وتبادل المصالح واستغلال الصراع الدائر بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية من جهة أخرى، بغية لفت انتباه العثمانيين إلى الوراء وشغلهم وإضعافهم وتعميق الشرخ بين المسلمين ليكون بأسهم بينهم شديدا، وهذا كفيل طبعا بإضعاف هيبة الإسلام وتشويه صورته في نظر الغرب آنذاك. وكان العامل المشترك بين هذه اللغات الثلاث-كما نرى-أنها تشكل أبرز اللغات الفاعلة في تاريخ الحضارة الإسلامية، وتمثل في الوقت نفسه لغات أكثر الشعوب الإسلامية حيوية وتأثيرا في تاريخ العالم، كما أن هذه اللغات تمثل خط المواجهة الأول لأوربا مع العالم الإسلامي الذي تنتمي إليه. وكان تعليمها في بداية الأمر لخدمة المصالح التجارية والعلاقات الدبلوماسية والأطماع الاستعمارية عند الفرنسيين، ثم حمل هذا التعليم أهدافا أخرى كخدمة المعرفة الخالصة وإشباع حب الاطلاع وإغناء الثقافة الفرنسية بما لدى

هذه الشعوب من آداب وفنون مختلفة.

وسنركز جهودنا، في الصفحات التالية في هذا الفصل، على دراسة تعليم العربية في فرنسا، مع الإشارة من بعيد أحيانا، وعند الضرورة، إلى تعليم اللغتين الأخريين، إذ أن المجال لا يسمح بالتوسع في ذلك. والجدير بالذكر هنا أن أكثر المستشرقين الفرنسيين الأوائل، وحتى بعض المتأخرين، كانوا يلمون بأكثر من لغة من هذه اللغات، بل قد يتقنون اللغات الثلاث معا، ذلك لأن شعوبها كانت-عبر التاريخ الإسلامي-متداخلة ومتمازجة في الجوار والمصالح والتزاوج.

وسأحاول أن أسلط الأنوار على أهم المدارس والمعاهد التي أسهمت في تعليم العربية بقسط كبير أو صغير، وذلك من خلال التوسع في دراسة مؤسسات فرنسية ثلاث كبيرة كان لها القدح المعلى والفضل الأكبر في نشر العربية وتعزيز الدراسات العربية داخل فرنسا وخارجها على حد سواء، وهي بحسب تسلسل ظهورها على مسرح التاريخ:

١-معهد فرنسا (أو الكوليج دو فرانس):

وهو بالفرنسية Le College de France, وأصله هو تلك المؤسسة التي أوجدها الملك فرانسوا الأول[1]، سنة 1530، باسم (القراء الملكيين) Les-Lecteurs Roy aux, وكان قيامها بنصيحة من غيوم بوديه[2] G.Bude, المشرف على مكتبة الملك: فخصص قارئان للغة اليونانية، وثلاثة للغة العبرية التي كان الاهتمام بها دينيا محضا لدراسة العهد القديم، وواحد للرياضيات.

ثم أضيف إلى هؤلاء القراء، سنة 1514، قارئ للبلاغة اللاتينية. ثم أدخلت اللغات الشرقية الأخرى، غير العبرية، في الفترة الممتدة من سنة 1538 إلى سنة 1543، على يد غيوم بوستل G.Postel، الذي يعد أول المستشرقين الفرنسيين بالمعنى العلمي المصطلح عليه للكلمة. وقد علم الملك فرانسوا الأول بمعرفته الجيدة للغتين العربية والتركية، وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من العمر «فألحقه بسفارته في تركيا لدى السلطان سليمان، وأمره أن يحضر معه إلى باريس كل ما يستطيع الحصول عليه من المخطوطات الشرقية النفيسة.. ولما رجع إلى فرنسا، جعل العلماء والأشراف ورجال الدين يترددون عليه ويحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. وقد عينه

الملك سنة 1538 مدرسا للغات اليونانية والعربية والعبرانية، ووهبه منزلا ومزارع وخيلا»[3]. غير أن غضب الملك عليه لبعض الشأن لم يمكنه من الاستمرار في تدريس العربية.

ثم دخلت العربية ثانية إلى هذا المعهد على يد أرنول دوليسل A. de L'Isle, سنة 1587، واستمرت كذلك إلى سنة 1613[4].

وكان هدف الملك فرانسوا من إنشاء مؤسسة القراء الملكيين هذه مقاومة العقلية الجامدة المسيطرة على جامعة باريس آنذاك، لأنها كانت تحتكر التعليم وتقتصر على أربع كليات هي: كلية اللاهوت، وكلية الحقوق، وكلية الطب، وكلية الفنون. وكانت ترفض كل تجديد أو تطور. وكانت ترى في اختصاصات هذه الكليات أجدى الدراسات وأنفع العلوم. كما كانت تتخذ من اللغة اللاتينية لغة وحيدة للدرس والتدريس والكلام. وكانت النزعة المدرسية (السكولاستية)[5]-Sco lastique الجمودية مسيطرة على دراساتها. وباختصار، كانت هذه الجامعة تحول دون أي محاولة لإصلاحها، وترفض في الوقت نفسه أن تصلح نفسها بنفسها. ولذا اضطر الملك إلى إيجاد منافس لها حر النزعة، لا يقيده شيء سوى الحاجة والضرورة والتقدم، ولا يحول بينه وبين التطور شيء مسبق[6].

وقد ازدادت حاجة الناس، مع الانتشار التدريجي لروح النهضة في أوربا، إلى تعرف روائع الآداب القديمة باللغات المختلفة عن طريق الترجمة. ولما كان موقف الجامعة الباريسية معارضا لكل ذلك، فقد نشأت مؤسسات تعليمية خارجها لتلبي هذه الحاجة الجديدة وتستجيب لها، ومن جملة هذه المؤسسات معهد (القراء الملكيين) هذا الذي كان يؤمن بأن دراسة اللغات تعيد المرء دائما إلى الينابيع الأولى للثقافات المختلفة، وكان لوقوف الملك وراء هذا المعهد أهمية كبيرة في نجاحه ونجاح اتجاهه الجديد، وقد أثبت هؤلاء القراء الملكيون فعلا طوال القرن السادس عشر أنهم خير من يمثل العلم الفرنسي في بلادهم. ومع أن هذا المعهد لم يكن يملك مقرا خاصا به، فقد كان أساتذته هم الذين يبنون له كيانه المستقل وشخصيته المتميزة وتوجهه إلى الحرية، وسعيه إلى التجديد والتقدم، وهذه صفات ستظل ملازمة هذا المعهد طوال القرون التالية، وهي ذاتها التي لا يزال هذا المعهد يعتز بها إلى أيامنا هذه، مما يدل على حيوية الأسس التي قام عليها منذ

نشأته الأولى.

وقد تكامل معهد فرنسا ونضجت تنظيماته في القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد بازدياد عدد كراسيه باستمرار، وقد ظهر اسم المعهد آنذاك على إعلانات دروسه باللاتينية كالتالي: (Collegiun regium gallarium)، وأصبح لهذا المعهد، في زمن لويس الثالث عشر(1610- 1643)، مقر خاص به في باريس[7].

والمعروف عن هذا المعهد أنه كان يهتم بدراسة اللغات القديمة المختلفة شرقية كانت أم غربية، حية أم ميتة: كاللاتينية، واليونانية، والعربية، والعبرية، والتركية، والفارسية، والسريانية، والآشورية، والسنسكريتية، وغيرها، من غير أن يتخصص بنوع منها دون الآخر.

وتميز المعهد كذلك بأنه كان يسهم إسهاما فعالا في جميع الأنشطة العلمية المعروفة في عصره. ولم يكن يكتفي بذلك، وإنما أراد لنفسه أن يأخذ دورا طليعيا ورائدا في دفع عجلة جميع فروع المعرفة إلى الأمام وتطويرها، منذ قيام الثورة الفرنسية على وجه الخصوص. وكان يسهم أيضا في فتح سبل جديدة للمعرفة، وفي ترسيخ سبل أخرى لها[8].

والفعاليات العلمية والعقلية والروحية والأدبية والفنية التي تدرس في هذا المعهد اليوم تتمثل في الاختصاصات التالية. الفلسفة، الاقتصاد، والسياسة، والدين، والفن، وعلم اللغة العام، والرياضيات، وما يتعلق بفرنسا من تاريخ وأدب وفن، والقديم الكلاسيكي اليوناني والروماني، والفيزياء، والكيمياء، والتاريخ الطبيعي، والعلوم البيولوجية، والطب، بالإضافة إلى مجال الاستشراق الواسع، ومن ضمنه دراسة اللغة العربية وآدابها، وتاريخ العرب وحضارتهم، والإسلام ونظمه ومجتمعاته وتراثه، وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بحركة الاستعراب في فرنسا[9].

وأقدم اللغات الشرقية التي دخلت إلى المعهد، كما رأينا آنفا، اللغة العبرية، في حين أن تعليم العربية فيه كان متقطعا حتى نهاية القرن الثامن عشر إذ ظهر في أواخره المستعرب الفرنسي، المشهور سلفستر دوساسي، الذي يعد أبا الدراسات العربية في أوربا قاطبة بالمعنى المصطلح عليه، فرسخ تعليم العربية جيدا في فرنسا، وكانت نتيجة ذلك استمرار هذا التعليم على أيدي مستعربين بارزين من تلاميذه وتلاميذهم إلى يومنا الراهن.

ولا يمنح معهد فرنسا هذا درجات جامعية، ولا يجرى لطلابه امتحانات، كما أن دروسه ميسرة لكل راغب في متابعتها، وليس هنالك تسجيل ولا رسوم، وحرية الوصول إلى قاعات التدريس فيه مكفولة للاستماع إلى ما يلقى فيها من محاضرات في مختلف صنوف المعرفة والعلوم والاختصاصات. وليس المعهد عضوا في جامعات باريس.

ويتم اختيار أساتذة المعهد إما من ذوي الشهادات والدرجات والألقاب العلمية العالية والرفيعة التي تؤهلهم للتدريس في كرسي من الكراسي المتخصصة فيه، أي من الذين يكونون مختصين بمادة أحد هذه الكراسي. وإما أن يختاروا من ذوى النبوغ والاختراعات والاكتشافات والنظريات العلمية والأدبية المشهود بها، أو من البارزين في ميدان البحوث، ويشترط في هؤلاء الأساتذة أن يكونوا أصحاب مؤلفات لها قيمتها في مجال الاختصاص، أو أن يكونوا قد أضافوا شيئا جديدا ومتميزا إلى مسيرة العلم وتقدمه أو فتحوا بابا لم يكن مطروقا من قبل أو لم لكن معروفا، وفي هذه الأحوال لا يطلب المعهد منهم شهادات علمية أو جامعية، وإنما يكتفي بما لهم من رصيد علمي وسمعة في الأوساط العلمية والثقافية، أو لما لهم من تأثير في الجيل المعاصر لهم، وأهم ما في هذا الاختيار أنه يتم بالتنافس بين مرشحين، وبانتخابهم من قبل هيئة الأعضاء القائمين في المعهد عند الاختيار.

وعدد الكراسي المختصة في المعهد غير ثابت، لأنه يزيد وقد ينقص بحسب توفر المدرس الكفء أو المختص لشغل هذا الكرسي منها أو ذاك، إذ ربما أحدث كرسي خصيصا لأستاذ، وربما أدت وفاة أحد الأساتذة-بالمقابل- إلى إلغاء الكرسي الذي كان يشغله، نظرا لفقدان البديل أو الخلف المختص القادر على ملء الفراغ أو شغل هذا الكرسي الشاغر. وربما كان المخرج من هذا المأزق يتم بتحوير تسمية هذا الكرسي الشاغر ليتلاءم مع اختصاص أستاذ قريب من مادة اختصاص الأستاذ السابق إلا أنه لا يطابقه تماما. ومن هذا نستنتج أيضا أن تسميات الكراسي المختصة غير ثابتة كذلك لأنها خاضعة للظروف. وللأستاذ ذي الكرسي سلطان مطلق في تقرير المنهج الذي يتبعه، وفي اختيار الكتب أو الموضوعات التي يدرسها، وفي الأخذ بالطريقة الخاصة به التي يرتئيها للتدريس[15].

وقد خصت هذه المؤسسة العلمية الفرنسية الهامة الاستعراب بمكانة

لائقة به بين الدراسات الاستشراقية أخرى الكثيرة فيها، فأدت بذلك خدمات جلى للثقافة الفرنسية، ووصلتها بشكل أو بآخر بآثار الثقافة العربية في كثير من المجالات.

ولا بد لنا من أن نوضح هنا أن أساتذة العربية في هذا المعهد كانوا يتكونون، قبل القرن التاسع عشر، بأشكال مختلفة: فبعضهم كان يكون نفسه بنفسه مستعربا، وخاصة قبل سنة 1969 التي شهدت ظهور المدرسة الثانية تاريخيا لتكوين المستشرقين والمستعربين، وهي مدرسة (فتيان اللغات)، ومنذ ذلك الحين صار أساتذة العربية في المعهد يأتون من هذه المدرسة. وفي القرن التاسع عشر صار المستعربون يأتون للتدريس في هذا المعهد من عدة جهات: من بين الذين يكونون أنفسهم بأنفسهم، ومن مدرسة فتيان اللغات، ومن بين المتخرجين في المعهد نفسه، ثم من بين خريجي مدرسة اللغات الشرقية الحية، وهي ثالث المؤسسات الاستشراقية المهمة في فرنسا وكانت قد أنشئت سنة1795، وأخيرا من الأساتذة الذين تكونوا مستعربين في مدارس الجزائر وتونس والمغرب أو في معهدي القاهرة ودمشق.

وكان المستعربون قد أدوا دورا كبيرا في تعليم العربية في هذا المعهد. ولذا فإنني سأتناول بالذكر، هنا، طائفة منهم، سواء أكانوا ينتمون إلى الفترة المنقطعة لتعليم اللغة العربية قبل سنة1795، أم إلى الفترة المتصلة بعدها:

وأول هؤلاء المستعربين، أو لأقل المستشرقين على وجه الدقة، هو غيوم بوستل الذي كان يلم بالعربية وبعدد كبير من اللغات الشرقية والغربية أيضا، وقد قام بدور هام في ميدان الدراسات العربية في عصر النهضة. ويرى فيه غوستاف دوغا G. Dugat الذي أرخ لمستشرقي أوربا عموما أنه أول مستشرقي فرنسا على الإطلاق وفاتحة عهد جديد بما حاز من معرفة باللغات الشرقية لم تكن لعالم باحث قبله(11). وكان بالفعل فريد عصره ووحيد دهره في الإلمام باللغات الشرقية، ومن أهمها. العربية، والعبرية، والتركية، والحبشية، والسريانية، والكلدانية أو الآشورية، والأرمنية. وباللغات الغربية القديمة والحديثة، ومن أهمها: اللاتينية، واليونانية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية. ويتفق مع دوغا في هذا الرأي المستعرب النمسوي يوسف جيرا(12)، ويذكر خلاصة لحياة بوستل الحافلة بالعجائب والمغامرات

والآراء الغريبة، ويذكر ميله إلى الإسلام، ووقوفه على جسر ريالتو-Ri alto بالبندقية (فينيتسيا) واعظا الناس، وهو يقول: «ينبغي لكل إنسان أن يكون تابعا لدين صالح، ومعنى ذلك أن يكون له دين مؤلف من مميزات الأديان الأخرى، (لا)[13] سيما من الدين الإسلامي، ففيه من أجود الآراء وأحسنها»[14].

ومن آرائه التي أحدثت ضجة أن المسيح عليه السلام سيظهر بشخص امرأة، وأنه لن يذوق الموت. وكان يدعو إلى لغة عامة جديدة تفهمها كل الشعوب الأوربية للحيلولة دون الحرب فيما بينها(!).

وكان بوستل هذا قد رحل إلى المشرق العربي، وتعمق بالعربية، وجمع مخطوطات شرقية، ثم عاد إلى فرنسا سنة 1538، واقفا نفسه على دراسة العربية، ولما لم يستقر به المقام في فرنسا بسبب آرائه الجريئة، فقد انتقل إلى إيطاليا، ثم إلى النمسا حيث عين سنة 1552 مدرسا للعربية واليونانية في جامعة فيينا، ولم يطل عهده بهذه الجامعة، إذ تركها بعد ثلاثة شهور فقط، وولى هاربا بسبب آرائه أيضا من بطش رجال الدين، وعاد إلى فرنسا، فاتهم فيها بالعصيان الديني سنة 1562، فقبض عليه ونفي إلى دير سان مارتان St-Martin إلى سنة وفاته 1581. ويقال أنه ارتجع إلى ربه وصلح أمره في هذا الدير، وكانت سنه عند الوفاة في حدود إحدى وسبعين سنة، نظرا لأن ولادته كانت سنة 1510.

ترك بوستل آثارا عديدة ذات أهمية، وخاصة في مجال الدراسات العربية، إلى جانب تعليمه العربية في المعهد من سنة 1538 إلى سنة 1543. ومن أبرز هذه الآثار: كتابه (النحو العربي) Grammatica arabica الذي نشر في باريس سنة 1543. وكان قد نشر من قبل في باريس سنة 1538 كتابا جمع فيه الحروف الهجائية للغات كثيرة منها العربية بعنوان[15]: Linguarum duodecim characteribus diffeientium alphabetum.

ومن أشهر الذين تولوا كرسي العربية في المعهد أيضا: أنطوان غالان الذي تلقى العربية فيه، واصطحب دو نوانتل، سفير فرنسا إلى الباب العالي سنة . 1680 وقد سافر بعد ذلك ثانية إلى المشرق بأمر من الوزيرين كولبير ولوفوا لجمع مخطوطات شرقية، ومن بينها مخطوطات عربية. وقد عين مدرسا للعربية في المعهد سنة 1709،

استمر في التعليم إلى وفاته سنة1715. وكان قبل ذلك قد نشر ترجمته الشهيرة لمجموعة القص العربية (ألف ليلة وليلة) من سنة 1704 إلى سنة 1708، فلقيت هذه الترجمة نجاحا كبيرا ورواجا واسعا وقبولا حسنا داخل فرنسا وخارجها على حد سواء، وكان لها تأثيرات عميقة، وسرعان ما أصبحت مصدر وحي وإلهام للأدباء والمفكرين والشعراء والفنانين في فرنسا خاصة وفي أوربا عامة[16].

وعمل المستشرق فرانسوا بتي دولاكروا في تعليم العربية في المعهد من سنة 1692 إلى سنة 1713[17].

وتولى كوسال دوبرسفال، سنة 1784، كرسي العربية في المعهد، وظل يشغله قرابة نصف قرن من الزمان إلى سنة 1833. ثم خلفه في هذا المنصب ابنه أرمان-Ar mand من سنة 1833 إلى سنة 1871.

ثم توالى على كرسي العربية في هذا المعهد، بانتظام، كل من المستعربين التالية أسماؤهم[18]:

1- شارل فرانسوا دوفريمري Ch.F. Defremery من سنة 1871 إلى سنة 1883.

2- ستانسلاس غيار S. Guyard سنة 1884 فقط.

3- باربييه دو مينار من سنة 1885إلى سنة 1908.

4- بول كازانوفا P.Casanova من سنة 1909 إلى سنة 1926.

5- وليم مارسيه W.Marcais من سنة 1926 إلى سنة 1943.

6- وعندما أسند هذا الكرسي إلى مستعرب متخصص بالتاريخ العربي، هو جان سوفاجيه، تحولت تسميته إلى (كرسي تاريخ العالم العربي)، وشغله من سنة 1946 إلى سنة 1950.

7- ثم عاد فتحول بعد وفاة سوفاجيه إلى (كرسي اللغة العربية وأدبها) بإسناده إلى المستعرب غاستون فييت G.Wiet من سنة 1951 إلى سنة 1959.

وقد أحدث سنة 1902 (كرسي للمجتمع الإسلامي) وأسند إلى الفرد لوغاتلييه A.Le Gatelier حتى سنة 1926. ثم خلفه فيه المستعرب المشهور لوى ماسينيون L.Massignon من سنة 1926 إلى سنة 1954. ثم تحولت تسمية هذا الكرسي إلى (كرسي علم الاجتماع الإسلامي) حين اسند إلى المستعرب هنري لاوست H.Laoust سنة 1956 وشغله إلى سنة1975. وبدءا من سنة

1976، أسند إلى المستعرب المشهور أندريه ميكيل ,A.Miquel بعد أن تحولت تسميته إلى (كرسي اللغة العربية وأدبها)، ولا يزال يشغله إلى اليوم.

وأحدث سنة 1941 (كرسي لتاريخ فنون الشرق الإسلامي)، وأسند إلى ألبير غابرييل ,A. Gabriel فشغله إلى سنة 1953.

ومن استعراض قائمة أسماء المستعربين الذين شغلوا كراسي تتعلق بالعرب وحضارتهم، يمكننا أن نلخص اتجاهات الدراسات العربية في معهد فرنسا بما يلي:

1- الاتجاه اللغوي المهتم بدراسة العربية.

2- الاتجاه الأدبي.

3- الاتجاه التاريخي المهتم بتاريخ العرب والحضارة الإسلامية.

4- الاتجاه الاجتماعي.

5- الاتجاه الفني المهتم بدراسة الفنون العربية الإسلامية المختلفة (كالعمارة، والنحت، والتصوير، والرقوش، والخط، الخ).

2-مدرسة فتيان اللغات:

وهي بالفرنسية L' école des jeunes de Langues، وكانت أسباب نشأتها أو الظروف التي دعت إلى ظهورها، بحسب ما يذكر مؤرخوها(19)، تلك السياسة الإسلامية التي أخذت فرنسا تتبعها، خدمة لمصالحها التجارية والسياسية، منذ الحروب الصليبية إلى العصر الراهن، وهي السياسة الفرنسية المتبعة مع المنطقة العربية والقوى البشرية التي تعيش فيها، إضافة إلى ما يجاورها من شعوب إسلامية أخرى. ويذكر هؤلاء المؤرخون دافعا مهما لإنشاء هذه المدرسة يتلخص في قولهم إن العرب والأتراك والفرس كانوا يترفعون، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، عن تعلم اللغات الغربية والتكلم بها، بتأثير من تقاليدهم الدينية، وعدم مبالاتهم، وغرورهم، واستخفافهم بأصحابها، فاستتبع ذلك ضرورة أن يلم هؤلاء الغربيون هم أنفسهم بتلك اللغات الشرقية التي تتكلم بها هذه الشعوب الإسلامية الرئيسية الثلاثة في منطقة الشرق الأدنى، بغية خدمة مصالحهم التجارية والسياسية وحمايتها عند هذه الشعوب. وهذا، كما نرى، رأى غريب، إذ ليس في تقاليد الإسلام ولا تعاليمه ما يمنع من تعلم اللغات الأجنبية المختلفة ولا

التكلم بها، بل إن في أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يستشف منه الحث على تعلم لغات الأقوام الذين يكون بين العرب وبينهم صلات جوار أو مصالح، ولو كانوا أعداء، أمنا لمكرهم ودفعا لشرهم وخدمة للمصالح معهم حماية لها. كما أن نظرة الإسلام إلى اللغات الأخرى نظرة احترام وتقدير، لقوله تعالى. ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾[20].

ومن الأسباب المباشرة لإنشاء هذه المدرسة تلك التقارير التي كان التجار الفرنسيون يرسلونها من المشرق العربي إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر، أو إلى وزيره كولبير الذي عرف عنه طموحه العظيم إلى توسيع الأسطول البحري الحربي والتجاري من أجل خدمة تجارة فرنسا الخارجية ومد نفوذها الاستعماري إلى مناطق جديدة باستمرار، ولمنافسة الأسطول الإنكليزي في أعالي البحار في مثل هذه الميادين جميعا. وكانت هذه التقارير تشكو خيانة المترجمين الوسطاء من أهل البلدان الشرقية لمصالح فرنسا التجارية، وبينت عدم القدرة على الركون إليهم ولا الثقة فيهم، لا في المحاكم، ولا في العلاقات الدبلوماسية أو الاقتصادية مع الباب العالي، مما يعرض تجارة فرنسا وسياستها لخطر جسيم إذا استمر كذلك في منطقة المشرق العربي وتركيا. والجدير بالذكر، هنا، أن أغلبية هؤلاء المترجمين الوسطاء، الذين ذكرتهم التقارير، كانوا من أبناء الطوائف المسيحية في المنطقة. وقد دفع هذا كله الوزير كولبير إلى التفكير في حل هذه المشكلة إلى أن اهتدى، في سنة 1669، إلى مشروع إنشاء مدرسة يكون هدفها تخريج مترجمين فرنسيين مخلصين في ولائهم لوطنهم ومليكهم، تملأ بهم الوظائف الحيوية في الشرق، ويكونون وسطاء بين التجار والسفراء الفرنسيين من جهة، وأهل البلاد الناطقة بالعربية والتركية والفارسية من جهة أخرى[21].

وكانت فكرة هذه المدرسة تتلخص في إرسال فتيان فرنسيين من الناشئة إلى منطقة المشرق، ليتعلموا اللغتين العربية والتركية بين أهليهما مباشرة، وفي أخذ عدد من الفتية المشرقيين ليتعلموا الفرنسية في باريس، وينغرس في نفوسهم، نتيجة ذلك، حب فرنسا والإخلاص لها، ويكون هؤلاء الآخرون ملمين بإحدى اللغات الشرقية المرغوب فيها.

ونذكر هنا أن النية كانت متجهة في المرتبة الأولى، إلى تلقين الفتيان الفرنسيين اللغة التركية، لكونها لغة الحكم في هذه الإمبراطورية الكبيرة المسيطرة في المشرق: الدولة العثمانية. ثم جاءت العربية بعد ذلك لتحل في مكانتها البارزة جنبا إلى جنب مع التركية. وفي وقت لاحق دخلت الفارسية لغة ثالثة في اهتمامات هذه المدرسة.

وكان البرنامج الموضوع لتلاميذ المدرسة مثقلا جدا بالمواد المختلفة والمتنوعة، التي زعم أنها الزاد الذي يحتاج إليه تكوينهم العقلي، لكي يصبحوا مؤهلين لشغل منصب ترجمان في المستقبل. إذ كان هذا البرنامج الكثيف يشمل، بالإضافة إلى اللغة التركية، على لغات أخرى: كاليونانية الحديثة، والإيطالية، والإسبانية، واللاتينية، والعبرية. كما أنه كان يشتمل كذلك على دراسة للقانون التجاري، ودراسة مقارنة لأخلاق أهل الشرق والغرب، وعلى دراسات تاريخية وجغرافية للشرق، ودراسة للعلوم الطبية، والطبيعية، والرياضية، وللرسم[22].

وإذا كان هذا البرنامج مثقلا، نظريا، إلى هذا الحد، فإننا نلحظ أنه لم يكن يطبق بحذافيره، وإنما كان، على الأغلب، مرنا يتلاءم مع طبيعة التلاميذ والأساتذة والفترة التي كانوا يمرون بها من حياة المدرسة.

وقد كان تلاميذ هذه المدرسة يختارون من بين الأطفال، ليكونوا أقدر على التقاط اللغة وتشربها عن طريق السماع والممارسة معا، لأن ألسنتهم تكون أطوع لتلقي الألفاظ ونطقها باللغة التي يتعلمونها بدقة، كما أنها سريعة الانطباع في أذهانهم إلى حد إتقانها إتقان أهلها لها بلا أي فارق.

وقد فتح أمام هؤلاء الأطفال، في المستقبل، باب الطموح على مصراعيه، إذ كان بإمكان أحدهم أن يحصل-بعد استكمال معارفه ونضجه-على منصب مستشار في إحدى القنصليات الفرنسية المنتشرة في مدن المشرق، وأن يصبح قنصلا لبلاده فيها.

وكان ملك فرنسا يتحمل تكاليف هؤلاء التلاميذ ونفقاتهم، على أمل تعويضها في المستقبل لدولته بما يؤدون لها من خدمات نافعة في ميدان الترجمة[23]. وقد أطلق على هذه المدرسة اسم مدرسة (أطفال اللغات) Enfants de Langues, إلى جانب الاسم الذي مر بنا آنفا، وهذا الاسم الأخير ترجمة فرنسية لاسمها بالتركية، وهوdil oglan:[24].

وكانت هذه المدرسة قد مرت، منذ تأسيسها سنة 1669 إلى أن اندمجت نهائيا، سنة 1873، بمدرسة أحدث ظهورا منها هي مدرسة اللغات الشرقية التي سنتحدث عنها لاحقا في هذا الفصل، بست مراحل مختلفة، أدخلت في كل منها تعديلات وإصلاحات وتطويرات جديدة تستهدف جميعا تحقيق المسار الأفضل للمدرسة، من أجل الحصول على نتائج جدية وجيدة، وعلى مردودات تخدم الغاية التي أحدثت لها. وفيما يلي عرض لهذه المراحل الست ولما تميزت به كل منها من سمات:

المرحلة الأولى:

وتمتد من تأسيس هذه المدرسة سنة 1669 إلى سنة 1700. وقد عهد فيها إلى الآباء الكبوشيين في كل من دير بيرا قرب استنبول، ودير أزمير[25]، بأن يحتضنوا التلاميذ الذين حدد قرار سنة 1669 عددهم بثمانية عشر تلميذا يختارون ما بين التاسعة والعاشرة من العمر، غير أن هذا التحديد في السن والعدد لم يكن يراعى دوما.

وكان تلاميذ هذه الفترة من أبناء الفرنسيين المقيمين في المشرق بسبب أعمالهم. وكان حظ العربية من التعليم في هذه الفترة معدوما، لأن التركية هي اللغة التي كانت تلقن لهم مع شيء من الفرنسية واللاتينية واليونانية العامية والإيطالية.

وبعد وفاة كولبير بسنتين فقط، أي في 1685، لم يجد المعتمد الفرنسي في استنبول مترجما نافعا حتى في التركية، وهذا يعني أن المدرسة لم تثمر خلال هذه المرحلة في حياة مؤسسها كولبير.

وطرحت، سنة 1698، فكرة إنشاء معهد في مدينة حلب لتعليم العربية لفتيان اللغات هؤلاء، ولكن الاعتقاد السائد آنذاك بأن اللغة التركية أسهل تعلما من العربية بكثير وأكثر انتشارا في منطقة المشرق، أدى إلى تغلب تعليم التركية[26].

المرحلة الثانية:

وتمتد من سنة 1700 إلى سنة 1720: وقد أحدثت فيها مدرسة لفتيان اللغات هؤلاء بباريس ضمن معهد لويس الكبير، تحت إشراف الآباء اليسوعيين، وكان طلابها من الكاثوليك الشرقيين (اليونان، والأرمن، والسريان)، ولما كان الطلاب الأرمن هم الغالبية فيها خلال هذه المرحلة،

فقد عرفت المدرسة بهم، فقيل لها: (مدرسة الأرمن). غير أن النتيجة كانت، كذلك، مخيبة للآمال المعقودة على مثل هؤلاء الأرمن، لأنهم لم يخلصوا لمصالح فرنسا في قلوبهم ولم يصونوها، وكان سلوكهم يخالف سلوك المبشرين. وظلت المدرسة القائمة في بيرا بتركيا مستمرة خلال هذه المرحلة[27].

المرحلة الثالثة:

وتمتد من سنة 1721 إلى سنة 1761: وتمثل هذه الفترة العصر الذهبي للمدرسة. إذ صدر فيها قرار بجعل التعليم في مدرستي باريس وبيرا مقتصرا على أبناء الفرنسيين وأبناء التجار الفرنسيين المقيمين في المشرق، و حدد عدد الطلاب بعشرة في سن الثامنة يدرسون في باريس على يد الآباء اليسوعيين، ويتلقون مبادئ العربية والتركية، وينقلون من ثم إلى مدرسة بيرا، الواقعة في دير قرب إستنبول، ليتعمقوا أكثر في هاتين اللغتين. وهكذا حدث تواصل وتعاون بين المدرستين في هذه الفترة، بعد أن كانت إحداهما معزولة عن الأخرى تماما من قبل، وتجلت فائدة هذا التواصل في أن أبناء الفرنسيين في المشرق يتلقون اللغات الشرقية منذ ولادتهم بحكم النشأة والاختلاط بأهلها، ولذا كان بإمكانهم مساعدة أبناء فرنسيي فرنسا القادمين إليهم في تعلم هذه اللغات، في حين أن هؤلاء القادمين يقدمون، في المقابل، المساعدة إليهم في ترسيخ معرفتهم بلغتهم الفرنسية، فالمنفعة من هذا النظام مزدوجة ومتبادلة كما يظهر لنا[28].

وقد اقتصر الأطفال، في هذه المرحلة، على تعلم المبادئ الأولية للعربية والتركية، وقراءة النصوص بهما[29]. وتخرج فيها أيضا عدد من أكابر المترجمين الملمين باللغتين العربية والتركية، ممن سنجد لهم آثارا عظيمة في تعليم العربية والتركية في كل من مدرسة اللغات الشرقية ومعهد فرنسا، وممن سيرافقون نابليون في حملته على بلاد مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر[30].

المرحلة الرابعة:

وتمتد من سنة 1762 إلى سنة 1796: وقد شهدت هذه الفترة انحطاط مدرسة فتيان اللغات وحدوث الانتفاضة الثورية في فرنسا. ووجد في هذه المرحلة جملة من أساتذة العربية والتركية المشهورين، منهم: دوفيين de

Fiennes ص وكاردون-Car donne، وفنتور دو بارادي Ventoure de Paradis، الذين كانوا من قبل طلابا في المدرسة. وقد تولى بعضهم التدريس في المعهد الملكي (معهد فرنسا). وكان هؤلاء الأساتذة يعملون أيضا في مجال الترجمة المباشرة والوثائقية.

ولم يكن عدد الطلاب، في هذه المرحلة، يزيد في باريس على العشرة إلا نادرا[31]. وقد انهار هذا العدد، سنة 1792 إلى طالب واحد فقط هو لوى ديغرانج[32] L' Desgranges, وثلاثة طلاب في السنة الدراسية 1793-1794، وطالبين اثنين في السنة الدراسية1795- 1796. وكان هؤلاء الفتية يقضون في المدرسة ما بين ثماني سنوات وإحدى عشرة سنة حتى يصبحوا صالحين للعمل الذي كان في انتظارهم[33].

وكان المرء يشعر، منذ عهد لويس السادس عشر بل قبيل ذلك أيضا، أن أهمية التراجمة كانت تزداد سنة بعد سنة. وكان لا خيار الترجمان الأول في استنبول، في بعض الأحيان، نتائج أكبر وأهم من اختيار السفير نفسه فيها.

وقد أضيفت اللغة الفارسية، سنة 1764، إلى جانب العربية والتركية اللتين كانت تدرسان وحدهما حتى هذا التاريخ، في معهد لويس الكبير.

وأعلن في سنة 1794 أن التعليم في مدرسة فتيان اللغات أصبح حرا كأي تعليم آخر، بعد أن كانت المدرسة وقفا على بعض المختارين بالوساطة أو بالوراثة، لا بالكفاءة والاستعداد غالبا. وكانت حكومة الثورة قد أغلقت معهد لويس الكبير ومدرسة بيرا. وعلى الرغم من تأسيس المدرسة الوطنية الخاصة باللغات الشرقية الحية بباريس سنة1795، فقد استمرت مدرسة فتيان اللغات على قيد الحياة[34].

المرحلة الخامسة:

وتمتد من سنة 1797 إلى سنة 1826: ويطلق على هذه الفترة (فترة الانبعاث)، لأن المدرسة نشطت ودبت فيها الحياة بعد فترة الهمود والركود التي مرت بها في المرحلة السابقة. وكانت مدرسة فتيان اللغات تابعة لوزارة العلاقات الخارجية، في حين أن مدرسة اللغات الشرقية كانت تابعة لوزارة الداخلية. وكانت هاتان المدرستان في باريس للاطلاع، وكانت مدرسة بيرا التي أعيد افتتاحها ثانية، بالإضافة إلى مدرسة طهران التي كان نابليون

قد أمر بتأسيسها سنة 1807 لتعليم اللغة الفارسية، مدرستين للتطبيق العملي والممارسة.

وقد تولى إدارة المدرسة في باريس في السنة الدراسية 1797- 1798 فنتور دوبارادى، الذي رافق نابليون في السنة التالية مباشرة في حملته على مصر بصفة مترجم، ومات بعد فك الحصار عن عكا سنة 1799، وخلفه في إدارة المدرسة أوغست شيول A.Chayolle إلى سنة 1826.

وبلغ عدد طلاب المدرسة، سنة 1803 أربعة وعشرين طالبا. ودرس العربية في هذه الفترة أنطوان ديغرانج ,A.Desgranges ثم خلفه في تدريسها سنة1825 آغوب ,Agoub ويبدو أنه أرمني الأصل. ومن الطلبة الذين كونتهم هذه المدرسة، وكان لهم باع طويل في ميدان الاستعراب فيما بعد، أرمان كوسان دوبرسفال[35].

المرحلة السادسة:

وتمتد من سنة 1826 إلى سنة 1873: ويبدو أن المدرسة قد أخذت، في هذه المرحلة، تلفظ أنفاسها الأخيرة، لأنها كانت تفتقر إلى عوامل البقاء والاستمرار يوما بعد يوم، وهذا ما نستشفه مما كتبه مديرها، سنة 1831 إلى وزير الخارجية إذ قال: «يبدو أن مدرستنا تحتضر». كما ألغيت في هذه السنة نفسها مدرسة بيرا قرب استنبول، مما أدى إلى ذهاب طلاب مدرسة باريس بعد ذلك إلى قنصليات فرنسا في المشرق، ليقيموا بين أهالي البلاد ويدرسوا لغتهم ويطلعوا على أخلاقهم وعاداتهم وتقاليد عيشهم عن كثب. وارتفعت أصوات أخرى تنذر بالشؤم لهذه المدرسة من مثل: «مدرسة (فتيان اللغات) في باريس غير مجدية».

كان تدريس العربية قد أسند إلى جوبير ,A.Jaubert من سنة 1826 إلى سنة 1829، ثم أسند إلى آغوب من سنة 1828 إلى سنة1831 ثم إلى ديغرانج من سنة1831 إلى سنة 1855، ثم إلى بافيه دو كورتي من سنة 1855 إلى سنة 1889.

وبما أن احتلال الجزائر، سنة 1830، كان يبشر الفرنسيين بتوسيع السياسة الإسلامية في فرنسا، فقد أنشأت الدولة كرسيا دائما لتعليم العربية أسند إلى آغوب المذكور آنفا، إلا أن هذا الكرسي ألغي عندما غادر هذا الأخير باريس سنة 1831، فعد ذلك دليلا على ارتباط مصير تعليم

العربية في المدرسة بشخص معين لا بسياسة ثابتة أو فكرة مستقرة ومستمرة[36].

وقد لقي اقتراح جوانان Jouannin، مدير المدرسة، بالاشتراك مع كل من الأستاذين بيانكي Bianchi وديغرانج، بأن يرسل فتيان اللغات للإقامة سنة على الأقل في ميناء تركي، ثم سنة أخرى في ميناء عربي (طرابلس أو بيروت غالبا)، ترحيبا من المسؤولين، فصادق عليه الملك لويس-فيليب، سنة 1834. وكان على القنصل في كل ميناء منهما أن يختار لهؤلاء الفتيان أستاذ اللغة العربية أو التركية. وكان على الفتيان أن يمتحنوا كل ستة شهور بإشراف القنصل نفسه.

واستمر هذا التنظيم إلى أن ألغي وحلت محله دروس الملقاة في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس سنة1873، وهذا يعني أن طلاب المدرسة قد أصبحوا تابعين عمليا للمدرسة الأخيرة. وهذا ما شجع على دمج مدرستهم، أخيرا، بالمدرسة الأقوى ودروسها الأعمق[37].

وربما كانت فكرة إرسال بعض الطلاب الفرنسيين اليوم إلى كل من معهد القاهرة الفرنسي للدراسات الشرقية، أو إلى معهد دمشق الفرنسي للدراسات العربية، مستوحاة من الطريقة القديمة في إرسال الطلبة إلى المشرق العربي ليتمرسوا عن كثب بكتابة اللغة العربية وتعلمها واستعمالها الحي بين أهلها.

وبهذا نجد أن مدرسة اللغات الشرقية قد امتصت شيئا فشيئا مدرسة فتيان اللغات، واستطاعت أخيرا أن تحتل مكانتها، وذلك لأنها تحمل أهدافها نفسها، وترمي إلى غاياتها نفسها، فأصبحت لذلك وريثتها الشرعية في تعليم العربية والتركية والفارسية، بل تفوقت عليها بتدريس عدد آخر كبير من اللغات الحية المستعملة في أفريقيا والشرق الأوسط والأقصى في الوقت نفسه، وتوسع نشاطها ليشمل أيضا لغات أوربا الشرقية نفسها، وبذلك أصبحت هذه المدرسة المؤسسة المسؤولة عن تكوين مترجمين وتخريجهم، استجابة لمختلف المناصب والوظائف والمصالح والخدمات التي تحتاج إلى مترجمين ووسطاء في نطاق الدولة أو على مستوى الأفراد على حد سواء.

وقد خرجت مدرسة فتيان اللغات، منذ تأسيسها سنة 1669 إلى تاريخ

اندماجها في مدرسة اللغات الشرقية سنة 1873، أي خلال ما يقارب القرنين من عمرها، عددا من الطلاب يبلغ قرابة أربعمائة وثمانية وخمسين طالبا، تفاوتت مصائرهم واختلفت ما بين مترجم وأستاذ ومخفق، وكان منهم قلة مشهورة وأغلبية مغمورة.

وكان من أهم مدرسي العربية والتركية معا، ومعهما أحيانا الفارسية، أو من غير التركية أحيانا أخرى، منذ سنة1721 إلى سنة 1873، التالية أسماؤهم[38]:

- دوفيين (الأب ثم الابن)
- بروث Berruth
- أرمان
- بتي دولا كروا (ألكساندر)
- كاردون
- لوغران Le Grand
- روفان P.Ruffin
- فنتور دوبارادى
- شيول
- ديغرانج
- آغوب
- جوبير
- دو كورتي

3-المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية:

وهي بالفرنسية L' Ecole Nationale des Langues Orientales Vivantes وتعود فكرة إنشاء هذه المدرسة إلى لوي لانغليس الذي وجه بشأنها رسالة إلى الجمعية الوطنية الفرنسية سنة 1790، أوضح فيها أهمية تعليم اللغات الشرقية للمصالح الفرنسية الحيوية، واقترح إنشاء كرسي للعربية، وثان للتركية، وثالث للفارسية في كل من باريس ومرسيليا، لخدمة السياسة والتجارة والعلم معا في فرنسا، وبين للجمعية في رسالته المهمة تلك أن المعهد الملكي في فرنسا (معهد فرنسا) لا تملك دروسه الأهلية المطلوبة

لهذه الواجبات، ورأى أن هذه المؤسسة كانت مخصصة للثناء على غرور الملك أكثر من خدمتها الخالصة للعلم والدولة، غير أن مشروعة هذا أهمل في أدراج الجمعية من غير أن يكتب له أن يرى النور أو بصيصا منه، حتى أعاد لانغليس عرض هذا المشروع، مرة أخرى، مع لاكنال Lakanal، رئيس لجنة التعليم العام في الجمعية، سنة 1795، وقد أوضح لاكنال، في تقريره حول الموضوع، أن اللغات الشرقية كانت مهملة في فرنسا منذ بداية القرن الثامن عشر، وأنها قد أهملت تماما أيضا في عهد الثورة، ثم برهن على انحطاط الدراسات الشرقية في فرنسا، ومنها الدراسات العربية، في الفترة الواقعة بين سنة ,1696 وسنة 1779، بقوله أنه لم يطبع في فرنسا خلال الفترة المذكورة سطر واحد بحروف عربية[39].

وبعد جلسة عاصفة ومناقشات حادة تمت الموافقة، في الجمعية الوطنية، على إنشاء المدرسة المقترحة، وصدر بذلك مرسوم 10 جرمينال[40] من السنة الثالثة (ويقابل هذا التاريخ 30 آذار من سنة1795)[41]. وقد نصت المادة الأولى من هذا المرسوم على تأسيس «مدرسة تخصص لتعليم اللغات الشرقية الحية ذات الفائدة الملموسة للسياسة والتجارة»، على أن يتم قيامها في نطاق المكتبة الوطنية التي أنشأتها حكومة الثورة بباريس، وأطلق على هذه المدرسة اسم (المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية)[42] L' Ecole Speciale des Langues Orientales Vivantes.

ونص مرسوم التأسيس هذا في المادة الثانية منه على تعليم اللغات الثلاث: العربية فصحى وعامية، والتركية، والفارسية. ونصت المادة الثالثة على وجوب أن يعرف مدرسو هذه اللغات طلابهم بالعلاقات السياسية والتجارية القائمة بين فرنسا والشعوب التي تتكلم بها. ونصت المادة الرابعة منه على وجوب تأليف أساتذة هذه اللغات كتبا في نحو هذه اللغات باللغة الفرنسية ليستفيد منها طلابهم الفرنسيون[43].

وقد مر بنا من قليل آنفا أن هذه المدرسة قد امتصت، بالتدريج، ومنذ نشأتها حتى سنة1873، تلك المدرسة التي سبقتها في الوجود بنحو قرن وربع القرن تقريبا، وهي مدرسة (فتيان اللغات)، واحتلت مكانتها وأدت دورها في إعداد أجيال متوالية من المترجمين لسد حاجات الوظائف العامة والخاصة التي تتطلبها المصالح الفرنسية، وخاصة في ميدان السياسة،

الاقتصاد التجاري والمجال العسكري الاستعماري الذي كان يشغل بال البرجوازية الحاكمة بعد الثورة الفرنسية[44].

كانت هذه المدرسة تابعة لوزارة الداخلية، وظلت كذلك إلى سنة1832، ثم التحقت بوزارة التعليم العام، ثم استبدلت كلمة (الوطنية) nationale بكلمة (الخاصة) Speciale، في تسمية المدرسة، في مرسوم صدر في 8 حزيران من سنة 1914[45].

وفي بداية القرن التاسع عشر، راح الفيلولوجيون[46] يسعون إلى فرنسا من مختلف أنحاء أوربا، كألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والسويد وفنلندا، للاستماع إلى دروس المستعرب سلفستر دوساسي الذي عرفه بباريس الشيخ رفاعة الطهطاوي، أثناء بعثته إلى فرنسا، وعن ذلك يقول: «اجتمعت في باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير في بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات الشرقية، خصوصا اللغة العربية والفارسية، يسمى البارون سلوستر دساسي»[47]. وقد تخرج على يدي دوساسي هذا طلائع المستعربين الأوربيين في القرن التاسع عشر، وكان هؤلاء المستعربون بدورهم يسيرون فور عودتهم إلى بلدانهم على نهج أستاذهم وخطته ذات التأثير العميق في نفوسهم، وصاروا بذلك أساتذة لعدد كبير من المستعربين في أقطارهم، ممن تلقوا على أيديهم خلاصة نهج الأستاذ الأول دوساسي وروحه وحيويته في ميدان الدراسات العربية خاصة، والشرقية على وجه العموم. ولهذا كله عد دوساسي بحق مؤسس الدراسات العربية في أوربا قاطبة، انطلاقا من فرنسا، على قاعدة من الدراسة العلمية الراسخة للغة العربية والنصوص العربية المخطوطة في مختلف الموضوعات.

ومن أبرز أسباب شهرة هذا المستعرب وذيوع صيته في الآفاق، طوال القرن التاسع عشر، منهجه في الدراسة من نحو، وفي التدريس من نحو آخر. وكذلك عمق ثقافته وتنوعها، وشخصيته الإنسانية، وامتداد فترة تدريسه ما يقارب ثلاثا وأربعين سنة (من سنة1795 إلى وفاته سنة 1838)، وتخريجه لعدد كبير من الطلاب، الذين أصبحوا بدورهم أساتذة لغيرهم من الطلبة، كما أنه كون عددا من المريدين والأتباع والمعجبين بطرائقه وآثاره وشخصيته. يضاف إلى ذلك كله شغله لمناصب عديدة في مؤسسات علمية وتعليمية مختلفة، إلى جانب المناصب الإدارية في عدد من المؤسسات

الأخرى[48].

ومما يدلنا على أهمية دو ساسي وتأثير شخصيته الفريدة في ميدان الدراسات العربية والشرقية على حد سواء، أن الناس شعروا، حين مات سنة 1838،أن مدرسة اللغات الشرقية قد دفنت معه، لما كان له من هيمنة عليها، ولما ترك عليها من بصمات لا تمحى[49].

مر بنا، من قبل، أن مدرسة اللغات الشرقية هذه قد تم إحداثها في نطاق المكتبة الوطنية بباريس، وهذا يعني أن المخطوطات العربية والشرقية كانت في متناول الأساتذة والطلاب معا، وبسهولة، لتيسير عملهم في الدراسات، من غير عقبات ولا صعوبات. والمكتبة، كما هو مسلم به، هي الأداة الأولى للعمل والبحث. ولكن مشكلة وجود مكتبة خاصة للمدرسة لم تظهر إلى حيز الواقع إلا حين تم نقل هذه المدرسة، بعد توسعها، سنة 1834، إلى مقر جديد، ثم استفحلت هذه المشكلة أكثر بانتقال المدرسة ثانية إلى مقر آخر غيره في المدينة سنة1873، نظرا للبعد الذي كان بين المدرسة في مقرها الأخير والمكتبة الوطنية الباقية في مكانها، إذ لم يعد بالإمكان استغلال الكتب والمخطوطات بسهولة لا من قبل الأساتذة ولا من قبل الطلاب. وهذا ما دفع المسؤولين في المدرسة إلى تأسيس مكتبة خاصة بها، تظل في خدمتها وفي متناول الباحثين دوما وتنتقل معها إذا انتقلت[50].

بدأت المدرسة دروسها، كما هو معلوم، باللغات العربية والتركية والفارسية، لأنها لغات الشعوب الأكثر حيوية والأقرب إلى أوربا، وهي ذوات الصلة المباشرة بالمصالح، وهي في الوقت نفسه أهم الشعوب الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط أو الأدنى.

ثم تتالت بعد ذلك اللغات الشرقية في الدخول في حيز التعليم في هذه المدرسة وتنوعت: فأسس كرسي للعربية العامية المغربية سنة 1821، وتلاه كرسي للعربية العامية المشرقية سنة 1899، وقد بقى هذا الأخير إلى سنة 1934، ثم ألغي لأسباب اقتصادية، وأعيد إنشاؤه ثانية سنة 1947[51].

وألغي كرسي العربية الفصحى في المدرسة بوفاة رينو Reinaud سنة 1867، وكان خليفة دو ساسي فيه منذ وفاته سنة 1838[52]، ثم أعيد أحياء هذا الكرسي سنة 1879 على يد المستعرب هرتويغ ديرنبورغ[53] وهو ابن المستعرب جوزيف ديرنبورغ، فاستمر في منصبه هذا حتى وفاته

سنة1908[54].

وخلف ديرنبورغ، في كرسي العربية الشاغر، المستعرب غودفروا-ديمومبين حتى سنة1935. ثم خلفه فيه المستعرب الشهير ريجيس بلاشير حتى سنة 1950، التي شهدت انتقال هذا المستعرب من مدرسة اللغات الشرقية إلى جامعة السوربون للتدريس فيها، فكان بذلك خامس من تولى هذا الكرسي في تلك المدرسة منذ تأسيسه سنة1795 إلى سنة 1950[55].

وقد استخدم في هذه المدرسة بعض العرب مدرسين أو معيدين للعربية الفصحى أو العامية، ومن هؤلاء المصري دوم رفائيل، المولود في القاهرة، وكان عضوا في معهد مصر، وكان قد أدى خدمات عظيمة للجيش الفرنسي أثناء الحملة على مصر، وكان راهبا، إذ عين أستاذا مساعدا سنة 1803لإعطاء دروس عامة عن العربية العامية، مع مهمة العمل على ترجمة بعض المواد المتعلقة بتاريخ العرب وآدابهم من المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس[56]. وقد كانت ترجماته هذه التي كان يقوم بها تزود مؤلفي الكتاب الشهير (وصف مصر)، الذي صدر سنة 1809، بالمواد الأولية الضرورية لموضوع هذا الكتاب. وكان هذا الراهب قد آثر النزوح عن وطنه إلى فرنسا مع الحملة العائدة التي تجر ذيول الخيبة، على البقاء فيه، لما كان ينتظره بعد جلاء الحملة من مصاعب بسبب تعاونه مع الأجانب ومساعدتهم وتسهيل مهمتهم، وقد استمر في منصبه المذكور آنفا إلى سنة 1816[57].

وقد اسند هذا المنصب نفسه، بعد دوم رفائيل، إلى مصري لاجئ آخر هو ميشيل صباغ، غير أنه توفي في السنة نفسها التي عين فيها، وهي سنة 1816، وكان قد كلف بإعطاء دروس تتعلق بالكتابة العربية ولفظها ومحادثتها، وكلف أيضا بالعمل في نسخ المخطوطات العربية المستعارة من المكتبات الأخرى خارج فرنسا[58].

واستمر هذا المنصب شاغرا، بعد وفاته، إلى أن عين فيه لاجئ مصري ثالث هو إلياس بقطر، سنة 1820، وكان أيام الحملة الفرنسية يعمل مترجما في الجيش الفرنسي بمصر. وكان موضوع تعليمه هو العربية العامية[59]. غير أن حبل العمر لم يمتد به طويلا، إذ توفي سنة 1821، تاركا خلفه قاموسا فرنسيا-عربيا نشره فيما بعد المستعرب الفرنسي الذي خلفه في كرسي العربية العامية، وهو كوسان دو برسفال الابن، الذي تحدث عنه

رفاعة الطهطاوي في كتابه (تخليص الإبريز) وسماه (كوسين دى برسفال) ووصفه بأنه «مدرس اللغة العربية المتداولة في المحاورات المشهورة باسم الدارجة عند العامة بدار كتب خانة السلطانية بباريس»[60]، وعقد معه صداقة بباريس. وقد استمر هذا المستعرب طويلا جدا في منصبة من سنة 1821 إلى سنة 1871، أي نصف قرن من الزمان، وكان قد ألف لطلابه كتابا في نحو العربية العامية[61]. وكان دو برسفال قد خلف أباه في تعليم العربية الفصحى في معهد فرنسا، من سنة 1833 إلى أن توفي-كما ذكرنا من قبل- سنة 1871[62].

وشغل دوسلان، بعد دو برسفال، كرسي العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية، وكان دوسلان هذا من المدرسة الجزائرية في الاستعراب. ثم خلفه فيه شربونو Cherbonneau من سنة 1879 إلى سنة 1882. ثم شغر هذا الكرسي إلى أن شغله المستعرب أوكتاف هوداس O. Houdas، من المدرسة الجزائرية نفسها، سنة 1884، وظل قيه إلى سنة 1816، ثم خلفه فيه المستعرب وليم مارسيه إلى سنة 1927. وكان هؤلاء المستعربون جميعا يهتمون بتدريس اللهجات العربية المغربية نظرا لكونهم ينتسبون إلى المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي، وقد أسهموا في استكشاف هذه اللهجات ودراستها إسهاما كبيرا[63]، تنفيذا لسياسة استعمارية ماكرة طويلة الأمد، ترمي في نهاية المطاف إلى فرنسة الجزائر ودول المغرب العربي التي أدخلوها في ظلال استعمارهم على التوالي.

وكان كرسي العربية العامية المشرقية قد أسند في سنة 1909 إلى المستعرب بارتيليمي Barthelemy، الذي وضع في سنة 1903 قاموسا عربيا- فرنسيا للهجات السورية، من غير أن ينشره إلا في وقت متأخر. وخلفه في هذا الكرسي سنة 1929 الراهب اللبناني ميشيل فغالي، إلى أن ألغي-كما سبق أن قلنا-لأسباب اقتصادية سنة 1934. غير أن ميشيل هذا استمر في تعليمه تطوعا من غير مقابل حتى وفاته سنة1945.

وكان هنالك معيد من أهل اللهجات العربية المشرقية المدروسة في المدرسة يعمل من سنة 1909 إلى سنة 1934 إلى جانب أستاذ العربية العامية[64]. ثم صدر سنة 1947 مرسوم وزاري بإعادة إنشاء كرسي العربية المشرقية في المدرسة وتم إسناده إلى المستعرب جان كانتينو J. Cantineau

الذي اشتهر بمجموعة من الكتب حول عدد من اللهجات العربية العامية المشرقية والمغربية[65].

وكانت دراسات تكميلية قد أنشئت سنة 1872 تتعلق بتاريخ الدول الإسلامية وجغرافيتها وتشريعاتها، وهو ما نصت عليه المادة التاسعة من مرسوم تنظيم المدرسة الصادر سنة1869، أسندت دروسها إلى غوستاف دوغا. وقد أشار دوغا في محاضرته الافتتاحية إلى فائدة هذه الدراسات قائلا: «إنها ستسمح للطلاب بأن يدخلوا دخولا أعمق إلى حياة الشعوب الإسلامية». ثم خلفه في هذه الدراسات، سنة1886 هنري ديلونكل H. Deloncle. ثم جاء بعده رافيس Ravisse سنة 1888، وظل في هذا المنصب إلى أن تحول إلى كرسي دائم سنة 1926، فكان أول من تولاه حتى وفاته سنة 1930، فأسند بعده إلى المستعرب غاستون فييت، ولكن هذا الأخير انتقل إلى القاهرة ليتسلم منصب مدير المعهد الفرنسي فيها سنة1945، فحل محله مينورسكي T.H.Minorsky وهو عالم بالدراسات الإيرانية، وحل فيه بعده كذلك جان سوفاجيه[66]. وأ. وأما عن منهاج هذا الكرسي في السد الثلاث فكانت كما يلي:

1- السنة الأولى كانت مخصصة لدراسة بدايات الإسلام والأنظمة الإسلامية وتاريخ خلافة الشرق والحركات الإسلامية الكبرى المعاصرة وجغرافية الجزيرة العربية.

2- السنة الثانية كانت موضوعاتها تتركز في الدراسة التاريخية لكل من إسبانيا (الأندلس)، وأفريقيا الشمالية، ومصر، والهند.

3- السنة الثالثة كانت تهتم بدراسة بلاد الرافدين، وفارس، وتركيا.

وكانت المادة الرابعة من مرسوم تنظيم هذه المدرسة سنة 1869 تنص على قيام نظام المعيدين من أهل اللغة التي كانت تدرس في المدرسة، من أجل تعميق درس هذه اللغات وترسيخها[67].

كانت مدرسة اللغات الشرقية، حتى سنة 1830، تكون تقريبا علماء باحثين في هذه اللغات، لا مترجمين عمليين يستجيبون فعلا للحاجات المادية الملحة، ويعزى ذلك إلى قصور المناهج المتبعة في التدريس والتكوين، لأن معظمها كان نظريا غير كاف لمهنة مترجم.

وكانت هنالك أمور كثيرة تلح على توسيع نشاط المدرسة، كالتوسع الكبير

الذي طرأ على العلاقات التجارية الفرنسية مع آسيا، ثم تلك العلاقات الجديدة مع المنطقة العربية، وخاصة بعد احتلال الجزائر، ثم تونس، ثم المغرب، ثم سورية على التوالي خلال قرن من الزمان. كما أن توسع الحركة العلمية كان يلح على زيادة نشاط المدرسة أيضا . ونستطيع أن نقول باختصار أن العلاقات التجارية والسياسية والاستعمارية والعلمية كانت جميعا وراء تطوير مدرسة اللغات الشرقية وازدهارها[68] .

ولم تقتصر المدرسة، نتيجة هذه الضغوط الداعية إلى توسيعها باستمرار، على تعليم اللغات الإسلامية الثلاث الأولى التي ذكرناها من قبل، بل توسعت لتشمل، عددا جديدا من اللغات الإسلامية وغير الإسلامية من لغات الشرق، حتى أن بعض اللغات الواقعة في شرق أوربا وفي أعماق أفريقيا أخذت سبيلها شيئا فشيئا إلى قاعات التدريس في هذه المدرسة ومعنى ذلك أن هذه المدرسة أخذت تشمل مساحات جغرافية متزايدة أكثر فأكثر على خريطة العالم القديم بقاراته الثلاث: آسيا، وأفريقيا، وأوربا .

بلغ عدد اللغات في المدرسة، سنة1945، تسعا وثلاثين لغة حضارية أو ذات قيمة حضارية خاصة، وكلها لغات حية مستعملة أو لهجات لهذه اللغات. وهذا الامتداد الواسع جغرافيا أدى إلى عدم تطابق اسم المدرسة مع واقعها التعليمي، ولذا تعرض هذا الاسم لانتقادات كثيرة، وقدمت اقتراحات لتغييره. منها اقتراح جان دني J. Deny, مديرها في ذكرى تأسيسها المئة والخمسين التي احتفل بها سنة1945، وهو أن يطلق عليها اسم (المدرسة العليا للغات الحية)[69] . ولكن تغيير هذا الاسم لم يتم فعليا إلا في أواخر الستينات، ليصبح (المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية)[70] L' lnstitut National des Langues et civilizations

وكان خريجو هذه المدرسة، الذين تكونوا فيها مستعربين أو مستشرقين، على أنواع: فمنهم دبلوماسيون يعملون في سفارات فرنسا وقنصلياتها في البلدان العربية، إما على أنهم سفراء وإما على أنهم مترجمون أو ملحقون ثقافيون، أو مستشارون. ومنهم مستعربون بالمهنة، وهؤلاء علماء وهبوا حياتهم للتدريس والبحث والتحقيق والترجمة والتأليف. ومنهم إداريون أو عسكريون يعملون في المستعمرات الفرنسية المختلفة إبان الفترة الاستعمارية. ومن المستعربين الفرنسيين اليوم من يعمل في وظائف ثقافية أو اقتصادية

أو تجارية أو عسكرية أو إدارية أو استشارية داخل فرنسا وخارجها خدمة لمصالح الدولة أو الأفراد على حد سواء[71].

وهذه قائمة بأسماء مديري مدرسة اللغات الشرقية هذه منذ تأسيسها سنة1795 إلى سنة1945، التي توافق الذكرى المئة والخمسين لهذا التأسيس[72]:

1- لانغليس Langles من سنة 1796 إلى سنة 1824.

2- دو ساسي S. de Sacy من سنة 1824 إلى سنة 1838.

3- جوبير A. Jaubert من سنة 1838, إلى سنة 1847.

4- هاز Hase من سنة 1847 إلى سنة 1864.

5- رينو J. Reinaud من سنة 1864 إلى سنة 1867.

6- شيفر Ch.Schefer من سنة 1867 إلى سنة 1898.

7- دومينار B. de Meynard من سنة 1898 إلى سنة 1908,.

8- بوير P. Boyer من سنة 1908 إلى سنة 1937.

9- روك M. Roques سنة 1937 فقط.

10- دني J. Deny من سنة 1938-

كان نظام المدرسة يشترط على الطالب أن يكون حائزا شهادة الثانوية الأدبية للتسجيل في المدرسة. وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، ينال الطالب في نهايتها دبلوما في اللغات الشرقية، بحسب مرسوم سنة 1869[73]. وكان أول من حصل على هذا الدبلوم، بعد صدور هذا المرسوم، المستعرب المعروف كليمان هوار، في السنة الدراسية 1872- 1873[74].

وكان الحصول على هذا الدبلوم من المدرسة يتم بعد إجراء امتحان يشترط في الطالب أن ينال فيه درجة، 14/20، أي على نسبة (70٪) من العلامة حدا أدنى في كل الفحوص الشفوية والتحريرية التي تجريها للطالب هيئة مؤلفة من أستاذ ومعيد وعضو خارجي ومن مدير المدرسة نفسه.

وكان نظام القبول يشترط في الطلاب إتمام السادسة عشرة من العمر، وأما الطالب الذي لا يحمل الثانوية، وهي المطلوبة مبدئيا للتسجيل في المدرسة، فكان يتعرض لفحص قبول خاص كان يمكنه بعد اجتيازه بنجاح من التسجيل في المدرسة طالبا نظاميا.

وكان الطلاب في المدرسة صنفين: الأول طلاب نظاميون يفرض عليهم

الدوام المستمر في الدروس والمحاضرات. والثاني طلاب مستمعون يعطون بطاقات تسمح لهم بحضور الدروس فقط. وكان الطالب يسجل في المدرسة مرة كل سنة أو مرتين: مرة واحدة كل ستة شهور، ويدفع رسما معينا لهذا التسجيل كان يبلغ مئة فرنك للسنة الواحدة، ولم تكن هناك رسوم على الامتحانات[75].

وكان حملة دبلوم هذه المدرسة يحصلون على وظائف تكون عالية أحيانا في إحدى وزارات الدولة ودوائرها، كوزارة الشؤون الخارجية ووزارة البحرية أو الحربية، ووزارة الإعلام، وغيرها[76].

ولمدرسة اللغات الشرقية مكتبة عامرة بأنواع الكتب المطبوعة والمخطوطات، ولها منشوراتها الخاصة، وقد بدأت تنشر مجلة باسمها منذ سنة1964 تسمى (مجلة مدرسة اللغات الشرقية) revue de L'Ecole des Langues Orientales, غير أنها توقفت عن الصدور، سنة 1967، بعد العدد الرابع منها، وكانت مجلة حولية تصدر كل سنة مرة.

ولابد من وقفة قصيرة عند وصف اللغات الشرقية بكلمة (الحية) التي وردت في سياق أسم هذه المدرسة، لنقول إن استعمالها هنا جاء لقصر اهتمامات المدرسة اللغوية على اللغات المستعملة في المجتمعات البشرية ولا تزال تحمل حيوية ونشاطا في مجالات جغرافية مختلفة من العالم، لما في معرفة هذه اللغات ودراستها من فائدة قريبة وعملية في خدمة العلاقات بين فرنسا والشعوب الناطقة بهذه اللغات. وتتميز هذه اللغات إذن بأنها تستعمل في الكلام الدارج، وتفهم على نطاق مجتمعها، وتستعمل في الكتابة والبحث والتأليف، كما تستعمل كذلك في القراءة أو الاستماع. وقد كان اهتمام المدرسة بمثل هذه اللغات مطابقا مطابقة تامة لاهتمامات مدرسة فتيان اللغات التي مرت بنا من قبل، ولكن على نطاق أوسع بكثير وأعمق وأقوى. وإذا كانت المدرسة قد حصرت اهتمامها بصراحة في اللغات الحية، فإننا نجد معهد فرنسا، في المقابل، يتولى تدريس مثل هذه اللغات الحية جنبا إلى جنب مع ما يسمى (اللغات الميتة) التي اندثرت منذ العصور الغابرة، كالمصرية والبابلية والآشورية إلى غيرها من اللغات القديمة المهجورة في أفريقيا وآسيا. وهكذا نرى أن مدرسة اللغات الشرقية هذه كانت هي المؤسسة العلمية والتعليمية الوحيدة المتخصصة بالدراسات الاستشراقية

المختلفة، ومنها الدراسات العربية، فكانت خير مركز يصل ثقافة الشرق وصلا علميا ثابتا بالثقافة الفرنسية خاصة والثقافات الأوربية على وجه العموم[77].

4-مؤسسات علمية أخرى للبحث في الدراسات العربية وتعليم اللغة العربية:

كانت المؤسسات التعليمية الثلاث التي أتينا على الحديث عنها آنفا من أبرز المؤسسات الاستعرابية والاستشراقية لتعليم اللغة العربية والاهتمام بحضارتها من هذا الجانب أو ذاك، وهي التي حملت لواء الاستعراب عشرات السنين فخرجت أجيالا وطبقات من المستعربين الملمين بالعربية وحضارتها، وكانوا همزة الوصل بين العرب والفرنسيين، والجسر الواصل بين الثقافة العربية والفرنسية خلال أربعة القرون الأخيرة.

ولكننا لا نستطيع، مع ذلك، أن نهمل ذكر مؤسسات علمية وثقافية وتعليمية أخرى ظهرت، بالتوازي مع تلك المؤسسات الثلاث، داخل فرنسا وفي مستعمراتها السابقة، وكانت لها إسهامات كثيرة في مجال تنشيط حركة الاستعراب الفرنسي كما كان لها يد طولي في العلاقات القائمة في الماضي-كما في الحاضر-بين فرنسا والأمة العربية، بل إن دورها في العلاقات المستقبلية بين الطرفين سينمو ويزداد باضراد ومن غير توقف، نظرا لتوثق هذه العلاقات مع ازدياد حاجة الفرنسيين إلى خدمة مصالحهم الحيوية الكثيرة المرتبطة بالطرف العربي واسع الامتداد على الجانب المقابل للبحر الأبيض المتوسط.

لن نقف طويلا عند هذه المؤسسات ولن نتعمق في دراسة نشأتها وتطورها وميادين نشاطها المختلفة، بل سنلم بها إلمام تذكير، مارين بها مرورا سريعا، ذلك لأنها غطت أكثر فروع الاستعراب ومعظم ألوان الدراسات العربية فيه: فخاضت في اللغة والأدب والتاريخ والدين والجغرافيا والاجتماع والسياسة والاقتصاد والعلوم والفلسفة والفنون وغيرها. ولكن ميزة هذه المؤسسات أن خوضها في عباب الدراسات العربية لم يكن، في أغلبه، خوض تلقين وتعليم للمبادئ الأولية والأسس، بقدر ما كان خوض بحث واستقصاء وتحليل واستنباط على أعلى المستويات.

وفيما يلي أبرز هذه المؤسسات وأهمها:

1- جامعة السوربون.

2- جامعات باريس والمعاهد والمراكز التابعة لها داخل فرنسا وخارجها: كمعهد الدراسات الإسلامية، ومركز الدراسات العالية للإدارة الإسلامية، ومركز دراسات الشرق المعاصرة، والمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، وغيرها.

3- المدرسة التطبيقية للدراسات العالية (وكانت قد أسست سنة1868).

4- الجامعات الفرنسية في الأقاليم، كما في: جامعة ايكس-آن-بروفانس، وجامعة بوردو، وجامعة مونبيلييه، وجامعة ليون، وجامعة ستراسبورغ، وغيرها.

5- المركز الوطني للبحث العلمي بباريس.

6- مدرسة اللوفر (التي تأسست سنة 1882).

7- المدرسة الاستعمارية (تأسست سنة 1889) التي تحولت إلى (مدرسة فرنسا ما وراء البحار)، ثم أصبحت تعرف باسم (معهد الدراسات العالية لما وراء البحار سنة 1959).

8- المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

9- معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب بجامعة الجزائر (وقد تأسس سنة 1934).

ومن الطبيعي ألا يظن المرء أن هذه المؤسسات كلها باقية على ما هي عليه في أيامنا هذه، ذلك لأن سنة الحياة والتطور تعمل فيها دائما، فمنها ما اندثر، وأصبح في ذمة التاريخ عبرة لمن اعتبر، ومنها ما اندمج في غيره وانصهر، ومنها ما تغير اسمه وتجدد رسمه ووضعت له غايات غير الغايات الأولى وأنظمة غير الأنظمة المعمول بها فيه سابقا. بل ربما ظهرت إلى مسرح حركة الاستعراب مؤسسات غير ما هو مذكور هنا ولم يصل إلى علمنا خبره ضمن نطاق الاطلاع، لأن ظروفا كثيرة قد تغيرت وظهرت ما بين العهدين اللذين مرت بهما فرنسا مع العرب: عهد سيطرتها على مستعمرات عربية تابعة لها، وعهد استقلال تلك المستعمرات بنفسها من التبعية المباشرة لفرنسا. وهذا يعني أن تغيرات في طبيعة عمل حركة الاستعراب وآليتها ستظهر إلى حيز الوجود وتكون لها فعاليتها المشروعة

في رسم خريطة تلك الحركة وفق تصور جديد.

ونلحظ، مما تقدم، أن فرنسا كانت مهتمة اهتماما كبيرا بالدراسات الاستشراقية والاستعرابية، فأقامت المؤسسات المختلفة داخل أراضيها وخارجها، خدمة للمصالح التي تجنيها منها في مختلف المجالات. وقد مر على فرنسا حينا من الدهر كانت فيه أنشط الدول الأوربية وأكثرها حيوية في ميدان الاستشراق، وكان لها إسهام كبير في دعم الدراسات العربية ضمن ذلك الميدان على وجه الخصوص، بما قدم مستعربوها من جهود وأنشطة على مختلف الأصعدة.

وإذا كانت هذه المؤسسات العلمية أو التعليمية الاستعرابية مختلفة أو متباينة في الظاهر، وذات نزعات كثيرة متنوعة، فإنها، من حيث الجوهر، تؤدي إلى غاية واحدة، وتقوم بأدوار مختلفة في إطار حركة واحدة، وهي بالتالي متكاملة فيما بينها تعمل جميعا من أجل سد الحاجات التي تتطلبها خدمة المصالح الفرنسية في علاقاتها مع البلدان العربية حاضرا ومستقبلا.

5- دور المستعمريين في تعليم العربية وطرائقهم:

رأينا فيما مر بنا من قبل أن اهتمام فرنسا باللغة العربية أدى بها إلى إنشاء عدد هام من المؤسسات التي تعلمها أو تقوم بدراسات حول حضارتها في مختلف ميادين المعرفة. وتتميز هذه الدراسات حتى اليوم بأنها مستمدة من المصادر العربية مباشرة عن طريق ترجمة الآثار العربية نفسها إلى اللغة الفرنسية، وأن هذه الدراسات كانت تحليلا لهذه المصادر وتعليقا عليها من أجل فهمها أو المساعدة على هذا الفهم، كما كانت أيضا تأليفا قائما على البحث والاستقصاء للوصول إلى نتائج وآراء تتعلق بالمؤلف نفسه استنادا على ما بين يديه من مستندات ونصوص ووثائق.

وكان من الطبيعي أن يشرف على مثل هذه الدراسات أناس مؤهلون للقيام بها يكونون على اطلاع عميق أو جيد على اللغة العربية، ومزودين بقدر واف من الثقافة العربية كليا أو جزئيا، ونطلق على هذه الفئة اسم المستعربين arabisants[(78)]، أي: الأجانب الذين يتعلمون العربية ويقومون بدراسات عنها وعن الحضارة العربية الإسلامية على وجه العموم.

ونبين، هنا، الدور الذي اضطلع به هؤلاء المستعربون في تدريس العربية

لأبناء جلدتهم من الفرنسيين، ونذكر بعض طرائقهم في تدريسها، وهل كانوا يقصرون جهودهم على تعليم العربية الفصحى أو الكلاسية أو القديمة كما يسمونها، أم أنهم كانوا يتعدونها إلى بعض اللهجات العربية العامية المنتشرة هنا وهناك في مشرق الوطن العربي ومغربه على حد سواء؟

أوضح لأنغليس، في خطابه الذي ألقاه على طلبته، سنة 1796، أن هدف التعليم في مدرسة اللغات الشرقية هو تكوين تراجمة قادرين على الحلول محل أولئك الذين كانوا يعلمون العربية والتركية والفارسية، في مدرسة فتيان اللغات، أو تخرجوا منها وشغلوا مناصب رسمية في فرنسا أو خارجها، ممن تركوا خدمة وطنهم، بعد أحداث الثورة الفرنسية، وفروا منه مهاجرين، أو منحازين إلى صفوف أعداء الثورة في أوربا، ولذا يتهمهم بالخيانة، ويصفهم بعدم الخجل من خدمة بعض الأمم المعادية لفرنسا ومصالحها، ورأى أن تصرفهم هذا ضربة قاصمة لتجارة فرنسا في الشرق، وخاصة إذا لم ينشأ جيل جديد من المترجمين المخلصين لبلادهم، ليحلوا محل أولئك الخونة العاقين في أعمالهم(79).

وكان لانغليس يرى أن على أساتذة المدرسة ألا يقصروا دروسهم على عرض الأصول المتعلقة باللغة وشرح الصعوبات النحوية التي تعرض لهم في اللغة التي يدرسونها، وإنما يجب أن يهتموا كذلك بتنمية العلاقات السياسية والتجارية لبلادهم مع الشعوب التي تتكلم هذه اللغات، وكان مرسوم التأسيس قد بين في إحدى مواده أن على الأساتذة أن يعرفوا طلابهم بالعلاقات المذكورة بين فرنسا والبلدان الناطقة باللغات المدروسة في المدرسة(80).

والمعروف أن معظم التراجمة المرتبطين بمناصب دبلوماسية وقنصلية في المشرق العربي والمغرب قد تركوا الخدمة بعد حوادث الثورة الدامية. وفي الوقت نفسه تقريبا، انسحب جميع طلاب مدرسة فتيان اللغات من معهد (لويس الكبير) بباريس، إذ حولت الثورة اسمه إلى (معهد المساواة) College de L'Egalité, ولم يبق منهم فيه سوى اثنين سنة1795(81).

كان معظم المستعربين الأوائل، في أوربا عامة وفرنسا خاصة، فيلولوجيين، بمعنى أنهم كانوا يتصدون لدراسة اللغة العربية وتاريخ العرب وحضارتهم كلها أو في فترة من فتراتها التاريخية، عبر الكتب من خلال

النصوص والوثائق المختلفة، بعيدا عن الواقع الراهن أو الحي لهذه الأمة. وقد استمر هذا الاتجاه الفيلولوجي حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا، وكان الهدف من وراء ذلك هو الاستفادة من كنوز التراث القديم في مختلف الميادين[82].

وجاءت الحملة الفرنسية على مصر لتكشف لأعين هؤلاء المستعربين الفيلولوجيين حقيقة الواقع اللغوي فيها، إذ لحظ المرافقون للحملة منهم، أمثال ج-ج. مارسيل J.J. Marcel وفنتور دوبارادى، وجود لغة عربية في بطون الكتب وعلى ألسنة العلماء والمثقفين، وهي اللغة الفصحى، إلى جانب لغة أخرى، أو إن صح التعبير: عدة لغات، متباينة الألوان والأصوات، تنتشر في البيوت والشوارع والأسواق على ألسنة السواد المطلق من جماهير الناس، وهي اللهجات العامية. فأدركوا بذلك وجود ازدواجية واضحة في اللغة المستعملة في مصر، وكانت هذه صدمة قوية لهم وكشفا مهما عادوا به معهم إلى فرنسا ليذيعوه، وقد كانوا من قبل يظنون أن الناس في مصر يتكلمون تلك اللغة التي كانوا يرونها في بطون الكتب وتلقنوها على أيدي أساتذتهم على أنها لغة الناس في حياتهم اليومية وفي مختلف شؤونهم.

وجاء احتلال الجزائر بعد قرابة ربع قرن من الزمان ليعزز لدى المستعربين الفرنسيين هذا الكشف ويعمموه على سائر البلدان العربية، إذ اكتشفوا وجود واقع لغوي في الجزائر مشابه للواقع الذي سبق لهم أن رأوه في مصر. وكان أول من أحس بهذه الازدواجية المترجم العسكري للجيش الفرنسي في الحملة على الجزائر. جواني فرعون، وكان من أصل لبناني.

ثم فوجئ المستعربون الفرنسيون بأن واقع اللهجات العامية في الجزائر مخالف لواقع اللهجات العامية في مصر، وتم لهم ذلك بالدراسة المقارنة بينهما لكشف مدى هذا التباين الحاصل. ودفعهم التوصل إلى هذه الحقائق إلى المبادرة بدراسة اللهجات العربية المشرقية تارة واللهجات العربية المغربية تارة أخرى، تبعا للأجواء السياسية المتقلبة في فرنسا، وتبعا لتقلب المصالح أيضا. وقد عمدوا إلى تدريس هذه اللهجات في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وفي المدارس الجزائرية التي افتتحوها لتعليم الفرنسيين العاملين في الجزائر من عسكريين ومدنيين عاملين في ميادين الإدارة والإعلام والتجارة وغيرها. وقد استعانوا، في بداية الأمر، بعرب مشرقيين في سبيل

تعريف المستعربين الفرنسيين اللهجات العربية في المشرق، من أمثال: دوم رفائيل، وإلياس بقطر. ثم تولى أمر تعليمها فرنسيون استطاعوا الإلمام بالعربية العامية بشكل من الأشكال، سواء أكان اجتهادا شخصيا كما فعل دوبرسفال، أم عن طريق العيش بين المواطنين العرب أنفسهم ومخالطتهم في حياتهم اليومية لاكتساب معارفهم الدقيقة باللهجة عن كثب، كما هي الحال عند معظم المستعربين الذين كانوا ينتمون إلى المدرسة الجزائرية في القرن التاسع عشر، ومن أبرزهم: شربونو، وهوداس، ومارسيه. أو المدرسة المغربية، ثم المشرقية، فيما بعد[83].

ولتسهيل دراسة اللهجات العربية العامية للفرنسيين، وضع بعض المستعربين معاجم عربية-فرنسية لبعض هذه اللهجات العربية، كمعجم مارسيل الذي سماه (كنز المصاحبة)، ونشره سنة 1837. ومعجم اللهجات الشامية الذي وضعه بارتيليمي، ونشره سنة 1903.

صدر، سنة 1869، مرسوم لتنظيم مدرسة اللغات الشرقية تنظيما جديدا، وقد حدد، في مادته الثانية، طبيعة الدراسات في المدرسة وهدفها قائلا. «إن هدف الدروس هو تعليم الطلاب القراءة والكتابة والحديث باللغات التي تعطى في المدرسة، إضافة إلى تعليمهم الجغرافيا السياسية، التجارية للبلدان التي تستعمل فيها هذه اللغات».

وطالب المرسوم، في مادته الرابعة، باستحداث نظام المعيدين الذين ينتمون إلى أهل اللغة ليكلفوا «بسؤال الطلاب وتدريبهم على المحادثة والقراءة بصوت عال»[84]. وكان أول من تسلم هذا المنصب بعد صدور المرسوم سليمان الحرايري (!) al-Harairi، التونسي المقيم في باريس، وحل محله، بعد وفاته سنة 1877، سلسلة من الشيوخ المصريين، الذين كانوا ينتمون عموما إلى البعثات العلمية الدراسية المصرية إلى باريس، وبقي المصريون معيدين للهجات المشرقية حتى سنة 1902، إذ أصبح المعيدون يعينون في هذا المنصب من أبناء المغرب العربي، نظرا لتحول الاهتمام الفرنسي إلى منطقة المغرب آنذاك[85].

وكان من المفروض على الطالب الذي يحمل دبلوم مدرسة اللغات الشرقية هذه أن يكون بعد تخرجه:

أ- قادرا على التكلم والكتابة بشكل مناسب باللغة التي درسها، مع القراءة

بسهولة، وترجمة مقالات صحفية ونصوص أدبية معاصرة متوسطة الصعوبة.

ب- حاصلا على معارف مجملة قوية ومتماسكة عن علم اللغة التي يدرسها وعن تاريخ البلد الذي يتكلم أهله هذه اللغة، وجغرافيته، ونظمه، وحضارته الحديثة[86].

ولتحقيق هذه الغايات جميعا يعرض الأساتذة على طلابهم البنية النحوية للغة التي يتعلمونها، ويدرسونهم نصوصها الأصلية، كما يقوم المعيدون بإجراء المحادثات، وترسيخ العلاقة القائمة بين السمعي والبصري[87].

ونستعرض، فيما يلي، بعض طرائق تعليم اللغات الشرقية، ولاسيما العربية، للطلاب في هذه المؤسسات التعليمية المختلفة التي مرت بنا حتى الآن. إما كما يحددها لنا المستعربون أنفسهم في دروسهم الافتتاحية، وإما كما يتحدث لنا غيرهم عنها من خلال مشاهداتهم حين كانوا طلابا عندهم، وفيها نتبين كيف كانت دروس العربية تعطى، وكيف كان الطلاب يتلقونها ويفيدون منها من الناحية العملية..

1- أعلن (إلياس بقطر)، سنة 1802، لطلبته عن مخططه في محاضراته فقال إنه سيركز على أربع نقاط هي: القراءة، والتفسير، والكلام، والكتابة. وأضاف إلى ذلك بعض التوضيحات فقال: بالقراءة سنفهم التلفظ بالكلمات. وبالتفسير سندرك المعاني المختلفة للكلمة واستعمالاتها وطريقة ترجمتها. وكل هذه المقدمات ستؤهلنا للكلام. وستكون هذه الأطوار جميعا مصحوبة بتمارين في الخط وفن تشكيل الحروف بالحركات والسكون عند المشرقيين، وبدلا من إعطاء نظرية خاطفة عن طريقة لفظ كلمة ما، كما يحدث غالبا حتى الآن-فإنني سأتلفظ بهذه الكلمة أمام مستمعي، وأدعوهم من ثم إلى تقليدي، وأما موضوعات القراءة فسنختارها من نصوص المؤلفين ذوي اللغة السهلة والأسلوب الواضح حتى تكون في متناول الجميع[88].

2- وكانت طريقة (دوبرسفال)، في تعليم العربية العامية، هي أن يعرض أسس اللهجة نظريا، ثم يمارسها بالمحادثة عمليا، وأن يشرح لطلابه النصوص العامية المنشورة ملحقا في كتابه عن النحو العربي العامي. ولم يقتصر الأمر على العامية، بل تعداها إلى العربية الفصحى السهلة، في كتب مثل (تاريخ نقولا الترك) و(ألف ليلة وليلة) و(قصة عنترة)[89].

3- وعندما عين (برينييه) Bresnier أستاذا لكرسي العربية العامية في

الجزائر، سنة 1836، قرر على طلابه دراسة نحو اربينيوس[90] Erpenius، ونحو دوساسي، ونحو دوبرسفال. وقد عرض منهجه في التعليم، كالتالي: ثلاث جلسات لتمارين العربية المحكية، وجلسة لمبادئ النحو والكتابة والأسلوب، وجلسة لشرح النصوص العربية الأدبية والعلمية، وجلسة لترجمة الآداب، والأعمال الرسمية، والكتابات المألوفة. وظل في تدريسه هذا إلى وفاته سنة 1869[91].

4- وكان (شربونو) يعرض على طلابه، في السنة الأولى، نحو اللهجات العربية المختلفة، ويقارن بعضها ببعض، ثم يترجم شيئا من الأساطير والقصص الشعبية. وكان يتابع، في السنتين الثانية والثالثة، تفسير النصوص باللغة العربية الفصحى، من خلال. (ألف ليلة وليلة) و(قصة عنترة)[92].

5- وقد أعلن (ديرنبورغ)، سنة 1882، في إعلان دروس العربية الفصحى التي سيلقيها، في مدرسة اللغات الشرقية، أنه سيعرض على طلاب السنة الأولى: أصول النحو العربي، وسيقوم بتدريس موضوعات وتمرينات أولية للترجمة والتحليل. وأنه سيقوم بترجمة مقدمة كتاب (الفخري) لأبن الطقطقي لطلاب السنة الثانية (حسب طبعة آلفارت Ahlwardt). وأنه سيترجم لطلاب السنة الثالثة شيئا من (مقامات الحريرى) مع الشرح المختار الذي نشره لها دو ساسي[93].

6- زار الدكتور فيليب حتي، سنة 1923، مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وحضر بعض دروس أستاذ العربية فيها، المستعرب المعروف (غودفروا-ديمومبين)، ونقل لنا صورة عن طريقته فقال إنه يشرح قواعد النحو والصرف، وكتاب (السندباد البحري) مرتين في الأسبوع لطلاب السنة الأولى. وكان كتاب الدراسة الذي يعول عليه طلاب السنة الثانية هو(ألف ليلة وليلة). وكان طلاب السنة الثالثة يدرسون القرآن ومقدمة ابن خلدون. وكان الأستاذ المعيد ابن حموده (أحمد!) المصري يعاونه في تلقين هؤلاء الطلبة اللهجة المصرية[94].

7- ويذكر الدكتور حتي، في الزيارة نفسها أيضا، المستعرب (بارتيليمي) أستاذ اللهجات العامية المشرقية، ويثني على إجادته اللهجة الشامية وكأنه أحد أبنائها. وأشار إلى معاونه الأستاذ ميشيل بيطار، ذي المولد والنشأة اللبنانيين. وكان يرى أن طريقة بارتيليمي مستحدثة في تلقين اللهجات

العربية العامية. كما لحظ، في الوقت نفسه، أن معظم أساليب التدريس في سائر الصفوف بالمدرسة كانت تجري على النمط القديم المألوف الذي سار عليه آنذاك مجمل المستشرقين الأوربيين والأمريكيين في تدريسهم اللغات الشرقية[95].

8- يرى ميرامبيل أن طرق تعليم اللغات كانت تشمل عموما: معرفة أصول اللغة، وشرح بعض النصوص، وإعطاء دروس لتسهيل قراءة المخطوطات من مختلف العصور، وتفسير النصوص المنتمية إلى عهود متفاوتة، ودراسة النحو التاريخي. ويرى أيضا أن لمادة التاريخ دورا هاما في تدريس الحضارة[96].

6- ملاحظات عامة:

ونختم هذا الفصل بجملة من الملاحظات الضرورية حول عدد من جوانب تعليم العربية في المؤسسات الفرنسية وحول أساتذة هذه المؤسسات من المستعربين:

كان في حركة الاستعراب الفرنسي مدرسة خاصة نشأت وترعرعت في الجزائر واستمرت ما بين نزول الفرنسيين في الجزائر وخروجهم منها، أي أن عمرها كان يمتد قرابة مئة واثنتين وثلاثين سنة، وظل لها تأثيرها وأصداؤها بعد ذلك ولا يزال، وقد عرفت هذه المدرسة باسم (المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي)، ونحن ذاكرون هنا بعض كراسي العربية في الجزائر، متطرقين إلى أبرز أعلام هذه المدرسة حتى ثلاثينات هذا القرن.

ترافقت نشأة المدرسة الجزائرية تقريبا مع بدايات الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830 التي كانت عاقبتها احتلال هذا القطر العربي الشقيق من بلدان المغرب، ثم تطورت وترسخت مع ترسخ أوتاد هذا الاستعمار، ونضجت الدراسات العربية في الجزائر نضجا كبيرا، وتكون في الجزائر عدد طيب من المستعربين البارزين الذين عملوا في مجال التعليم والدراسات والوظائف المختلفة، فبذلوا جهودا عظيمة لتقريب اللغة العربية والعرب وحضارتهم وتاريخهم إلى الفرنسيين لفهمهم أكثر ومعرفتهم معرفة أدق وأعمق[97].

كان جواني فرعون، ذو الأصل اللبناني، أول من تولى تعليم العربية للفرنسيين في مدينة الجزائر سنة1832، ثم خلفه في كرسي العربية، سنة 1836، المستعرب الفرنسي برينييه، الذي استمر فيه حتى وفاته سنة 1869، وهذه مدة طويلة كما هو ظاهر. ثم جاء بعده كومباريل Combarel من سنة 1869 إلى سنة 1874. ثم تولى هذا الكرسي ريشبي Richebe من سنة 1874 إلى سنة 1877، ثم خلفه فيه هوداس إلى سنة 1884، وكان كرسي العربية، في عهده، قد انتقل إلى كرسي في نطاق (المدرسة العليا للآداب) في مدينة الجزائر. ثم خلفه فيه رني باسيه R. Basset ص من سنة1885 حتى وفاته سنة1924، وفي عهده تحولت (المدرسة العليا للآداب) إلى (كلية الآداب) سنة 1909 وكان عميدا لها منذ جرى هذا التحول.

وكان كرسي تعليم العربية الثاني في مدينة قسنطينة، وقد أنشئ سنة 1846، وتولاه فينيار ,vignard وهو مترجم عسكري أصلا في الجيش. ثم تابعه فيه في السنة نفسها المستعرب شربونو، وبقي يشغله إلى سنة 1863. ثم تولاه بعده ريشبي من 1864 إلى سنة 1879. وخلفه فيه بعد ذلك مارتان Martin من سنة 1874 إلى سنة 1889 ثم تولاه بعده المستعرب موتيلينسكي Motylinski حتى سنة 1906. ثم تولاه المستعرب أوغست كور بعده.

واستحدث كرسي ثالث لتعليم العربية، سنة 1846، في مدينة وهران، وقد تولاه هادامار Hadamard إلى سنة1855. ثم خلفه فيه كومباريل من سنة1855 إلى سنة 1869 التي انتقل فيها إلى كرسي العربية في الجزائر بعد وفاة برينييه الذي كان يشغله. ثم تولاه هوداس من سنة 1869 إلى سنة 1877 التي انتقل فيها لشغل كراسي العربية في الجزائر سنة 1877 خلفا لريشبي. ثم خلفه فيه ماشويل-Ma chuel من سنة 1877 إلى سنة 1881. ثم جاء بعده دلفان ,Delphin ثم موليبراس Moulieras.

وهناك عدد آخر من كبار المستعربين الفرنسيين الذين ينتمون إلى المدرسة الجزائرية نفسها، فيما بعد، نذكر من أبرزهم: وليم مارسيه، وغودفروا-ديمومبين.

وضع معظم هؤلاء المستعربين، سواء داخل فرنسا أم خارجها، وهم الذين مارسوا مهنة تعليم العربية الفصحى أو اللهجات العامية وعانوا من ذلك وخاضوا التجارب واكتسبوا الخبرات، وضعوا كتبا تعليمية لطلابهم

تيسر لهم دراسة العربية واستيعابها في نصوص يختارونها، وتطبيقات وتمارين عملية ونظرية يرسمونها لهم بقصد إفادتهم وإغناء دروسهم.

ونلحظ إن تعليم العربية الفصحى قد غلب عموما على دروس المستعربين الفرنسيين وكان السمة الكبيرة المميزة له. ونلحظ كذلك أن كثيرا من المستعربين الذين كانوا مكلفين بتعليم اللهجات العربية العامية المشرقية أو المغربية قد مالوا في أكثر الأحيان إلى تعليم العربية الفصحى، مهملين اللهجات العامية، كما حدث مع كبيرهم دوساسي، الذي كان يميل إلى الفصحى وحدها، مع أن تعليم العامية كان قد أسند إليه، وذلك لأنه لم يكن يفقه شيئا من العامية لعدم اهتمامه بها، وقد مزج بعض المستعربين ما بين تعليم العربية الفصحى واللهجات العامية في وقت واحد في مؤسستين مختلفتين، كما فعل دوبرسفال الابن، على سبيل المثال، إذ تولى كرسي العربية الفصحى في معهد فرنسا، بعد أبيه، من سنة 1833 إلى سنة 1871، كما مر بنا من قبل، وكان منذ سنة 1821 إلى سنة 1871 متوليا لكرسي العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية كذلك.

وكانت مؤسسات تعليم العربية للفرنسيين تلجأ منذ وقت مبكر إلى تطبيق تجربة الإقامة في المشرق في مدينة ساحلية أو داخلية، بغية تعمق طلابها في اللغة العربية فصحى وعامية إلماما عمليا مثمرا، كما فعلت مثلا مدرسة فتيان اللغات التي كان لها في تركيا-كما مر بنا من قبل-مركزان: أحدهما في ديربيرا قرب استنبول، والثاني في ميناء أزمير الواقع على بحر إيجة. وربما كانت هذه الإقامة في مدينة عربية محضة على الساحل أو في الداخل كذلك، ويتم ذلك عادة بإشراف القناصل المقيمين فيها، إذ يتوفر للطلاب بذلك فرصة ثمينة لا تعوض للإفادة من اختلاطهم المباشر بالناس في اكتساب معرفة عميقة بلغتهم ولهجاتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وفنونهم وطباعهم ومعتقداتهم، مما لا يتوفر مثله في أي مصدر آخر مكتوب، وهذه كلها حصيلة لا بد منها لطالب المعرفة العملية والواقعية الدقيقة بأي لغة من لغات العالم قديما وحديثا على حد سواء، ولذا كان هؤلاء الطلاب يسكنون في بيوت عربية مع بعض الأسر.

ويبدو أن الفرنسيين قد أفادوا من هذه التجربة إفادة كبيرة في بلدان المغرب العربي بعد احتلالها، وطبقوها إلى حد ما في المعاهد الفرنسية في

كل من دمشق وبيروت والقاهرة، حيث يستقبل الطلاب الموفدون لدراسة العربية، أو لمتابعة بحوث كانوا قد بدؤوا بها، أو أطروحات يعملون على جمع مادتها أو جوانبها باستمداد المعلومات من مصدرها مباشرة. وكان بإمكان بعض المستعربين، إضافة إلى كل ذلك، أن يقوموا بزيارة البلدان العربية في المشرق أو المغرب، وأن يقيموا في إحدى المدن العربية على حسابهم الخاص لتعليم العربية أو لإجراء دراسات وبحوث ميدانية (تاريخية، أثرية، فنية، فولكلورية، لهجاتية، الخ).

ونلحظ، من خلال اطلاعنا على حركة الاستعراب الفرنسي خاصة، أن أغلب المستعربين الفرنسيين الذين حصلوا على منزلة رفيعة واحتلوا مكان الصدارة في هذه الحركة، وكانوا أكثر المستعربين قدرة وأطولهم باعا وأغزرهم إنتاجا وأعظمهم نشاطا في أكثر الميادين، إنما هم أولئك الذين مارسوا مهنة تعليم العربية في المؤسسات العلمية والتعليمية الفرنسية داخل وطنهم أو خارجة.

والحقيقة أن المستعربين الفرنسيين قد بذلوا جهودا عظيمة في تعليم العربية لأبناء جلدتهم، ليكون عملهم هذا نافذة يطلون منها على حضارة العرب وثقافتهم وحياتهم المعاصرة. وقد أدى تنظيم التعليم على أيديهم في مؤسسات تابعة للدولة إلى استمرار الدراسات العربية في فرنسا واتصالها، بعد أن كانت من قبل تتعرض لسلسلة من الانقطاعات والكبوات المزعجة، فأدى هذا الاستمرار بدوره إلى تنوع هذه الدراسات وتعمقها وترسخها في كثير من الميادين.

فإذا كانت كل هذه الجهود التي بذلها المستعربون الفرنسيون، في الأصل، خدمة لوطنهم ولثقافتهم، فإن آثارها وصداها ووهجها تم انعكاسها جميعا على لغة العرب وتراثهم وثقافتهم في العصر الحديث، ذلك لأن هؤلاء المستعربين أسهموا من حيث يدرون أو لا يدرون، أو من حيث شاؤوا أو أبوا، في خدمة تراثنا ولغتنا، فحفظوا من ذلك التراث ما حفظوا، وأحيوا ما أحيوا، وقاموا بتنظيمه أو إن شئنا الدقة بتنظيم جزء منه قيض له الدهر أن يقع بين أيديهم، فأخضعوه للنقد والتحليل وألفوا فيه البحوث والدراسات المختلفة: ومجمل هذه الأنشطة غير التعليمية ستكون موضوعا للبحث في الفصل التالي.

4 أنواع الدراسات العربية في فرنسا

نعني (بالدراسات العربية)، هنا، تلك الفنون من الثقافة العربية التي اهتم المستعربون الفرنسيون بها، فعملوا على نشر مخطوطاتها، أو قاموا بترجمتها إلى اللغة الفرنسية أو الاقتباس والإفادة منها، أو أسهموا في إلقاء المحاضرات عنها، أو تأليف كتب تبحث فيها من قريب أو بعيد: فما هذه الدراسات التي شغلت بالهم ؟ وكيف كان تناولهم لها؟ وما غاية كل منها؟ ومن هم المستعربون الذين أسهموا بأعمالهم في تقديم مختلف ألوان الدراسات العربية في فرنسا ومؤسساتها العملية المختلفة؟

لا مجال، هنا، لتناول الترجمات التي تمت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من اللغة العربية إلى اللاتينية في العلوم الفلسفية والطبية والصيدلية والرياضية والطبيعية والكيميائية والفلكية وغيرها من العلوم العقلية والتجريبية، لأنها لم تترجم إلى الفرنسية التي أصبحت فيما بعد لغة قومية للثقافة والعلوم والآداب والفنون، وإن كان الفرنسيون قد استفادوا منها أحيانا إلى قرابة

منتصف القرن الثامن عشر. أضف إلى ذلك أن هذه الترجمات تتعلق بموضوعات خارجة عن دائرة اهتماماتنا في هذا الفصل، إذ أن العلوم لا هوية لها ولا جنسية وهي مشاع بين العالمين بلا استثناء، في حين أن الدراسات التي نذهب إليها هنا، إنما هي تلك الدراسات التي لها صلة بالعرب وحضارتهم الروحية والفكرية والشعورية، ولاسيما اللغة والآداب، أو ما يتصل بها من تاريخ وعقيدة وجغرافيا.

وإذا وصلنا إلى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر للميلاد، وجدنا مستعربا، هو أنطوان غالان، يقوم بترجمة قصص (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية، وينشر هذه الترجمة بين سنتي1704 و 1708، فيكون لها تأثيرات واسعة في الأوساط الأدبية وفي نفوس المثقفين والمتعلمين من أبناء الطبقات الشعبية، و«مارست على الفرنسيين إغراء كبيرا جدا»[1]، لأنها جاءت في وقت كانت الآداب في فرنسا تمر فيه بأزمة خطيرة، ذلك لأن الجمهور كان قد مل سماع آداب اللاتين واليونان وتعب منها جملة[2].

وكانت قصص ألف ليلة وليلة جديدة على الفرنسيين كل الجدة في تقنيتها، وأسلوبها، وموضوعاتها، وأجوائها العامة، وشخصياتها، واستبطانها أغوار النفس البشرية وغرائزها وطموحاتها وأطماعها وعناصر الخير فيها على حد سواء. وكانت تكشف لهم عن بلدان الشرق والحياة الجميلة المتميزة فيه لأول مرة. ومما زاد في تشويق الناس في الغرب لقراءة هذه القصص أن غالان كتب في مقدمة ترجمته لها يقول إنها تبسط لقارئها عادات الشرقيين وأخلاقهم وشعائرهم الدينية. فالشرقيون جميعا يظهرون فيها على ما هم عليه، ابتداء بالسلطان وانتهاء بأي شخص عادي. وهكذا، فإن بإمكان القارئ أن يراهم، هنا، يعملون، وأن يسمعهم يتحدثون، من غير أن يتكبد عناء السفر للبحث عنهم في بلدانهم»[3]. وقد ألهبت هذه القصص خيال الفرنسيين خاصة والغربيين عامة، بعد ترجمتها عن الفرنسية إلى لغاتهم، تجاه الشرق، وغرست عند كثير منهم حب الاطلاع والتشوق إلى زيارة الشرق وأهله ليرى بأم عينيه ما قرأه في هذا الكتاب العربي الضخم الذي عرف اختصارا بـ (الليالي العربية). وقد أسهم هذا الكتاب فعلا في توجيه أنظار الغربيين إلى ساحة الشرق الواسعة والمتنوعة بقوة، ودفعهم إلى التعمق في دراسته وفهمه.

ولم تكن هذه القصص العربية ممتعة فقط، إنما كانت كذلك ملهمة لعدد من المفكرين، حتى إن الفيلسوف فولتير[4] «يعترف أنه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة.. وأوضح لوبون G. Lebon أن هذا الكتاب ألقى نورا ساطعا على العرب والشرقيين، وعلى الناحية الإيجابية لخصائصهم، بل لقد أثار في نفوس الغربيين السعي للتعرف على الشعوب التي كانت وراء هذا الأثر العظيم. وقد لا يكون من المبالغة القول أن هذا الكتاب كان أول الطريق إلى الاستشراق وانتشار حركته في الغرب»[5].

أحدث هذا العمل، إذن في فرنسا، ما يشبه الهزة الأدبية، مما شجع على الإقدام على الدراسات العربية المختلفة قدما، وانتقلت العدوى، من ثم، إلى أكثر بلدان أوربا نتيجة ذلك.

وكان من الأمور البارزة في الحياة العلمية للمستعربين المتخصصين بالمهنة أن يؤلفوا بحوثا ودراسات تتعلق بميدان تخصصهم وبميولهم الشخصية كذلك. إلا أن المرء يحس إجمالا بقلة عدد مثل هذه الدراسات التأليفية الخالصة عند هؤلاء المستعربين. وسبب ذلك واضح تمام الوضوح، في رأينا، لأن المستعرب الذي يعمد إلى تأليف دراسة ما لابد له من ثقافة جيدة في موضوع تأليفه، وهذا لا يتم إلا بالاطلاع العميق والمباشر على مصادره في اللغة العربية، وهذا يتطلب منه التمكن التام من هذه اللغة. وقد يكون اطلاعه على مصادر غير مباشرة أو مراجع باللغة الفرنسية أو غيرها من اللغات الغربية (كالإنكليزية، والألمانية، والإيطالية، والإسبانية..) رافدا لبحثه إذا استند أساسا إلى المصادر العربية مباشرة بالدرجة الأولى، إلا أنه قد يعتمد في الأعم الأغلب على المصادر غير المباشرة، فيقع عندها في الضعف والقصور ومالا تحمد عقباه. وقد ترد غزارة إنتاج المستعرب في ميدان التأليف إلى سعة معرفته الآثار العربية مباشرة، وتعميقه في العربية إلى حد الإفادة المباشرة.

من تلك الآثار بلا عناء. ويستتبع ذلك أن قلة اطلاع المستعرب وضعفه في العربية ينعكس عليه بقلة الإنتاج.

ولاشك في أن الترجمات الفرنسية لآثار عربية كانت تقدم المادة الخام الأولية التي يستغلها أو يستعملها كل من يتصدى لدراسة أي شأن من

شؤون العرب، ومن ذلك، مثلا، أنه لا يمكن تأليف دراسة في التاريخ الأدبي العربي إذا لم يكن المؤلف المستعرب ملما بكتب التاريخ العربية التي نقلت إلى الفرنسية للمقريزي وابن خلدون وابن ميسر والخطيب البغدادي والمسعودي وأبي شامة وغيرهم، ممن أرخوا للحضارة العربية الإسلامية والحوادث الاجتماعية والسياسية المختلفة في المنطقة العربية والعالم الإسلامي.

والمعروف أن عدد الترجمات كان قليلا جدا أو نادرا حتى أواخر القرن الثامن عشر، ثم بدأت حركة الترجمة تنشط باطراد منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى إذا ما جئنا نحصي هذه الترجمات الفرنسية لكتب التراث العربي والثقافة العربية فإننا سنجد عددا طيبا منها يحصيه كتاب فكتور شوفان V.Chauvin الذي أسماه: (مرجعية الكتب العربية أو المتعلقة بالعرب المنشورة في أوربا المسيحية من سنة 1810 إلى سنة 1885). ثم نجد إحصاءات أحدث منها في كتاب لنجيب العقيقي عنوانه. (المستشرقون).

ونلحظ زيادة عدد الدراسات الخالصة التي أنتجها المستعربون الفرنسيون مع زيادة عدد الكتب المترجمة من العربية إلى الفرنسية. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء المستعربين كانوا يفيدون مما ألف قبلهم من دراسات بالفرنسية بوصفها مراجع يمكنهم أن يبنوا عليها أو يستشهدوا بما فيها من آراء لمناقشتها أو استلهامها.

إلا أن المعين الثر الذي لا ينضب على وجه الإجمال لأي مستعرب باحث يعمل على تأليف الدراسات يظل بلا ريب الإتقان العميق للغة العربية وقراءة ما كتب بها من آثار قراءة مباشرة. ذلك لأن اللغة هي المفتاح الحقيقي الذي ييسر سبل البحث والاطلاع في أي ثقافة من الثقافات.

يضاف إلى هذه الأدوات معرفة اللغات الأجنبية الحية غير العربية والفرنسية، لأن مثل هذه المعرفة تيسر للباحث سبل الاطلاع على ما كتب في موضوع بحثه في إحدى هذه اللغات، فيستطيع بذلك أن يلم بما قيل فيه ليضيف إليه جديدا أو ليغير ما يراه غير صحيح. ومما يدفع إلى الإفادة من جهود المستعربين باللغات الأخرى إدراكنا في كل حركة استعراب أوربية إنجازات لا نجدها في غيرها من الحركات، وبذلك فإنها متكاملة فيما بينها، لا يمكن لإحداها أن تستغني بنفسها عن الأخريات بأي حال من

الأحوال، لأن بعضها يتمم بعضا في المنظور العام.

ونحن نجد أن أعمق الدراسات كانت ناتجة، أساسا، عن توفر الأداة الرئيسية الأولى، وهي الإلمام باللغة العربية إلماما عميقا، وليس مهما، في رأينا، أن يحسن المستعرب لغة الحديث أو الحوار بهذه اللغة كأهلها، إذ لا يعد ذلك عائقا دون الوصول إلى الغاية المتوخاة، إذ يكفي هذا المستعرب أن يكون قادرا على قراءة النصوص العربية وفهمها فهما دقيقا، ولا يعد ذلك عيبا في الباحث المنقطع للبحث، لأننا نجد مستعربا شهيرا، هو سلفستر دوس ساسي، يبعث رسالة جوابية إلى أحد المعجبين بعلمه في المشرق العربي يقول فيها: «تريد أن تعلم إن كان لي بعض الشيوخ الذين تعلمت عليهم العربية، وأني لأستطيع أن أؤكد لك أن معلمي الوحيد كان الكتاب، وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية، ولا حتى أن أفهم ما يقال بهذه اللغة، إذ لم تتح لي الفرصة، في شبابي، للتكلم بالعربية، ولا حتى الاستماع إليها»[6].

ويذكر رفاعة الطهطاوي هذا المستعرب في كتابه (تخليص الإبريز) فيقول: «وما يتراءى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب فهذا لا أصل له.

ومما يدلك على ذلك أني اجتمعت في باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير في بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات المشرقية، خصوصا اللغة العربية والفارسية يسمى البارون سلوستر دساسي.. وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه، لا بواسطة معلم, إلا إذا كان بيده الكتاب، فإذا أراد شرح عبارة أغرب في الألفاظ التي يتعذر عليه تصحيح نطقها»[7].

ومن المستعربين الفرنسيين الذين كانوا يتقنون الكلام والكتابة بالعربية: لوى ماسينيون، ووليم مارسيه[8].

ونتناول، فيما يلي، أبرز الدراسات العربية في فرنسا، مع ذكر أهم الأعمال التي قدمت في كل نوع منها على صعيد التأليف أو الترجمة والتحقيق، وسنتجنب، في الوقت نفسه، ذكر الدراسات القصيرة المنشورة على صورة مقالات في الدوريات الاستعرابية أو الاستشراقية الفرنسية على اختلاف ألوانها ومشاربها، إلا إذا كانت ذات أهمية خاصة في تاريخ الاستعراب على وجه العموم:

ا -الدراسات اللغوية:

امتدت أنشطة المستعربين الفرنسيين إلى ميادين كثيرة في مجال الدراسات اللغوية العربية لأن مثل هذه الداسات-كما مر بنا من قبل-كانت تشكل المفتاح الذي لابد منه لأي مستعرب حقيقي، من أجل أن يفتح به باب الثقافة العربية على مصراعيه، ولم يسبق أن تكون مستعرب تكونا تاما وسليما من غير أن يمر بمرحلة تعلم العربية لغة أجنبية بصورة من الصور في مدرسة أو على يد شخص ما أو بالاحتكاك بالبيئة اللغوية العربية مباشرة مع قصد التعلم.

وقد انصبت اهتمامات المستعربين اللغوية على دراسة العربية الفصحى للإفادة من نصوصها القديمة والحديثة معا، لأنها اللغة التي دون بها التراث والتي تستعمل في التدوين الحديث أيضا. ثم أخذوا يهتمون بدراسة اللهجات العربية المختلفة في المشرق العربي ومغربه، لغايات عملية قريبة أو لأهداف علمية معينة، ولذا فإننا نستعرض فيما يلي أنشطة المستعربين في كلا المجالين، ذاكرين أبرز ما أنتجوه فيهما من أعمال في الاتجاهات التالية:

أ- تأليف الكتب في النحو العربي:

ا- وضع بوستل، سنة 1538، كتابا في قواعد اللغة العربية هو:-Grammatica arabica ونشره في باريس.

2- ووضع دوسافاري de Savary، سنة 1784، كتابا في النحو العربي، وقدمه إلى الحكومة الفرنسية بعنوان: قواعد اللغة العربية العامية والفصحى. وقد نشر في باريس سنة 1813 يد لانغليس، بالتعاون مع ميشيل صباغ، بعنوان: النحو العربي Grammaire arabe.

3- وألف هربن T. Herbin سنة 1803، كتابا في أصول العربية العامية.

4- ونشر دوساسي، سنة 1810، كتابا بعنوان: النحو العربي Grammaire arabe. وجعله مخصصا لطلابه في مدرسة اللغات الشرقية التي كان أستاذا فيها للعربية كما مر بنا من قبل. وكان مرسوم تأسيس هذه المدرسة يوجب على أساتذة تلك المدرسة تأليف كتب باللغة الفرنسية في قواعد اللغة التي يدرسها كل منهم. وقد وضع لكتابه هذا عنوانا عربيا مسجوعا-على طريقة المؤلفين العرب في العصور المتأخرة-هو (التحفة السنية في علم العربية). وقد أعيد نشره، سنة1831، بعد تنقيحه وإضافة بحث عليه في عروض

الشعر العربي. وهذا الكتاب هو الذي تأثر به الشيخ رفاعة الطهطاوي عندما ألف كتابه النحوي: (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية) وظل كتاب دوساسي هذا، طوال قرن من الزمان أو يزيد، مرجعا أساسيا لدراسة نحو اللغة العربية عند الطلاب المبتدئين والمستعربين الناشئين والكبار على حد سواء.

5- ووضع كوسان دو برسفال الابن، سنة 1924، كتابا بعنوان: النحو العربي العامي Grammaire arabe vulgaire، ونشره في باريس. وأعاد طبعه سنة 1833 بعد احتلال الجزائر، مضيفا إليه أمورا تتعلق بلهجة أهل المغرب العربي. ثم أعيدت طباعته عدة مرات بعد ذلك، لأنه كان يشكل أساسا لدراسة اللهجات العربية العامية في المؤسسات العلمية والتعليمية في فرنسا.

6- ووضع برون Perron، سنة 1832، كتابه: قواعد العربية، ونشره في باريس.

7- ووضع برون أيضا، في السنة نفسها، كتابا بعنوان: العربية العامية في الجزائر.

8- ونشر ومنتيه Montet في جنيف سنة 1897، كتابه: مبادئ النحو العربي. ثم أعاد طباعته في باريس سنة 1903.

9- ونشر بيرييه Perier، سنة1911 كتابه: قواعد العربية الجديدة.

10- ونشر لوفيفر G.Lefebvre كتابه: قواعد اللغة المصرية الفصحى (كذا)، في المعهد الفرنسي بالقاهرة (الطبعة الأولى سنة 1940 لثانية سنة 1955).

11- ووضع بلاشير، بالتعاون مع ديمومبين، كتاب: نحو العربية الفصحى، سنة 1937، بباريس. وهو أجود كتب النحو العربي باللغة الفرنسية، وقد نقح وأعيدت طباعته سنة 1952. وهو إلى اليوم مرجع هام للمستعربين الفرنسيين.

وربما حدث تأليف نحوي في الاتجاه المعاكس كما فعل أحمد فارس الشدياق وغوستاف دوغا، إذ تعاونا معا على وضع كتاب بعنوان: (النحو الفرنسي في متناول العرب في الجزائر وتونس والمغرب ومصر والشام) Grammaire francaise a l‘usage des Arabes، ونشراه في باريس سنة 1854.

ب- وضع المعاجم اللغوية:

أسهم المستعربون الفرنسيون في وضع المعاجم اللغوية الثنائية أو الثلاثية

لما لها من أهمية خاصة في تقريب ما بين اللغتين العربية والفرنسية من مسافات، ولإزالة إبهام إحداهما أمام الأخرى. والمعجم-كما هو معروف-هو الدليل الأول للمتعلم المستجد، كما أنه الترجمان الذي لا غنى للباحث المجرب أو المترجم الأريب عنه، إذا أراد أحدهم البحث في لغة أجنبية حية. وهو الذي يقودنا إلى معاني المفردات التي يؤلف مجموعها مادة اللغة. وهو الذي يفك لنا أسرار العبارات والتراكيب اللغوية في سياق الكلام الحي. وقد كان نشاط المستعربين في هذا الميدان واسعا، فأنتجوا ولا يزالون ينتجوا عددا من المعاجم العربية-الفرنسية أو الفرنسية-العربية. وهذا عرض لأبرز هذه المعاجم متسلسلة بحسب ظهورها أو وضعها:

1- حقق كوسان دوبرسفال (المعجم العربي-الفرنسي) الذي كان إلياس بقطر قد وضعه وتم نشره في مجلدين سنة 1828 وسنة 1829. ثم أعيدت طباعته سنة 1848. وطبع مرة ثالثة سنة 1864.

2- وصنف مارسيل، سنة 1837، معجمه: (كنز المصاحبة)، وهو معجم فرنسي-عربي عامي.

3- ونشر كازيميرسكي، في باريس، سنة1860: قاموسا عربيا-فرنسيا في مجلدين.

4- ووضع شربونو: معجما فرنسيا-عربيا في مجلدين، نشره سنة 1876 بباريس.

5- وصدر لماشويل في الجزائر: معجم عربي-فرنسي في السنوات 1877، 1881 و1917.

6- ووضع بوسييه Beaussier: القاموس العلمي العربي-الفرنسي، الذي نعثر سنة 1887 في الجزائر بعد وفاته، وكان ذا أهمية كبيرة في ميدانه.

7- ووضع بارتيليمي سنة 1903: قاموسا عربيا-فرنسيا للهجات العامية في بلاد الشام (حلب، ودمشق، ولبنان، والقدس). وكان المصنف قد تنقل في قنصليات فرنسا في هذه المناطق فأتقن اللهجات العامية فيها تماما، وصار يتكلمها وكأنه واحد من أهلها. غير أنه لم ينشره في تلك السنة، وهو يقع في خمسة أجزاء: نشر ثلاثة منها على التوالي في السنوات 1935 و1936 و1937. ثم جاء هنري فليش H.Fleisch فنشر المجلدين الرابع والخامس سنة 1960 بباريس تحت عنوان: قاموس اللهجات العربية في سورية ولبنان

وفلسطين.

8- وأصدر مارسيه، في الجزائر سنة 1942: المعجم. وهو قاموس كبير جمع فيه اللهجات المغربية ونصوصها وأصواتها، فحل بذلك محل قاموس بوسييه السالف ذكره.

9- ونشر ليفي-بروفنسال: المعجم التطبيقي لعربية القرن العشرين، في الرباط سنة 1942.

10- ووضع شارل بيلا :Ch.Pellat قاموسا عربيا-فرنسيا ونشره في باريس.

11- ونشر بلاشير بالتعاون مع دنيزو Denizeau ومصطفى شويمي: قاموسا ثلاثيا عربيا-فرنسيا-إنكليزيا، بإشراف المركز الوطني للبحث العلمي بباريس. .C.N.R.S وقد صدر منه ثلاثة مجلدات من أصل ستة، ابتداء من سنة 1963. وقد حل بيلا محل بلاشير بعد وفاته سنة 1973 من أجل إتمام هذا المشروع الضخم.

جـ- نشر الكتب النحوية العربية وترجمتها:

1- نشر دوساسي (ألفية ابن مالك)، مع شرح لها وتعليق عليها، وترجمها سنة 1834.

2- ترجم برينييه، سنة1846، كتاب: الأجرومية في قواعد العربية لمحمد بن داود الصنهابخي، إلى الفرنسية، وذيل الترجمة بملحق لتفسير الكلمات العربية.

3- ونشر غوغويه Goguyet في ليدن سنة 1877: شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام.

4- ونشر هو نفسه أيضا (ألفية ابن مالك)، مع شروح لها وحواش عليها بالفرنسية، في بيروت سنة 1888.

5- ونشر بنتو Pinto في قسنطينة بالجزائر سنة 1887: ألفية ابن مالك كذلك، متنا وترجمة وتعليقا.

6- وأصدر ديرنبورغ: شرح كتاب سيبويه، متنا وترجمة، مع مقدمة وحواش في زهاء ألف صفحة جزأين في باريس سنتي 1881 و 1889.

د-تأليف الدراسات اللغوية حول العربية الفصحى واللهجات العامية:

نجد المستعربين الفرنسيين، في مثل هذه الدراسات، يأخذون بتطبيق آخر ما توصل إليه علم اللغة من نظريات وحقائق في بحوثه على اللغة

العربية، ولذا نستطيع القول إن أكثر أنواع الدراسات العربية تطورا في فرنسا هي هذه الدراسات اللغوية. وسيرد في قائمة هذه الدراسات، هنا، ما يدل على مثل هذا التطبيق الذي يتناول العربية من خلال دراسة نحوها القديم والحديث، ودراسة لهجاتها الحديثة في مختلف أنحاء الوطن العربي، ووضع الخرائط أو الأطالس اللغوية، ودراسة اللغة العربية ضمن أسرة أخواتها من اللغات العربية القديمة التي أطلق عليها المستشرقون خطأ اسم اللغات (السامية)، ودراسة أصوات العربية وتطور الدلالة فيها، ودراسة البنية اللغوية العربية على وجه العموم. ومن أبرز هذه الدراسات:

1- نشر ديلابورت ,Delaporte في الجزائر سنة 1836 كتابا بعنوان: بحوث في اللغة العربية.

2- ونشر رينان كتابه المشهور: تاريخ اللغات «السامية»، في جزأين في سنتي 1853 و1862، ويتناول فيه اللغة العربية تناول مقارنة.

3- ونشر رينو Reinaud كتابا بعنوان: اللغة العربية في سورية، سنة 1857.

4- وألف مونك Munk دراسة بعنوان: تأثير اللغة العربية وآدابها في اللغة العبرية بعد التوراة، ونشرها بباريس سنة 1857.

5- ونشر بارتيليمي سنة 1905: رسالة في لغة حلب العامية.

6- ونشر هو نفسه أيضا سنة 1906: نبذة عن لهجة القدس.

7- وأصدر كانتينو، وهو من أبرز دارسي اللهجات العربية من المستعربين في النصف الأول من القرن العشرين، ويعد رائدا في (الجغرافية اللغوية العربية وأطالسها): لهجة عرب تدمر، في جزأين صدرا ضمن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، بيروت سنة 1934.

8- ونشر هو نفسه أيضا كتابا بعنوان: بعض لهجات بدو العرب في الشرق، ضمن منشورات كلية الآداب بالجزائر سنتي 1936- 1937.

9- ونشر كذلك كتابا بعنوان: اللهجات العربية في حوران (مع ملحق بخرائط جغرافية لغوية للمناطق المدروسة)، ضمن منشورات الجمعية اللغوية بباريس سنتي 1940 و 1946.

10- ونشر أيضا كتابا بعنوان: محاضرات في علم الصوت العربي في الجزائر سنة 1941.

11- ونشر هنري فليش ,H.Fleisch سنة 1947، كتابا بعنوان: مدخل إلى

دراسة اللغات السامية (كذا)، في باريس.

12- ونشر هو نفسه أيضا كتابا بعنوان العربية الفصحى (دراسة للبنية اللغوية) في بيروت سنة 1956. ثم أعاد طبعه سنة 1968.

13- ونشر كذلك، سنة 1961، كتابا بعنوان: بحث في الفيلولوجيا العربية.

14- ونشر مونتي V.Monteil، في باريس سنة 1960، كتابا بعنوان: العربية الحديثة (وهو رسالته لنيل درجة الدكتوراه).

وكان المستعربون الفرنسيون يلجئون أحيانا إلى ترجمة بعض الدراسات اللغوية المؤلفة بلغة أخرى غير العربية، وبين أيدينا، على سبيل المثال فقط، نموذجان هما:

أ- موجز علم اللغة السامي: من تأليف المستعرب الألماني المعروف كارل بروكلمان، إذ قام المستعربان الفرنسيان كوهين ومارسيه بترجمته إلى اللغة الفرنسية، ونشراه في باريس سنة 1910.

ب- العربية: من تأليف المستعرب الألماني المعروف أيضا يوهان فوك J.Fuck، وترجمه إلى الفرنسية ووضع مقدمة لترجمته المستعرب الفرنسي كانتينو، ونشره في باريس سنة 1955.

هـ- وضع الكتب التعليمية (للتمرينات، والمحادثات، والتطبيقات، والأمثلة):

ومثل هذه الكتب كثير جدا، وخاصة عند المستعربين الفرنسيين في الجزائر، وقد اهتم بمثل هذا النوع من التأليف أولئك الذين كانوا يتصدون لتعليم العربية الفصحى أو العامية على السواء، فيسهلون بكتبهم التعليمية هذه أمر تعليمهم على أنفسهم وعلى طلابهم معا. ولا مجال، هنا، لإحصاء عدد هذه الكتب لكثرتها، ولأن قيمتها الحقيقية ليست دائمة، وإنما هي آنية مخصوصة باستعمالها بأيدي الأساتذة الذين وضعوها وطلابهم الذين وضعت لهم، ولذا فإن مثل هذه الكتب سرعان ما يشيخ وتقل فائدته بعد مرور سنين قليلة على وضعه، ويحول ذلك دون وقوفنا عليها طويلا، نظرا لمحدودية تأثيرها عمليا في حركة الاستعراب العلمية المحضة. ونذكر من هذه الكتب على سبيل المثال:

1- النحو الابتدائي للعربية العامية أو الجزائرية: نشره سنة 1832جواني فرعون في الجزائر.

2- الدراسة العملية والنظرية للغة العربية: من تأليف برينييه.

3- تمارين العربية الفصحى: وضعه بلاشير بالتعاون مع المستعربة ماري تشيكالدي أدريان M.C. Adrien ثم أعيدت طباعته سنة 1952.

و-نشر المختارات النحوية العربية:

ومن أشهر هذا النوع من الكتب كتاب دوساسي المعروف بعنوانه الفرنسي:-An thologie grammaticale arabe. وهو مختارات مما كتبه النحويون العرب القدماء في مؤلفاتهم المشهورة. وقد أطلق دوساسي على هذا الكتاب نفسه عنوانا عربيا مسجوعا على عادة القرون المتأخرة هو: (جامع الشذور من منظوم ومنثور)، وقد نشرها في باريس سنة 1829.

2-الدراسات الأدبية:

وتأتي هذه الدراسات لتشكل ميدانا واسعا جدا من ميادين البحث عند المستعربين الفرنسيين، وذلك لأن الأدب عموما تعبير عن روح الأمة التي تنتجه وصورة لعقليتها ومزاجها، كما أنه تمثيل لبيئة الأمة الطبيعية ولنظمها الاجتماعية. وكان الأدب العربي موضع دراسة هؤلاء المستعربين من أجل التعرف على ذلك كله.

وكان اهتمام الغرب قد انصب على أدبنا العربي وآثاره منذ أن عرف أهله كيف يتذوقون آداب الشعوب الأخرى في العالم، ولاسيما الآداب الشرقية، وعلى رأسها الأدب العربي.

وكان اتصال المستعربين الفرنسيين بأدبنا العربي استجابة لتطور الذوق الأدبي في بلادهم، في أواخر القرن السابع عشر ومطالع القرن الثامن عشر، إذ كان الفرنسيون قد ضاقوا ذرعا بالآداب اليونانية والرومانية (اللاتينية) وملتها نفوسهم بعد أن استوعبوها، فطفقوا يبحثون عن عوالم جديدة لم يسمعوا بها من قبل في الآداب المشرقية. وقد أثبت نجاح (ألف ليلة وليلة) ورواجها في فرنسا خاصة والغرب الأوربي عامة-بعد أن ترجمها إلى الفرنسية أنطوان غالان كما مر بنا آنفا-وجود هذا الجو الأدبي المتقبل للجديد، كما أنه فتح الباب واسعا للبحث في آداب الأمم الشرقية، وفي طليعتها الأمة العربية التي كان الغرب قد استفاد منها العلوم العقلية والتجريبية والتأملية، عن طريق الترجمة التي كانت الجسر الذي انتقلت

عليه تلك العلوم آنذاك.

ولم يكتف المستعربون الفرنسيون بترجمة الآثار الأدبية العربية إلى الفرنسية، ليرفدوا ثقافتهم في وافد غزيرة من الإلهام والمتعة، وإنما تجاوزوا ذلك إلى استلهام الروح الشرقية عموما بأجوائها العربية والإسلامية على حد سواء، فنشأت عند الفرنسيين طبقة الشعر والفنانين المتأثرين بهذه الروح، فكونوا بظهورهم نزعا جديدا من الاستشراق يمكن أن نطلق عليه اسم: (الاستشراق الأدبي) أو (الاستشراق الفني) على حسب نوع الاستلهام ودرجته. وظهرت النزعة الاستشراقية في الأدب الفرنسي والفنون التشكيلية منذ بداية القرن التاسع عشر تقريبا[9].

كانت الرحلات قد أخذت تزداد، في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، إلى البلدان العربية. وكان الرحالة يقصون، عند عودتهم إلى أوطانهم، أحاديث رحلاتهم وانطباعاتهم ومشاهداتهم وما جمعوا من معلومات حول بعض جوانب الحياة في الشرق، بأسلوب ممتع شيق فيه شيء من المبالغة والزخرفة والتلوين الساحر. وكانوا يخرجون ذلك كله لأبناء لغتهم ووطنهم في كتب يضمنونها ما جمعوا في جعبهم من حكايات جذابة وقصص طريفة من الشرق الذي كان يتمثل في عقول الغربيين بصورة سحرية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع.

وقام الباحثون بتأليف شيء من الكتب عن الشرق وحضارته، وأخذ الفرنسيون يقرؤون ما يكتبه هؤلاء الباحثون عن الشرق عامة والعرب خاصة، ولعل أقدم النصوص الفرنسية الشاملة في هذا المجال كتاب (المكتبة الشرقية) La Biotheque Oriental التي صنفها ديربلو d' Herblot وأراد لها أن تكون أشبه بموسوعة تتناول علوم الشرقيين وتاريخهم وآدابهم وأديانهم ونظمهم وعاداتهم وأساطيرهم. وهذا الأثر هو الذي مهد الجو لتعرف الفرنسيين على الآداب العربية. وهو يتكون من عدة مجلدات. وقد رتبت مواده على حروف المعجم، وظل مرجعا يعتمد عليه إلى اليوم الذي قامت فيه جماعة من كبار المستعربين والمستشرقين في العالم بتأليف مواد (الموسوعة الإسلامية) L' Encyclopedie de L'lslam, بإشراف هوتسما Houtsma, وتلبية لتوصية اتخذها المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين الذي تم عمده في جنيف بسويسرا سنة 1894[10].

وكانت مكتبة ديربلو الشرقية هي التي أوحت بإنشاء هذه الموسوعة، واتفق على أن يكون مقرها بليدن في (هولندا)، وأن تصدر بثلاث لغات هي: الفرنسية، والألمانية، والإنكليزية. وبدأت طبعتها الأولى تصدر سنة 1913. وكانت موادها مرتبة على حروف المعجم.

وكان غالان قد شارك ديربلو في القسم الأخير من هذا العمل، ثم أشرف-بعد وفاته سنة 1695- على إتمامه وإصداره كله وحده. وقد جمع ديربلو ومن بعده غالان، في هذا العمل، كل المواد والمعلومات التي كانت معروفة عن الشرق حتى زمانهما. وقد استعانا بكثير من الاقتباسات من المؤلفات الشرقية المخطوطة، بعدما ترجماها إلى الفرنسية[11].

ويمكننا، في الحقيقة، أن نعد (المكتبة الشرقية) بداية التوجه الحقيقي نحو الشرق في ميدان الدراسات العلمية، ونضيف إلى ذلك القول إنها جاءت ثمرة لجهود العاملين في حقل الاستشراق الفرنسي في العصور السابقة كلها وتتويجا لها في الآن نفسه.

وربما كان بوسعنا أيضا أن نتخذ من هذه المكتبة نفسها بداية لحركة الاستعراب الفرنسي تحديدا، تلك الحركة التي عنيت باطلاع الفرنسيين على كل الشؤون العربية من لغة وآداب وتاريخ وعقائد وجغرافية، إلى غيرها من الميادين، عن طريق اللغة الفرنسية نفسها، أي بطريق غير مباشر فيما يخص جمهور المثقفين والمطلعين الفرنسيين أنفسهم، في حين أن المستعربين كانوا هم طليعة المواجهة للغة العربية والاحتكاك المباشر بها والاطلاع على ما فيها من غير وسيط، نظرا لكونهم الاختصاصيين باقتحام هذا الميدان روادا فيه لأبناء وطنهم. وكانت الفرنسية لغة الترجمات الجديدة بعد ما كانت اللغة اللاتينية هي لغتها من قبل. ويمكننا، على هذا الأساس أن نقسم تاريخ هذه الحركة أربع مراحل، هي:

أ- مرحلة البدايات:

وهي تمتد من وفاة ديربلو، سنة1695، إلى السنة التي تأسست فيها، بباريس، المدرسة الخاصة بتعليم اللغات الشرقية الحية، أي سنة1795. ويمكننا أن نصف هذه المرحلة بأنها كانت «مرحلة تلمس الطريق إلى الدراسات العربية، وفيها تكونت الاستعدادات للاتجاه إلى هذه الدراسات في نفوس بعض المثقفين الفرنسيين نتيجة للآثار التي تركتها في تلك

النفوس ترجمة قصص (ألف ليلة وليلة) في أوائل هذه المرحلة».

ب- مرحلة التكون:

وهي تمتد من السنة التي أسست فيها المدرسة المذكورة آنفا إلى سنة 1895 التي تقرر فيها إنشاء الموسوعة الإسلامية E.I. باقتراح من المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين، المنعقد في جنيف تلك السنة. ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها تتميز بـ «ترسيخ الدراسات العربية في فرنسا وبثها في عدد من دول أوربا على أساس من المنهجية والتنظيم». وتأكدت في هذه المرحلة أيضا «استمرارية الدراسات العربية في فرنسا». والجدير بالذكر هنا أن هذه الموسوعة لم تكن جهدا فرنسيا خالصا، وإنما كان الفرنسيون من جملة المسهمين في إنشائها وممن عملوا في إدارتها ونشرها في كل مراحلها.

ج- مرحلة النضج:

وهي تمتد من سنة1895 إلى السنة التي أنجز فيها نشر الموسوعة الإسلامية بثلاث لغات أوربية هي: الفرنسية والألمانية والإنكليزية، في أربعة مجلدات ضخمة، وهي سنة 1942. ونشهد في هذه المرحلة أعمالا هامة وقيمة ينتجها المستعربون في فرنسا خاصة، وغيرها من البلدان الأوربية عامة. ونلحظ في هذه المرحلة وسابقتها سعي فرنسا الحثيث إلى استعمار أجزاء من الوطن العربي أو بسط هيمنتها عليها: فكانت حملة نابليون على مصر سنة 1798، واحتلال الجزائر سنة 1830، وتونس سنة 1881، والمغرب سنة 1914، ثم سورية سنة1920. وكان لهذا السعي كبير الأثر في تحريض الدراسات العربية في فرنسا إلى درجة عالية لما كانت تقدمه للمستعمرين من معلومات تسهل عليهم السيطرة والإدارة والتوجيه والتأثير في هذا البلدان العربية. وكان للجزائر في المرحلة الثانية الآنف ذكرها دور هائل في هذا الاتجاه، إذ نشأت فيها مدرسة من المستعربين عرفت باسم (المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي)، وأقيمت فيها المعاهد الخاصة بالاستعراب، وكانت المكتبات الجزائرية غاصة بالمخطوطات العربية المتنوعة التي استفاد منها عدد كبير من المستعربين فيها وفي فرنسا على حد سواء.

د- المرحلة المعاصرة:

وهي تبدأ بسنة 1942 وأواخر الحرب العالمية الثانية إلى يومنا هذا.

ونجد فيها آثارا رائعة للمستعربين الفرنسيين تدل على منهجية متقدمة وتعمق وإلمام، كما تدل كذلك على نوع من أنواع التخصص في الدراسات العربية، إذ كان المستعربون الأوائل يأخذون من كل علم أو فرع بطرف، فأصبح المعاصرون منهم يقصرون اهتمامهم وجهودهم على طرف واحد من هذه الدراسات، فنجد بعضهم يتخصص بالأدب الجغرافي العربي، وبعضهم بالأدب التاريخي العربي، وبعضهم بأديب معين كالجاحظ أو ابن قتيبة، أو بشاعر معين كالمتنبي، وبعضهم بعلم الاجتماع الإسلامي، وبعضهم بالتاريخ العربي، أو باللغة العربية، أو بالأدب في فترة من الفترات، أو بفرع من فروع الدراسات الإسلامية كالقرآن أو الحديث أو التشريع أو التصوف، الخ.

وسنلم، فيما يلي، بأبرز ما أنجزه المستعربون الفرنسيون في ميدان الدراسات العامة أو الخاصة من أعمال. وسنقتصر على ذكر ما نشر منها بشكل كتب، أما ما نشر منها بشكل مقالات فإننا سنهمله إلا ما كان منه ذا أهمية خاصة في سياق تلك الدراسات[12]:

أ-نشر الدواوين والأشعار وترجمتها:

1- ترجم دوساسي قصيدة (البردة) للبوصيري سنة 1806.

2- ونشر أيضا (معلقة لبيد) مع ترجمتها ملحقة بكتاب (كليلة ودمنة).

3- وله (منتخبات من شعر ابن الفارض)، وقد نشرها مع ترجمتها سنة 1822 بالتعاون مع دولاغرانج G. de La Grange.

4- ونشر كوسان دو برسفال الأب (شرح معلقة إمرىء القيس) للزوزني سنة 1819.

5- ونشر رينو، سنة 1837، بالتعاون مع دوسلان، (ديوان إمرىء القيس)، متنا وترجمة، بشروح ومقدمة عن حياة الشاعر نقلا عن كتاب (الأغاني).

6- ونشر دوسلان، في باريس سنة 1838، مجموعة (أشعار الجاهليين).

7- وترجم برون معظم (شعر المتلمس وطرفة)، ونشره في المجلة الآسيوية سنة 1841 مع دراسات قصيرة عن الشاعرين.

8- ونشر الأب برجس Barges(ديوان ابن الفارض) سنة1855.

9- ونشر بوشيه Boucher (ديوان عروة بن الورد) في باريس سنة 1867.

10- ونشر أيضا (ديوان الفرزدق) (ثلاثمائة وستين قصيدة تتألف من

ثلاثة آلاف بيت)، متنا وترجمة، عن المخطوطة الوحيدة في مكتبة آيا صوفيا باستنبول، ما بين سنتي 1870 و1875.

11- ونشر ديرزنبورغ (ديوان النابغة الذبياني) بشرح الشنتمري، مع ترجمة فرنسية، وأضاف إليه قصائد غير منشورة عزيت إليه في مجموعة شيفر، في باريس سنة 1869.

12- ونشر غويارGuyard (ديوان بهاء الدين زهير المصري) سنة 1883.

13- ونشر باسيه قصيدة (البردة) للبوصيري مع سيرة الشاعر ونقد وشرح للقصيدة سنة 1894.

14- ونشر أيضا قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير.

15- ونشر كذلك (ديوان أوس بن حجر) سنة1912.

16- ونشر إضافة إلى ذلك (ديوان عروة بن الورد) زعيم الصعاليك سنة 1926.

17- وترجم كارادوفو Carra de Vaux قصيدة ابن سينا في النفس (هبطت إليك من المحل الأرفع) سنة 1899.

18- وترجم هو نفسه أيضا (تائية ابن الفارض) التي تتألف من سبعمائة وستة وأربعين بيتا.

19- ونشر سلغسون Seligson (ديوان طرفة بن العبد) بشرح الشنتمري، متنا وترجمة، مع تفسير وحواش، في باريس سنة 1901.

20- وترجم رو A. Roux (لامية العجم) للطغرائي سنة 1903.

21- وترجم أيضا (لامية ابن الوردي) وقصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير، سنة 1904.

22- ونشر كذلك (معلقة زهير) سنة1905.

23- ونشر كليمان هوار (ديوان سلامة بن جندل) في: المجلة الآسيوية سنة 1910.

24- ونشر أيضا (قصائد عفيف الدين التلمساني وابنه الشاب الظريف).

25- وقام بيريس H. Peres بنشر(ديوان كثير عزة) في جزأين، مع شرح وتعليق، ضمن: منشورات كلية الآداب بالجزائر سنتي 1927 و 1930.

26- ونشر ماسينيون (ديوان الحلاج) في: المجلة الآسيوية سنة 1931. ثم قام بترجمته إلى الفرنسية ونشر طبعته الثانية سنة 1955.

ب- نشر الكتب الأدبية العامة وترجمتها:

ونركز، هنا على كتب الأدب العربي القديم، مع ملاحظة أن ما يترجم من الأدب العربي الحديث في ميادين القصة والمسرحية والشعر وغيرها من الأنواع الأدبية يتزايد يوما بعد يوم لعدد من آثار كبار كتابنا كطه حسين وتوفيق الحكيم وعمود تيمور ونجيب محفوظ وغيرهم. ولعل الحديث عن حركة الترجمة من العربية إلى الفرنسية في العصر الحديث يصلح أن يكون جزءا من بحث آخر مستقل يتناول بالدرس الأدب العربي الحديث عند المستعربين الفرنسيين. وفيما يلي سرد لأبرز ما نشره أو ترجمه المستعربون الفرنسيون من أدبنا القديم:

1- ترجم غالان قصص (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية لأول مرة بين سنتي 1704 و 1708.

2- وترجم أيضا (أمثال لقمان).

3- وأعاد كوسان دو برسفال الأب ترجمة جزء من (ألف ليلة وليلة) سنة 1806.

4- وقام أيضا بترجمة (أمثال لقمان) سنة 1818.

5- وترجم كذلك (مقامات الحريري) سنة 1819.

6- ونقل لانغليس إلى الفرنسية جزءا من (ألف ليلة وليلة) أيضا سنة 1813.

7- وترجم أيضا قصة (السندباد البحري) سنة 1814.

8- ونشر دوساسي متن (كليلة ودمنة) مع مقدمة في أصل الكتاب ومترجميه ما بين سنتي 1816 و 1822.

9- ونشر أيضا (مقامات الحريري) بشرح مختار من جملة الشروح التي تقدمت، مع مقدمة عربية وترجمة لحياة الحريري نقلا عن كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان.

10- وترجم مارسيل (أمثال لقمان) أيضا في مصر سنة 1799 أبان حملة نابليون.

11- وترجم مونك (المقامتين الأولى والثالثة من مقامات الحريري) في سنة 1834.

12- ونشر أيضا جزءا من (قصة عنترة) سنة 1841.

13- وترجم برون (قصة يوسف) سنة 1847.

14- وترجم كذلك (قصة المعراج) سنة 1854.

15- وترجم (رواية سيف التيجان) سنة 1862.

16- وترجم دوتاسي de Tassy (الأمثال الأدبية) لعز الدين المقدسي بعنوان: (الصوادح والأزهار) سنة 1821.

17- وترجم أيضا إحدى (مقامات الحريري) سنة 1823.

18- وترجم شربونو (المقامة الثلاثين من مقامات الحريري) سنة 1846.

19- ونشر أيضا (أمثال لقمان) متنا وترجمة، بمقدمة ومعجم للمفردات، في باريس سنة 1847.

20- ونشر كذلك من (ألف ليلة وليلة) قصص: (شمس الدين ونور الدين) في باريس سنة 1852. و(دليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة) في باريس سنة 1872.

21- ونشرت المستعربة غروف F. Groff من (ألف ليلة وليلة) حكاية (زين الأصنام) في باريس سنة 1889.

22- وترجم دفيك Devic (مختصر سيرة عنترة العامية) ونشرها بين سنتي 1846و 1870.

23- ونشر أيضا ترجمة لـ(مقامات الحريري) سنة 1870.

24- وأسهم دوغا مع آخرين في نشر الجزأين الأول والثاني من كتاب (نفح الطيب) للمقرى، بمقدمة فرنسية عن حياة المؤلف وقيمة كتابه، في ليون بين سنتي 1858و1861.

25- ونشر ديرزنبورغ كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ، متنا وترجمة، في سنتي 1889 و 1892.

26- ونشر أيضا كتاب (كليلة ودمنة) في باريس سنة 1866.

27- ونشر كذلك النص الأصلي لحكاية (علاء الدين والقنديل السحري)، متنا وترجمة، مع حواش وتفاسير، سنة 1888.

28- ونشر هوداس (مختارات من ألف ليلة وليلة) في الجزائر سنة 1864.

29- ونشر باسيه (ألف قصة وقصة)، وهي أخبار وأساطير عربية، في باريس سنة 1924.

30- ونشر كازانوفا (رحلات السندباد البحري) سنة 1922.

31- وترجم ماردروس (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية في ستة عشر مجلدا.

32- ونشر ديمومبين (مقدمة كتاب الشعر والشعراء) لابن قتيبة، متنا وترجمة، مع تعليقات عليها، في باريس، سنة 1947.

33- ووضع بيريس كتاب (الأدب العربي والإسلام بالنصوص)، وقد نشرت طبعته السادسة في الجزائر سنة1955.

34- ونشر بيلا (رسالة التربيع والتدوير) للجاحظ مع مقدمة بالفرنسية ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1956.

35- وكان بيلا قد نشر من قبل ترجمة لكتاب (البخلاء) للجاحظ، في باريس سنة 1951.

36- ونشر بيلا كذلك ترجمة لكتاب (التاج في أخلاق الملوك) للجاحظ أيضا.

37- وترجم بلاشير بالتعاون مع ماسنو P. Masnou عددا من (مقامات الهمذاني) في باريس سنة 1957.

38- وترجم را Rat كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) لمصنفه الأبشيهي، ونشره في باريس بين سنتي 1899 و 1902.

39- وترجم أندريه ميكيل فصولا من كتاب (كليلة ودمنة) في باريس سنة 1957.

40- ونشر مارك برجيه M. Berge ترجمة لكتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي، في دمشق سنة 1969.

ونلحظ فيما سلف أن المستعربين الفرنسيين كانوا يركزون على آثار معينة من تراثنا الأدبي تتعلق بالأنواع التالية: القصة، والمثل، والمقامة، والحكاية، والطرفة، والسير الشعبية، والأدب العام. وتتصف الآثار المختارة للنشر والترجمة بثلاث سمات أساسية هي: الشعبية، والإمتاع، والخلود على مر الزمان.

جـ- نشر المختارات الأدبية وترجمتها:

لما كان من الصعب نقل النص الأدبي من لغة إلى أخرى من غير أن يفقد روحه وخصائصه الأسلوبية والجمالية نتيجة للحذف والتعديل والتحوير

وغير ذلك من متطلبات الترجمة الأدبية، وخاصة الترجمة الشعرية، فقد وجم المستعربون الفرنسيون أمام التوسع في نقل الكتب الأدبية العربية، وكان تحفظهم أمام الكتب النثرية أقل بكثير منه أمام الشعر ودواوينه، واستبدلوا بذلك جمع المختارات الملائمة للترجمة لشهرتها عند العرب أو لأنها تمثل جانبا من جوانب هذا الأدب يمكن أن يعطي القارئ الفرنسي المستعرب أو العادي صورة للأدب العربي قريبة من الواقع قدر الإمكان.

وربما شارك بعض لم الكتاب العرب ممن يعملون مع المستعربين الفرنسيين أو يقيمون في فرنسا، في صنع مثل هذه المختارات لتعريف الجمهور الفرنسي المثقف بآثار اللغة العربية، وهذا عرض لأهم ما نشروه منذ مطلع القرن الماضي إلى اليوم:

1- نشر دو ساسي مختارات أدبية شهيرة أطلق عليها عنوانا مسجوعا هو: (الأنيس المفيد للطالب المستفيد). وقد حوت هذه المجموعة مثلا (لامية العرب) للشنفري، وبعض أشعار (المعري)، وبعض (مقامات بديع الزمان الهمذاني)، إلى جانب نصوص مختلفة من كتب الأدب والتاريخ والرحلات وغيرها. وقد وقعت مختاراته هذه في ثلاثة مجلدات متنا وترجمة وتعليقا، ثم طبعها بين سنتي 1806 و 1826.

2- ونشر أيضا في سنة 1827 مختارات شعرية أسماها (الدر المختار)، متنا وترجمة وتعليقا وتحتوي فيما تحتوي على (معلقة الأعشى) و(معلقة النابغة).

3- ونشر همبير Humbert في سنة 1819 منتخبات عربية أو أشعارا عربية غير منشورة.

4- ونشر دو لاغرانج في سنة 1828 منتخبات من الشعر العربي أسماها. (نخب الأزهار في منتخب الأشعار).

5- وله أيضا مختارات أدبية أخرى أسماها: (أزكى الرياحين من أسنى الدواوين). ومن جملة محتوياته ترجمة لعدد من مقامات الهمذاني، وقد نشرها سنة 1828.

6- ونشر برينييه منتخبات أدبية باللغة العربية العامية بين سنتي 1846 و 1867.

7- ونشر بيلان Belin منتخبات أدبية باللغة العربية العامية أيضا.

8- ونشر دو تاسي منتخبات أدبية عربية، متنا وترجمة، بعنوان: (مجموع الرموز الشرقية).

9- ونشر دو مارتينو F. de Martino بالتعاون مع عبد الخالق سروت: مختارات من الغزل العربي. وكانت طبعتها الثالثة سنة 1902.

10- ونشر سالمون G. Salmon منتخبات من رسائل المعري وأشعاره، متنا وترجمة، مع مقدمة، في باريس سنة 1904.

11- ونشر ماشويل كتابا بعنوان: (مؤلفون عرب)، في باريس سنة 1924، وله عنوان آخر هو: (صفحات مختارة من كبار الكتاب العرب).

12- ونشر سعد الدين بن شنب، وهو من العرب الجزائريين العاملين مع المستعربين الفرنسيين في حقل الدراسات ومقيم في فرنسا، ترجمات من الشعر العربي الحديث، في وهران سنة 1945.

13- ونشر درمنغم Dermenghem مختارات عربية بعنوان. (أجمل النصوص العربية)، في باريس سنة 1951.

14- ونشر رنيه خوام، وهو عربي مقيم في باريس، نصوصا من الشعر العربي، في باريس سنة 1960.

15- ونشر مونتي، الذي أعلن إسلامه حديثا، مختارات من الأدب العربي المعاصر بالعربية والفرنسية، في بيروت سنة 1961.

16- ونشر مكاريوس Makarius، بالتعاون مع آخرين، مختارات من الأدب العربي المعاصر في الرواية والقصة، في باريس سنة 1964.

د- تأليف الدراسات الأدبية الخالصة:

ويتناول مثل هذه الدراسات في العادة حياة كاتب من الكتاب المشهورين وآثاره، أو حياة شاعر من الشعراء وأشعاره، وربما تطرق إلى تناول فن من فنون الأدب أو أسلوب من أساليبه أو مدرسة من مدارسه أو تيارا من تياراته، وربما درس عصرا من العصور الأدبية أو حاول دراسة تاريخ الأدب العربي عبر العصور. وسنرى نموذجا من كل نوع من أنواع هذه الدراسات أو أكثر، وهذه الدراسات على وجه العموم نوعان: الأول نشر بشكل كتب. والثاني نشر بشكل مقالات في نشرة أو مجلة أو دورية أو مجموعة من المجموعات الاستعرابية أو الاستشراقية. على أننا سنقصر جهودنا، هنا، على ذكر الشكل الأول من النشر، وأما الشكل الثاني فسنعرض لما تدعو

الضرورة القصوى إلى ذكره نظرا لأهميته الخاصة في سياق الدراسات الأدبية عامة:

1- الكتب:

1- كتب دوغا دراسة عن الشاعر (هدبة بن الخشرم) نشرها سنة1855.

2- وكتب باسيه دراسة عن (الشعر العربي قبل الإسلام) نشرها سنة 1880.

3- وكتب كليمان هوار تاريخا للأدب العربي من أصوله حتى زمانه بعنوان: (الأدب العربي)، نشر طبعته الأولى سنة 1902، ثم طبع بعد ذلك مرارا، ظل معولا عليه في بابه عند المستعربين الفرنسيين إلى أن زحزحه من المقدمة كتاب المستعرب الفرنسي المشهور ريجيس بلاشير الذي سيرد ذكره لاحقا.

4- وله دراسة عن (وهب بن منبه) نشرها سنة 1904.

5- وله كذلك دراسة في وجه الشبه بين جملة من معاني القرآن الكريم وأشعار أمية بن أبي الصلت الثقفي، نشرها سنة 1904. وكانت غايته من هذه الدراسة أن يثبت-على حد زعمه-أن شعر أمية كان أحد المصادر التي اعتمد عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) في وضع القرآن.. والعياذ بالله!

6- وكتب دوما C. Dumas دراسة بعنوان. (أبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري) نشرها في الجزائر سنة 1917.

7- وكتب أوغست كور دراسة حول: (ابن زيدون: حياته وأشعاره)، نال بها درجة الدكتوراه، ونشرها في قسنطينة سنة 1920.

8- وكتب ريجيس بلاشير دراسة بعنوان: (شاعر من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي: أبو الطيب المتنبي)، نال بها درجة الدكتوراه من جامعة السوربون ونشرها بباريس سنة1935[13].

9- وصمم ريجيس بلاشير بحثا قيما وطموحا بعنوان: (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر)، غير أنه نشر ثلاثة مجلدات منه فقط بين سنتي 1952 و 1966، وحالت وفاته سنة 1973 دون إتمامه، ولا تغطي هذه المجلدات سوى الفترة الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي[14].

10- وألف هنري بيريس، وهو من المدرسة الجزائرية في الاستعراب

الفرنسي، دراسة عن: (الشعر الأندلسي بالعربية الفصحى في القرن الحادي عشر الميلادي وخصائصة العامة)، نال بها درجة الدكتوراه، ونشرها في باريس سنة 1937.

11- وكتب شارل بيلا دراسة عن: (الوسط البصري وتكوين الجاحظ)، نال بها درجة الدكتوراه، ونشرها في باريس سنة 1953[15].

12- وكتب بيلا أيضا بحثا في تاريخ الأدب العربي باختصار بعنوان. (اللغة العربية وآدابها)، نشره سنة 1952[16].

13- وكتب جيرار لوكونت بحثا عن: (ابن قتيبة: الإنسان، إنتاجه، أفكاره)، نال به درجة الدكتوراه ونشره ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1965.

14- وألف غاستون فييت بحثا في تاريخ الأدب العربي بمعناه الواسع الشامل لمختلف فروع المعرفة المدونة في العربية بعنوان: (مدخل إلى الأدب العربي)، ونشره في باريس سنة 1966.

15- وكتب جان فاديه J. Vadet دراسة عن. (الغزل عند العرب حتى القرن الخامس الهجري)، ونال بها درجة الدكتوراه، ونشرها في باريس سنة1968[17].

16- ونشر أندريه ميكيل كتيبا في تاريخ الأدب العربي من أصوله إلى اليوم باختصار شديد بعنوان. (الأدب العربي)، ضمن سلسلة (كوسيج ؟) برقم 1355، باريس 1969[18].

17- وكتب مارك برجيه دراسة عن: (أبي حيان التوحيدي)، نال بها درجة الدكتوراه سنة 1974[19].

18- وكتب نيكيتا ايليسييف N. Elisseeff دراسة قيمة عن قصص ألف ليلة وليلة بعنوان: (مباحث في ألف ليلة وليلة وموضوعاتها)، ونشرها ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1949.

19- وسجل شارل فيال Ch. Vial بحثا للدكتوراه في: (الاتجاهات الاجتماعية في القصة العربية في الفترة المعاصرة) سنة 1957.

20- وسجل فرانسوا فيريه F. Vire بحثا في: (الطرديات في الأدب العربي) سنة 1959 لنيل الدكتوراه.

21- وسجلت المستعربة راشيل آرييه R. Arie أطروحة بعنوان. (آثار لسان

الدين بن الخطيب) سنة 1962 لنيل الدكتوراه.

وهنالك عدد من الدراسات الأدبية الخالصة والبحوث.. تقدم باستمرار لنيل الدرجات العلمية في الجامعات، إضافة إلى تلك الدراسات والبحوث التي يكتبها المستعربون عامة ضمن نشاطاتهم العلمية العادية. ومع تقدم خطوات الاستعراب الفرنسي وازدهاره تتنوع الدراسات الأدبية لتشمل كل فنون الكتابة والقول في مختلف العصور الأدبية قديمها وحديثها.

2- المقالات:

لا حصر للمقالات التي كتبت في موضوعات أدبية، ولا يمكننا بالتالي أن نحيط بها هنا، لأن حصرها خارج على نطاق بحثنا هذا، غير أن من أراد الاطلاع على طرف منها قبل سنة 1906 بإمكانه أن يعود إلى أهم الدوريات الاستشراقية أو الاستعرابية في فرنسا. فإذا أراد الاطلاع على كل المقالات المنشورة في مختلف الدوريات والمجلات باللغة الفرنسية منذ سنة 1906، فيمكنه الرجوع إلى إحصائية شاملة لها جميعا تقريبا في الفهرس القيم جدا الذي قام بوضعه وتصنيفه المستعرب الإنكليزي الخطير بيرسون J.D. Pearson بعنوان: (Index Islamicus). وقد بذل فيه جهودا جبارة تنؤ تحتها اللجان والمؤسسات، وكانت غايته النبيلة توفير الجهود والأوقات التي تبذل هدرا في البحث عن مقالة معينة في موضوع معين ولمؤلف معين منشورة في مجلة أو دورية ما في عدد ما من زمن ما وبلغة ما من لغات المستشرقين أو المستعربين في العالم أجمع. ولهذا الفهرس ميزة الترتيب والتصنيف المنهجيين لكل المعلومات المتعلقة بالمقالات. فهو يبدأ بترتيب فروع الاستشراق الإسلامي والاستعراب بحسب الاختصاصات: الأدب، اللغة، التاريخ، الجغرافيا، الخ. ثم يرتب المقالات في كل اختصاص منها بحسب توالي العصور والموضوعات ويعطي معلومات وافية عن كل مقالة على حدة مثل. اسم الكاتب وعنوان المقالة، واسم المجلة التي نشرت المقالة فيها، والعدد والسنة، وأرقام الصفحات التي تمتد عليها المقالة. ويعطينا المصنف في نهاية عمله فهارس وافية ودقيقة لأسماء الكتاب من جهة، وعناوين مقالاتهم من جهة ثانية. ومما ييسر الرجوع إلى هذه المقالة أو تلك في أي موضوع أن المصنف أعطى المقالات أرقاما تصاعدية متسلسلة من أول مقالة إلى آخر مقالة في هذا العمل، وهذا ييسر بطبيعة الحال القيام

بإحصائيات دقيقة لآثار كل مستعرب في ميدان المقالات، بوصفها أحد الأنشطة العلمية التي لابد منها عند كل باحث مبدع. وقد صدر المجلد الأول من هذا (الفهرس الإسلامي) الإحصائي القيم سنة 1955، وقد كان من منهج عمل المصنف أن يتابع نشر مجلدات هذا العمل وملاحقه الضرورية تباعا إلى أن يغطي آخر مقالات الباحثين من المستشرقين والمستعربين وأحدثها على وجه الإطلاق[20]، مع استدراك ما يمكن أن يكون قد فاته من المقالات في الفترات السابقة.

وفيما يلي نماذج من هذه المقالات الأدبية الخالصة:

1- شعراء العرب وأدباؤهم: كتبها شربونو في (المجلة الآسيوية) الفرنسية.

2- أصول النثر الأدبي العربي: كتبها وليم مارسيه في (المجلة الأفريقية) سنة 1927[21].

3- اقتباس بول وفرجيني في اللغة العربية: كتبها سوسي Saussey في (نشرة الدراسات العربية) بالجزائر سنة 1931.

4- إبراهيم المازني وقصة إبراهيم: لسوسي أيضا في النشرة نفسها سنة 1932.

5- أحمد شوقي: كتبها هنري بيريس في (حوليات معهد الدراسات الشرقية)، 2, 1936.

6- القصة والرواية والأقصوصة في الأدب العربي الحديث. لبيريس أيضا في الحوليات نفسها سنة 1937.

7- مقدمات المؤلفين العرب لقصصهم وأقاصيصهم: لبيريس كذلك في الحوليات نفسها سنة 1939- 1941.

8- حديث عيسى بن هشام للمويلحي: لبيريس كذلك في (مجلة الدراسات الشرقية)، 10, 1944.

9- أدب العامة والنهضة الأدبية الحديثة: كتبها لوسرف Lecerf في (نشرة الدراسات الشرقية) سنة 1933.

10- الأدب العربي الحديث وتعليم اللغة العربية في سورية: كتبها لوسرف أيضا في (المجلة الأفريقية) سنة 1932.

11- الاتجاه الصوفي عند جبران خليل جبران: كتبها لوسرف في (مجلة الدراسات الإسلامية) 1953- 1945.

12- الأدب العربي المعاصر والاتجاهات الاجتماعية: له أيضا.

13- أبو العلاء المعري وفلسفته: كتبها هنري لاوست في (نشرة الدراسات الشرقية)، 10, 1943- 1944.

14- الوزير الشاعر ابن زمرك: كتبها بلاشير في (حوليات معهد الدراسات الشرقية) 2, 1936.

15- سيرة الشاعر المترسل ابن دراج القسطلي الأندلسي. كتبها بلاشير أيضا في (مجلة هسبيرس Hesperis)، 7, 1923.

16- ابن القارح ورسالة الغفران للمعري: له أيضا في (مجلة الدراسات الإسلامية) سنة 1941.

17- الجاحظ في بغداد وسامراء: كتبها شارل بيلا في (نشرة الدراسات الشرقية)، 17, 1952.

وبهذا نكون قد استعرضنا أبرز جهود المستعربين الفرنسيين في مجال الدراسات الأدبية العربية، ونرى من خلال ذلك أنهم قد نقلوا جزءا من تراثنا الأدبي إلى الفرنسية، مسهمين بذلك في تعريف خاصة المثقفين الفرنسيين وعامتهم والمتخصصين منهم بالعربية، بجملة من آثارنا الأدبية الجميلة. وقد أفادونا نحن العرب أيضا بما نشروا من آثارنا الأدبية محققة تحقيقا علميا جادا، إذ أحيوها بعد طول سبات، وعرضوها للنور، وقد تتبعنا خطاهم في هذا الطريق كما اتبعنا طريقتهم في تحقيق التراث المخطوط ونشره، بعد أن كانت كتبنا تصدر، بعد دخول المطبعة إلى بلادنا، ساذجة غفلا من أي لمسة تحقيقية أو توثيقية تذكر، كي تكون في خدمة هذا الكتاب أو ذاك وخدمة مادته. فأدى ذلك إلى ظهور طبعات محققة تحقيقا علميا على أيدي عدد من علماء اللغة والأدب المطلعين على جهود المستعربين الغربيين عامة والفرنسيين خاصة في هذا المجال المهم. وهكذا لم تعد الطريقة البولاقية لنشر الكتب تلقى رواجا، وهي الطريقة التي تقوم على نقل المخطوط كما هو من الحرف اليدوي إلى الحرف الطباعي، فنشاهد السطور في الصفحة الواحدة مسبوكة سبكا يتلو بعضها بعضا من غير فراغ يذكر أو مساحة بيضاء ترتاح العين لها أثناء القراءة، ومن غير وجود فاصلة ولا نقطة ولا أي إشارة من إشارات الترقيم المصطلح عليها في هذا العصر، ومن غير هوامش تشرح الألفاظ وتقابل بين النسخ المخطوطة

للكتاب لمعرفة أصح وجه من وجوه قراءة النص نثرا كان أم شعرا، بل أن هوامش الكتاب العليا واليمنى أو اليسرى والسفلي كانت تشغل بطباعة كتاب آخر على طريقة: نشر الكتاب الفلاني على هامش الكتاب الفلاني. كما أن الكتب المنشورة بهذه الطريقة غالبا ما تفتقر إلى التقديم. إضافة إلى إهمالها أي نوع من أنواع الفهارس الخاصة، وخلوها من أي نوع من أنواع التخريج للنصوص الهامة (من القرآن، والحديث، والأشعار، والأمثال، الخ). زد على كل ذلك إهمال الشكل أو الضبط بأي صورة كانت لحروف الكلمات أو الضروري منها على الأقل لرفع ما فيه من اللبس. وهذه كلها أدواء ونواقص لا يمكن علم التحقيق الحديث أن يقبل بها أو يساوم فيها.

وهناك فرق هائل بين قراءة مخطوطة تطبع كما هي وأخرى تطبع محققة، يمكن أن نمثل له بالفرق بين سائح يزور بلدا من البلدان على هواه من غير تخطيط، وسائح آخر يحمل دليلا سياحيا قد سجلت فيه المناطق المختلفة والمدن والقرى وما فيها من آثار ومنتجعات ومرافق سياحية، مع شرح واضح ومفصل عن كل منها، إلى جانب حمله خرائط تفصيلية لهذا البلد عليها الأسماء والمسافات والأزمنة والتوقيتات ولوائح الأسعار والمواصلات، مع كتاب يتحدث عن أخلاق أهل البلد وعقائدهم وعاداتهم وشيء من آدابهم، الخ.

وقد رأينا كذلك إسهام المستعربين الفرنسيين في تسليط الأضواء على تراثنا الأدبي بما قاموا به من دراسات على شكل كتب أو مقالات، وهي حافلة بالتحليلات والآراء والأفكار الجديرة بالتوضيح والإفهام من نحو، وتحريض الأفكار وإثارة التساؤلات وتلقيح الأفكار من نحو آخر.

3- الدراسات التاريخية

لمثل هذه الدراسات أهمية عظيمة في تبين الأوضاع الماضية التي كانت عليها أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات في زمن ما، ثم رصد تطورها عبر العصور التالية والوصول بذلك إلى الفترة الراهنة. ويشمل ذلك تاريخ الشخصيات والأحداث والنظم السياسية والاقتصادية والتشريعية والعلاقات الدولية التي كانت تربط أمة ما بغيرها من الأمم المجاورة أو البعيدة. وقد دفع هذا كله المستعربين الفرنسيين إلى الخوض في هذا المجال والإسهام في كشفه لمعرفة العرب معرفة قريبة ودقيقة ومباشرة، ودراسة حركتهم

على مسرح التاريخ في العصور الماضية، ومن ثم تحديد موقعهم الحقيقي بين الأمم في العصر الحالي.

ومن أبرز دراساتهم التاريخية التي أنجزوها ما يلي.

1- كتب جان جاك سيديو J.J. Sedillot بحثا بعنوان: خلاصة تاريخ العرب. وقد ترجمه عادل زعيتر إلى العربية بعنوان: تاريخ العرب العام.

2- وألف رينو: فتوح العرب في فرنسا، سنة 1836.

3- وألف ديفرجيه: تاريخ العرب في الجاهلية.

4- وألف لوبون: حضارة العرب، باريس 1884 ترجمه إلى العربية بالعنوان نفسه عادل زعيتر.

5- وألف أرمان دوبرسفال: باكورة تاريخ العرب، في ثلاثة أجزاء، سنة 1847.

6- وكتب ديمومبين: تاريخ بنى الأحمر ملوك غرناطة، باريس 1898.

7- وكتب أيضا: الشام في عهد المماليك، باريس سنة 1923.

8- ونشر بيرييه سيرة بعنوان: حياة الحجاج بن يوسف الثقفي، باريس سنة 1902.

9- وألف هوار: تاريخ بغداد في العصر الحديث، سنة 1901.

10- ونشر أيضا كتابا بعنوان: تاريخ العرب، في جزأين، باريس سنتي 1912 و 1913.

11- ونشر فييت بحثا بعنوان: مصر العربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، باريس سنة 1932.

12- ونشر هنري دوسو H. Dussaud بحثا بعنوان: الطبغرافية التاريخية لسورية، سنة 1932.

13- ونشر أيضا كتابا بعنوان: العرب في الشام قبل الإسلام، سنة 1955.

14- ونشر كلود كاهن CI. Cahen أطروحة بعنوان: سورية الشمالية في عصر الحروب الصليبية، سنة 1940.

15- ونشر ليفي-بروفنسال بحثا بعنوان: تاريخ أسبانيا الإسلامية، في ثلاثة مجلدات، في باريس، بين سنتي 1950 و 1953.

16- ونشر أيضا كتابه: أسبانيا المسلمة في القرن العاشر، باريس سنة 1932.

17- ونشر كذلك كتابا بعنوان: الحضارة العربية في أسبانيا، القاهرة سنة 1938.

18- ونشر أيضا دراسة بعنوان: التاريخ السياسي لأسبانيا في عهد الخلافة، سنة 1950.

19- وكتب جان سوفاجيه أطروحة بعنوان: حلب، سنة 1942.

20- ونشر كنار Canard بحثا بعنوان: الحمدانيون، في جزأين، سنة 1951.

21- ونشر أيضا كتابا لفاسيلييف Vasiliev عنوانه: بيزنطة والعرب، بعد تنقيحه وتهذيبه.

22- وقدم برونشفيغ R. Brunschvig أطروحة بعنوان: الحفصيون، بين سنتي 1940 و 1947.

23- وقدم هنري تراس H. Terrasse أطروحة بعنوان: الفن الأسباني-المغربي من أصوله إلى القرن الثالث عشر، سنة 1932.

24- ونشر جورج مارسيه G. Marcais كتابا بعنوان: فن العمارة الإسلامية في الغرب، سنة 1954.

25- وكتب نيكيتا ايليسييف دراسة بعنوان: نور الدين زنكي، في ثلاثة مجلدات، سنة 1967.

26- وكتب دومينيك سورديل D. Sourdel دراسة بعنوان الوزارة العباسية.

27- ونشر أيضا بالتعاون مع جانين سورديل-تومين J. Sourdel Thomine كتابا بعنوان: حضارة الإسلام الكلاسي، سنة 1969.

28- وكتب كولومب Colombe كتابا بعنوان: تطور مصر من سنة 1924 إلى سنة 1950، ونشره سنة 1951.

29- وقدم أيضا أطروحة بعنوان: الشرق العربي والقوى الكبرى من سنة1945 إلى سنة 1961، ونشرها في باريس سنة 1972.

4- الدراسات الإسلامية:

جهد المستعربون الفرنسيون في اطلاع الجمهور الفرنسي على الإسلام وتعاليمه وتاريخه ونظمه، وتقريب صورته أو تصوره إلى أذهانهم قدر الإمكان، بما قدموا له من ترجمات كثيرة لنص القرآن الكريم رأينا أبرزها فيما سلف[22]، وترجمة عدد من كتب الفقه والأصول، وبما كان لهم كذلك من جولات وصولات في ميدان البحث في تاريخ الإسلام ونظمه، وفي تحليل

واقع المسلمين الاجتماعي. ولم تكن غاية هؤلاء المستعربين، من ترجماتهم أو بحوثهم هذه، الدعوة إلى الإسلام بأي حال من الأحوال، وإنما كانت غايتهم إشباع فضول أبناء لغتهم ووطنهم إلى معرفة هذه العقيدة المشعة الحية التي لا تزال قوة محركة لقرابة مليار إنسان من سكان المعمورة يعيشون في أواخر هذا القرن العشرين، كما كانت من قبل قوة محركة لأحداث التاريخ في الزمن الغابر، بالإضافة إلى محاولة فهم السر الكامن وراء قوتها وأثرها الساحر العميق في الباب أتباعها ونفوسهم إلى اليوم. وهذه جملة من أبرز ما قدمه المستعربون الفرنسيون في هذا المجال:

1- نشر دور كوروا du Courroy بحثا بعنوان: التشريع الإسلامي في المذاهب السنية والشيعية، باريس، 1948.

2- وكتب دو كورتي بحثا بعنوان: معراج محمد ومعجزاته، سنة 1888.

3- وكتب دوغا بحثا عنوانه: فلاسفة المسلمين وفقهاؤهم من سنة 632 إلى سنة 1358 للميلاد، ونشره سنة 1878.

4- وكتب سانتيلير St-Hilaire بحثا بعنوان: محمد والقرآن، ونشره سنة1865.

5- وكتب مونتيه بحثا بعنوان: حاضر الإسلام ومستقبله، باريس، سنة 1910.

6- وكتب أيضا بحثا عنوانه: الإسلام، سنة 1921.

7- وكتب دينيه Dinet بحثا بعنوان: الحج إلى بيت الله الحرام.

8- وكتب أيضا بالتعاون مع سليمان بن إبراهيم بحثا بعنوان: محمد في السير النبوية.

9- ونشر فانيان Fagnan بحثا بعنوان: الجهاد أو الحرب المقدسة حسب الفقه المالكي، في الجزائر، سنة1908.

10- وكتب أيضا بحثا بعنوان: الزواج في الشرع الإسلامي، سنة 1909.

11- ونشر غوتييه بحثا بعنوان: مدخل إلى الفلسفة الإسلامية، في باريس، سنة 1923.

12- وكتب سيدرسكي SidersKi بحثا بعنوان: مصادر الأساطير الإسلامية في القرآن وسير الأنبياء، باريس, 1923.

13- ونشر كارادوفو بحثا بعنوان: مفكرو الإسلام، في خمسة مجلدات،

بين سنتي 1921 و1926.

14- ونشر برونو Bruno بحثا بعنوان: النظام المالي في الشرع الإسلامي، سنة 1913.

15- وألف ديمومبين كتابا بعنوان: النظم الإسلامية، 1931 وقد نقل إلى العربية في ترجمتين.

16- ونشر أيضا كتابا بعنوان: الحج إلى مكة، في باريس 1923.

17- ونشر كذلك كتابا بعنوان: (محمد: الرجل ورسالته)، في باريس، سنة 1957.

18- وكتب هنري ماسيه H. Masse بحثا بعنوان: الإسلام، سنة 1930.

19- ونشر بلاشير بحثا بعنوان: قضية محمد، سنة 1952.

20- ونشر أيضا بحثا بعنوان: مدخل إلى القرآن، سنة 1947.

21- ونشر كذلك بحثا صغيرا بعنوان: القرآن، ضمن سلسلة (كوسيج ؟) برقم 1245.

22- ونشر كلود كاهن دراسة بعنوان: الإسلام، سنة 1970.

23- ونشر هنري لاوست بحثا بعنوان: ابن تيمية ودراسة مصلحي القرن التاسع عشر.

24- ونشر ماسينيون دراسة في التصوف بعنوان: آلام الحلاج، سنة 1922، وهي في الأصل أطروحة جامعية.

25- ونشر أيضا بحثا عنوانه: دراسة عن أصول المعجم التقني للتصوف الإسلامي، ط 2, 1954.

26- ونشر لوي غارديه L. Gardet بحثا بعنوان: الإسلام دينا ومجتمعا.

27- ونشر مكسيم رودنسون M. Rodinson عددا من الكتب التحليلية والمقارنة الهامة من أبرزها:

أ- محمد.

ب- الإسلام والرأسمالية

جـ- الإسلام والماركسية.

5- الدراسات الجغرافية:

لم يتناول المستعربون الفرنسيون هذا النوع من الدراسات من الناحية الجغرافية بالمفهوم العلمي المحض للكلمة، ذلك لأن إنجازات الكشوف

الحديثة والعلم الحديث أوسع وأشمل وأدق. ولذا نجدهم يتناولهن بالبحث تراث العرب الجغرافي في ظرفه التاريخي الذي كتب فيه، أي ما عرف بالأدب الجغرافي العربي أو الجغرافيا التاريخية أن صح التعبير وهذا يعني أنهم ركزوا على محاولة معرفة: كيف فكر العرب جغرافيا، وكيف عبروا عن معارفهم الجغرافية، وكيف كانوا يتصورون العالم القديم بمحيطاته وبحاره وأنهاره وسهوله وجباله أو أقاليمه وبلدانه ومدنه أو أعراقه البشرية بألوانهم وأشكالهم ولغاتهم ودياناتهم وأساطيرهم وعاداتهم وأزيائهم. وكل هذه الأمور لابد من الاستناد في دراستها إلى جملة الآثار المخطوطة في العصور المتقدمة المختلفة. ومن أبرز دراسات هؤلاء المستعربين في هذا المجال:

1- نشر رينو كتابا بعنوان: مدخل إلى جغرافية الشرقيين، وهو تاريخ شامل في علم الجغرافيا عند العرب، سنة 1848.

2- ونشر دفيك بحثا بعنوان: نظرة في كتب الجغرافية العربية في العصر الوسيط في باريس، سنة 1882.

3- ونشر بلاشير بالتعاون مع دارمون Darmont بحثا عنوانه: الجغرافيون العرب في العصر الوسيط، في باريس، سنة 1957.

4- ونشر أندريه ميكيل بحثا بعنوان: الجغرافية البشرية للعالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر للميلاد، في باريس، سنة 1967. وهو في الأصل أطروحته لنيل درجة الدكتوراه.

ويمكن القول بإيجاز شديد، في ختام هذا الفصل، إن المستعربين الفرنسيين قد اهتموا لدراسة مختلف جوانب الثقافة العربية، سواء ما كان يتعلق منها باللغة أو الأدب أو العقيدة أو التاريخ أو الجغرافيا. وقد كان لهذه الدراسات التي ألفوها أو تلك المخطوطات التي أحيوها بالنشر المحقق أو بالترجمة إلى لغتهم تأثير كبير في الحياة الثقافية الفرنسية من حيث: التعريف، والتعليم، والإمتاع، والإفادة. وهذا يعني أن أنشطة هؤلاء المستعربين كانت مثمرة على صعيد التواصل الثقافي بين جمهورهم المثقف وتراثنا العربي القديم، وربما إنتاجاتنا المعاصرة أيضا.

5 أنشطة أخرى للمستعربين الفرنسيين

اطلعنا في الفصول السابقة على عدد مهم من أنشطة المستعربين الفرنسيين المختلفة حول المخطوطات العربية، وتعليم العربية، وتأليف البحوث والدراسات في مختلف جوانب الثقافة العربية. ونضيف هنا الحديث عن جملة أخرى من الأنشطة التي يمكن أن نعدها فرعية قياسا على الأنشطة الثلاثة الرئيسية التي فرغنا للتو من الحديث عنها، بالإضافة إلى أنها داخلة في صلب النشاط العلمي لكل مستعرب منهم، ولهذا السبب آثرنا جمعها هنا في فصل قائم برأسه.

ولم تكن هذه الأنشطة ولا تلك منطلقة من منطلق واحد، كما أنها لم تكن تجري إلى غاية واحدة، بل لا ينبغي لنا أن نذهب هذا المذهب ولا أن نعتقد بمثل هذا الاعتقاد بأي حال من الأحوال. صحيح أن هدف المستعربين الأول والأخير إنما هو خدمة بلادهم وضمان مصالحها، إلا أن هذه الخدمة كانت موزعة على مجالات عديدة. منها ما لا ضير علينا منه ولا ضرر، ومنها ما فيه ضررنا، ومنها ما فيه نفعنا.

وهكذا لا نستطيع أن نقطع بأن حركة الاستعراب كانت شؤما كلها على العرب ولا بأنها كانت خيرا كلها عليهم، وإنما كان فيها الخير وكان فيها الشر متجاورين، وربما زاد أحدهما على الآخر في فترة من الفترات حتى طغى عليه وشوه صورته.

إذن، كانت أهداف الاستعراب-لا في فرنسا وحدها، وإنما في سائر دول أوربا والغرب-متنوعة. فمنها ما كان لخدمة المصالح الدينية التبشيرية في البلدان العربية، ومنها ما كان لخدمة المصالح الاستعمارية والعسكرية، ومنها ما كان لخدمة المصالح الاقتصادية والتجارية، ومنها ما كان لخدمة الإعلام والجاسوسية، ومنها ما كان لخدمة العلم والآداب والفنون والفكر عامة.

غير أن الإنصاف يقتضي منا ألا نفسر نشأة حركة الاستعراب وتطورها في فرنسا بعامل واحد من العوامل المذكورة، لأن لكل فترة زمنية أهدافها، ولكل ظرف من الظروف المتحكمة في تنشيط هذه الحركة أو تثبيطها غاياته ومراميه، ولهذا كان من الصواب جملة، في دراستنا هذه، أن نلم بمختلف الدوافع التي كانت تقف وراء قيام هذه الحركة واستمرارها. وبوسعنا أن نقول مطمئنين إلى هذا القول إن الهدف العام لحركة الاستعراب أو الدافع الرئيسي لها كان حب الكشف والتعرف والاطلاع للإفادة العلمية والتواصل الفكري بين الفرنسيين والعرب، بسبب مجاورة هذا المجال العربي الواسع لفرنسا خاصة وأوربا عامة، على الجانب الآخر للبحر الأبيض المتوسط الفاصل بينهما.

وإذا عدنا بأذهاننا إلى الوراء تاريخيا إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر اللذين ازدهرت فيهما حركة الترجمة ونقل العلوم العقلية والمنطقية والتجريبية المختلفة من العربية إلى اللاتينية في طليطلة وغيرها من المدن في غربي أوربا، فإننا سنجد التاريخ يتكرر مرة أخرى ولكن في اتجاه مضاد، ذلك لأن حركة مماثلة كانت قد سبقت هذه الحركة الأوربية للترجمة بأربعة قرون أو خمسة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية كانت تقوم على نقل علوم الأوائل من يونان ورومان وسريان وفرس وهنود إلى العربية من لغاتها المختلفة: فماذا كان هدف هاتين الحركتين-العربية في القرنين السابع والثامن للميلاد، والأوربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد-

سوى الكشف للإفادة وتلبية الحاجة العقلية المتفتحة عند الطرفين في ظرف تاريخي محدد؟

ثم بعد إخفاق الحملات الصليبية في تحقيق أهدافها بالتغلب على العرب والاستيطان في بلادهم، عمل الغرب، وخاصة فرنسا، وبدوافع التعصب الأعمى، على شن حملات صليبية من نوع جديد مسالم تمثلت في قوافل المبشرين وإرسالياتهم على اختلاف كنائسهم ومذاهبهم. وترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، مثلا، أن «التوجيه التبشيري للاستشراق قد ساير حركة جمع التراث في دورها الأول الذي قصد به إلى الانتفاع بما سبق إليه الشرق الإسلامي من علوم وثقافات، وليس من العسير علينا أن نفهم هذه المسايرة إذا أدركنا أن تراثنا حين عبر إلى أوربا كانت البيئات العلمية تأخذ عنه علومنا ومعارفنا، على حين التمست الكنيسة فيه ما تسخره لخدمة أغراضها الدينية»[1]

لم تكن اللغات الشرقية، ومعها العربية، معروفة لدى الأوربيين قبل الحروب الصليبية، ويرجع الفضل في دراسة هذه اللغات إلى المبشرين «الموفدين إلى البلاد الشرقية من لدن الباباوات، فهؤلاء هم الذين حملوا معهم عند رجوعهم إلى بلادهم تلك اللغات»[2]، و«قد تطورت عقيدة المسيحيين نحو الشرقيين، بعد ظهور الراهب مارتن لوثر، فأخذوا في تعلم لغاتهم حبا في العلم لذاته، وخدمة للحقيقة، وميلا لآداب اللغات، لا لغرض ديني أو سياسي أو تجاري، كما يزعم البعض»[3]. غير أننا لا نقر هذا الرأي الأخير عند الأوربيين جميعا، لأننا رأينا حركة التبشير تهتم بالعربية، كما أننا درسنا الأسباب التي دعت إلى إنشاء مدرسة (فتيان اللغات) وتلك المدرسة الخاصة بتعليم (اللغات الشرقية الحية)، وعرفنا أنها تتبع أساسا من الحاجات السياسية والتجارية بالدرجة الأولى. وقد ينطبق ذلك على بعض البلدان الأوربية المحايدة أو المعزولة أو الضعيفة التي لا تمتلك طموحات دينية أو سياسية أو تجارية أو عسكرية توسعية في بلاد العرب كالبلدان الاسكندنافية مثلا، إلا أنه لا ينطبق على قوى استعمارية عريقة كبريطانيا وفرنسا على سبيل المثال.

لم تظفر حركة التبشير الأوربية خلال تاريخها القديم والحديث بأي طائل ولم تحقق هدفها في التحول من الإسلام إلى المسيحية، وقد كتب

باولوسكي في عرض ترجمة الدكتور ماردروس للقرآن الكريم إلى الفرنسية يقول. «لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغا أجمع معه المبشرون على الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا أن يردوا مسلما عن دينه حتى اليوم»[4]. وكان قصارى ما فعله المبشرون دعم الطوائف المسيحية في البلدان العربية والإشراف على مصالحها وتنظيم شؤونها الدينية.

وكانت الترجمات الفلسفية عن العربي تشن هجوما عنيفا على الدراسات اللاهوتية، بما كانت تولد من جدل ومناقشات كانت تهز مجمل التفكير الديني لرجال الكنيسة، وقام بذلك رجال تحرروا من ربقة الكنيسة ورقابتها، مما دعا علماء اللاهوت إلى أن ينكبوا على دراسة هذه الترجمات ويتوسعوا في معرفة الفلسفة والآراء التي يؤتون منها، للتسلح بما يجب التسلح به من أفكار معارضة ومضادة عند حدوث جدل أو مفاتن بينهم وبين ممثلي هذا الفكر الجديد الخطر على اتجاهات التفكير الكنسي وأسلوب رجاله، فأصبح منهم مستشرقون للتصدي لخصومهم بالطريقة نفسها التي تعلموها من هذه الفلسفة المنقولة عن العرب لأرسطو وغيره من قدماء الفلاسفة[5].

وقد شجع البابوات على إدخال العربية إلى أوربا «إما ليكونوا قادرين على دفع هجوم الفلاسفة، أو لنشر المسيحية في الشرق، وكان ملوك فرنسا يساعدون الأكليروس-رجال الدين-في هذا النوع من الأفكار»[6]

ثم نشطت حركة الاستشراق قبيل الغزو الاستعماري وسايرته حينا من الدهر، تقدم له ما هدى إليه تراث الشرق من فهم لعقليته ومزاجه. نعم، لعب المستعربون دورا بارزا في التمهيد والإعداد لدخول الاستعمار الفرنسي إلى بعض البلدان العربية: أو لم يكن عدد من العلماء، من بينهم مستعربون، يرافقون الجنرال بونابرت في حملته على مصر؟ أو لم يشترك المستعربون الفرنسيون وبعض المتعاملين معهم من أبناء الشرق العربي المقيمين في فرنسا أو الفارين إليها في الحملة على الجزائر مترجمين ووسطاء لجيش الغزو؟ أو لم يشتركوا بعد ذلك في ترسيخ هذا الاحتلال وتعميق جذوره ؟ أولم يشاركوا كذلك فيما بعد في غزو تونس ومراكش وسورية؟ حقا لقد اشتركوا في ذلك كله، ولهذا فإننا لا نبرئ ساحتهم من المسؤوليات والتبعيات التاريخية التي ترتبت على حركة الاستعمار، ولم يكن بالإمكان أن نتصور وقوف هؤلاء المستعربين وحدهم في وجه تيار حركة الاستعمار القوية

الموضوعية آنذاك، حتى ولو أرادوا ذلك، ولم يكونوا قادرين على الحيلولة دون وقوع ما وقع، لأنهم كانوا منفعلين وخاضعين لأوامر وقرارات عليا، مع قناعتهم الذاتية بتصورات بلدانهم المزيفة عن طبيعة استعمارهم ورسالته السامية، حتى أنهم ليظنون أن عملهم الذي أدوه لحكومات بلدانهم وجيوشها الاستعمارية إنما هو عمل وطني وواجب مفروض عليهم يجب أن يؤدوه بحكم المهنة، ولذا لم يتخلفوا عن أداء واجبهم الوطني هذا حين دعوا إليه، بغض النظر عن النتائج غير الإنسانية التي لحقت بشعوب هذه المستعمرات التي أخذوا يسيطرون عليها مستغلين مواردها وخيراتها في سبيل مصالحهم الأنانية العليا. وهذه حقيقة تاريخية لا تسويغ لعمل هؤلاء العلماء في خدمة الآلة الاستعمارية لبلدانهم.

ومع زوال الوجود الاستعماري بتحرر الشعوب تدريجيا من سيطرته المباشرة-بعدما أثخنت بالجراح، وبعدما خلف الاستعمار آثارا كثيرة له في مختلف جوانب الحياة-نجد المستعربين ينتقلون إلى ممارسة أنشطتهم في ميادين أخرى ثقافية وفكرية وعلمية خالصة، ومع ذلك ظلت مشوبة بما يخدم أهداف بلدانهم السياسية والإعلامية والاستخباراتية والجاسوسية، مما لا ينقطع دابره عند أي أمة من الأمم الطموحة إلى الهيمنة والتوسع، إذ تحاول دوما أن تكون على علم بما هي عليه أوضاع الأمة المستهدفة بطموحها، لتتمكن بالتالي من التصرف السليم والدقيق حين تتعامل معها.

وأخذت أهمية الاستشراق تزداد في نظر الغرب، وراحت جذوره تترسخ وجذوعه تطول، وفروعه تمتد أكثر فأكثر، ومن هذه الفروع فرع الاستعراب الذي يعد أبرز فروع شجرة الاستشراق الضخمة بلا نزاع، وكان ذلك نتيجة ازدياد التواصل وتكاثر المصالح التي تشد فرنسا خاصة والغرب عامة إلى المنطقة العربية الشاسعة.

وأخذت حركة الاستعراب تزداد دقة وعمقا مع كل خطوة إلى الأمام، ومن ذلك مثلا ظهور التخصصات وتوسع ميادين البحث حتى شمل كل فروع الثقافة، إضافة إلى تعمق الدراسات في مجال الإحاطة والتحليل.

ويقابل حركة الاستعراب في الغرب ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح (حركة الاستغراب) في بلداننا العربية، وهي شبيهة من وجهة نظرنا في غاياتها وأهدافها لتلك الحركة. وقد أخذت تنشأ جديا مع ظهور الخطر

الغربي على المنطقة العربية، وعلى وجه الخصوص مع بدايات النهضة العربية الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر، وقد تمثلت هذه الحركة بالانفتاح على الغرب، والاتصال به لتعلم لغته والعب من علومه وفنونه وآدابه وكل معارفه، بغية الإلمام بها واستيعابها ومن ثم تمثلها خير تمثل من أجل الإفادة منها في بناء ذواتنا وإعادة وصل لغتنا وثقافاتنا وأمتنا بركب الحضارة التي تحيط بنا في العصر الحديث.

ونحن نتابع اليوم المسيرة النهضوية التي بدأ بها أعلام القرن التاسع عشر وهذا القرن، ويحاول أبناء العربية ممن يتعرفون على الغرب أو يتعلمون لغاته أو يتخرجون في جامعاته أن ينقلوا إلى العربية كثيرا مما يتصل بأسباب نهضتنا وتطورنا، لأن حركة الترجمة في العصر الحديث لا تقل أهمية أبدا عن حركة الترجمة التي بدأت عند العرب في العصر القديم مع مطلع القرن الثاني للهجرة، وازدهرت ازدهارا عظيما في القرنين الثالث والرابع للهجرة في بغداد وغيرها من المراكز العلمية والثقافية النشطة في دولة الخلافة.

ونحن نكون (المستغربين) من أبنائنا-في أغلب الأقطار العربية-بدءا من الصف الأول الإعدادي، أي في سن الثالثة عشرة، وذلك بتلقينهم مبادئ إحدى اللغتين الأكثر انتشارا في العالم: الإنكليزية والفرنسية(7). ثم إنهم بعد قضاء ست سنوات في دراستها، يزدادون تعمقا فيها إذا تخصصوا بدراستها في أحد قسمي اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في المرحلة الجامعية. زد على ذلك أن طلاب الجامعة يستمرون في دراسة إحدى هاتين اللغتين مدة أربع سنوات أو خمس أو ست، بحسب التخصص الجامعي الذي يدرسونه.

وقسما اللغة الإنكليزية والفرنسية في كليات الآداب في جامعاتنا العربية شبيهان بمدرسة اللغات الشرقية الحية التي مر بنا الحديث عنها من قبل، ولكنهما أضيق منها بكثير وأفقر، لأن غاية ما يصبو إليه هذان القسمان هو تخريج عدد كاف من مدرسي هاتين اللغتين في مدارسنا الإعدادية والثانوية، وعلى نطاق ضيق تخريج عدد ممن يعملون في ميدان الترجمة والإعلام، وعلى نطاق أضيق تكوين علماء متخصصين بعمق بهاتين اللغتين.

والاقتصار على هاتين اللغتين، على وجه العموم في جامعاتنا العربية، لا

يكفي لتحقيق طموحاتنا الواسعة الساعية إلى الاتصال حضاريا بكل لغات العالم الأساسية على أقل تقدير، والمعدودة ذات أثر ما في الحضارة، حتى نفيد مما فيها إفادة ولو في حدها الأدنى.

ولا شك في أن مثل هذا الاتصال يعد ضرورة أولية للنهوض والتقدم والإلمام بكل علوم العالم المعاصر وآدابه وفنونه، لتصبح عندنا قاعدة أساسية صلبة نستطيع أن ننطلق منها نحو إعادة بناء ثقافتنا المعاصرة على أسس متينة، لأنه بنقل ثقافات الأمم الأخرى القديمة والحديثة، ولاسيما الجانب الحي فيها، يسهل على عقولنا أن تتفاعل مع تلك الثقافات ويخصبها ويجعلها أكثر شمولية وإحاطة.

ولا ندعو هنا إلى تعلم اللغات الغربية وحدها، وإنما ندعو إلى تعلم كل اللغات الحضارية الأساسية في كل قارات العالم بلا تمييز، لأن تحقيق ذلك سيمكن لغتنا العربية من استعادة حيويتها التامة وعافيتها بعدما لحق بها في عصور التخلف والجمود. ويمهد تحقيق ذلك لجعل العربية اللغة الثقافية الثانية للبلدان الإسلامية على سبيل المثال، إن لم يمهد لجعلها اللغة الثقافية الأولى لمجمل المسلمين في العالم. وتكتسب العربية بذلك تقدما ونجاحا عظيما في الوصول إلى أن تصير لغة عالمية حية وهامة ومن اللغات القليلة المعدودة على أصابع اليد الواحدة من حيث الأهمية والانتشار في ميدان العلاقات، والثقافة، والمعارف.

وعلينا أن نتجاوز التسميات التقليدية البالية للغات العالم. (اللغات الشرقية) و(اللغات الغربية)، وما أشبه ذلك، لنطلق عليها إجمالا اسم (اللغات الحية في العالم). ويمكن أن تقام لهذا الغرض كليات في جامعاتنا العربية يطلق على كل منها اسم: (كلية اللغات الأجنبية الحية)، وهذه الكلية بدورها تنقسم بحسب أحد معيارين: الأول يراعى فيه انتماء مجموعة من اللغات إلى أصل تاريخي واحد معروف (كاللغات اللاتينية، والسلافية، الخ.) وتقسم الكلية بالتالي بحسب عدد هذه الكتل اللغوية. والثاني يراعي كل لغة على حدة بغض النظر عن أصلها أو مجموعتها اللغوية التاريخية، وهذا يعني أن تنقسم الكلية إلى أقسام بعدد اللغات التي تدرس فيها عمليا، على أن تزيد هذه الأقسام وتزدهر باستمرار، وذلك بإدخال لغات جديدة بقدر الإمكان والحاجة. على أن تكون غاية هذه الأقسام جميعا تخريج جيل من الخبراء

المختصين بأهم لغات العالم الحية، ليتمكن من نقل كل ما من شأنه إغناء لغتنا وثقافتنا، أو ليعمل بعضه في خدمة الإعلام والسياسة الخارجية، والصحافة، والجاسوسية، ومختلف الشؤون الأخرى بالمناطق الدولية وبمختلف الأمم والدول في العالم.

وإذا كانت فرنسا خاصة، والغرب عامة، قد سبقانا إلى ارتياد تجربة تعليم اللغات الأجنبية الحية في بلدانهم، في مؤسسات تعليمية متعددة، فهذا نموذج يحتذى على الأقل. ثم إن استمرار فرنسا والغرب في السير على هذا الطريق دليل على نجاح هذه التجربة، وعلى فائدتها المؤكدة. وقد كانت (مدرسة اللغات الشرقية الحية) في باريس، يوما ما، هي النموذج الحي الذي احتذاه الشيخ رفاعة الطهطاوي رائد النهضة العربية الحديثة، حين عاد إلى مصر من بعثته إلى باريس، فأنشأ ما أطلق عليه اسم (مدرسة الألسن) سنة1835، وهي التي عرفت فيما بعد باسم (كلية الألسن).

وسنحاول، فيما يلي من سطور، أن نرصد وندرس أهم الأنشطة العلمية الأخرى والفرعية التي مارسها المستعربون الفرنسيون، ولم نتطرق إلى الكلام عليها من قبل، لعلنا نجلو جوانب جديدة من صورة حركة الاستعراب في فرنسا لتظهر بشكلها الجلي والتام:

1 - العمل في مصالح الدولة والخدمات العامة:

من المسلم به أن يكون هدف تعليم اللغة الأجنبية عمليا بالدرجة الأولى للإفادة منها أداة للتواصل في المصالح المرتبطة بالدولة أو في الخدمات العامة من اقتصادية وتجارية وثقافية وسياسية وإعلامية. وقد تبين لنا مما مر بنا من قبل أن المؤسسات التعليمية الكبرى الثلاث في فرنسا وما يتبعها أو يتفرع منها أو يشابهها، كانت تهدف إلى تكوين المترجمين القادرين على خدمة بلادهم في الميدان السياسي والتجاري، كما نص على ذلك، مثلا، مرسوم تأسيس المدرسة الخاصة بتعليم اللغات الشرقية الحية).

وسرعان ما أخذت المصالح تتوسع، وأخذت الحاجات تزيد تبعا لذلك إلى خدمات هؤلاء المترجمين، وكان من أسباب توسع هذه المصالح سرعة المواصلات وتطور وسائل الاتصال وازدياد سكان العالم بكثرة وتعقد علاقة بعضهم ببعض، وتداخل هذه العلاقات، وتطور المجتمعات وتقدمها في

مختلف الميادين، وحاجة كل بلد إلى البلدان الأخرى في تلبية متطلباته الحيوية، نضيف إلى كل ذلك السبب التقليدي الهام، وهو حركة الاستعمار. ولذا فإننا نرى الفرنسيين عارفي اللغة العربية ينتشرون في دوائر الدولة ومؤسساتها لتسهيل أعمالها وتلبية حاجاتها إلى التواصل عن طريق الترجمة، يضاف إلى ذلك عملهم في شركات فرنسية عاملة في البلدان العربية أو داخل فرنسا ولكن لها صلات قوية ببعض البلدان العربية.

والمستعربون الذين يتخرجون في المؤسسات التعليمية أنواع. منهم المستعربون بالمهنة، وهم الذين يهبون حياتهم وجهودهم للبحث والتأليف والترجمة والتدريس. ومنهم المستعربون الدبلوماسيون الذين يعملون في نطاق المصالح السياسية لبلادهم، من أمثال السفراء والقناصل والملحقين في البلدان العربية، وكان أكثر هؤلاء يقبلون على تعلم اللهجات العربية العامية ذات الفائدة العملية. ومنهم المستعربون الإداريون الذين يعملون في إدارات الدولة داخل البلاد أو خارجها في المستعمرات والمحميات الفرنسية إبان العهد الاستعماري. ومنهم المستعربون العسكريون، وكانت مهمتهم العمل مترجمين في الجيوش المستعمرة أو في سلاح البحرية[8].

ونذكر أن نابليون، في حملته على مصر، كان يرى في مترجمه الخاص بارادي دوفنتور الذي يتقن العربية والتركية معا «المستشرق الأول في أوربا»، لأنه كان يترجم له بسرعة وتأنق خطاباته التي كانت سرعان ما تؤثر التأثيرات المطلوبة منها في العرب المصريين. والمعروف أن هذا المترجم كان من خريجي مدرسة فتيان اللغات التي مر بنا ذكرها من قبل[9].

ومن أمثلة العاملين المترجمين في الجيش الفرنسي نذكر جان-شارل زكار Zaccar (المولود في دمشق سنة 1789) الذي ترجم البلاغ الأول الموجه من الجنرال بورمون Bourmont إلى العرب الجزائريين سنة 1830، وقد شاركه في ترجمته قبل انطلاق الحملة المستشرقان دوساسي[10] وبيانكي Bianchi. وكان من مترجمي الجيش الفرنسي في الجزائر أيضا جواني فرعون (من بعلبك بلبنان)، وكان أبوه إلياس فرعون مترجما لجيش الحملة الفرنسية على مصر، وقد ولد ابنه جواني في القاهرة سنة 1803، وقد عمل جواني كذلك مترجما للحكومة العامة في الجزائر[11].

وكان خريجو مدارس تعليم العربية في الجزائر وقسنطينة ووهران

يلتحقون غالبا بهيئة المترجمين العسكريين في الجزائر[12].

وقد صدر سنة 1880 مرسوم يحدد قبول طلاب مدرسة اللغات الشرقية في وظيفة مترجم في مصالح الدولة، نص في مادته السابعة على أن لحاملي دبلوم مدرسة اللغات الشرقية الحق هم وحدهم في هذه الوظيفة حصرا، ويفضل منهم من عمل في مراكز دبلوماسية وقنصلية في المشرق مدة ثلاث سنوات على الأقل، أي أن هذا العمل كان يتطلب منهم خبرة عملية من خلال الالتحاق بخدمات خارجية لوزارة الشؤون الخارجية[13]. وقد شجع حصر القبول في هذه الوظيفة بخريجي هذه المدرسة إلى تحول الراغبين في هذه الوظيفة عن كل المؤسسات الأخرى، فازداد بذلك الإقبال على دروس مدرسة اللغات الشرقية هذه ازديادا كبيرا.

وصدر أمر ملكي قبل ذلك، في الجزائر، يفرض على الموظفين المدنيين جميعا الإلمام باللغة العربية بدءا من سنة 1847، غير أن هذا الأمر بقي حبرا على ورق إلى أن صدر مرسوم سنة 1849 ينص على إلزام بعض أنواع الموظفين المدنيين بدراسة العربية[14].

ومن الأمثلة البارزة على العاملين في ميدان السلك الدبلوماسي المستعرب المشهور كليمان هوار الذي تخرج في مدرسة اللغات الشرقية سنة 1873، وكان أول من حاز شهادة الدراسة فيها أي (الدبلوم) بعد استحداثه، وقد عين إثر ذلك مترجما مبتدئا في قنصلية فرنسا بدمشق سنة 1875، ثم عين مترجما ثالثا في السفارة الفرنسية بالآستانة من سنة 1878 إلى سنة1885، ثم تم تعيينه مترجما ثانيا في سنة 1897، وعين من ثم مترجما في وزارة الخارجية بباريس سنة 1889، ثم عين أمين سر مترجما من الدرجة الأولى سنة 1907 لدى الحكومة في وزارة الخارجية، ثم عين قنصلا عاما لحكومته في دمشق، ونقل بعد ذلك ليعمل مدرسا في مدرسة اللغات الشرقية بباريس[15].

ويقول الدكتور طه حسين عن عمل بعض المستعربين الفرنسيين في أجهزة مخابرات بلادهم: «وأذكر مثلا أن ماسينيون، وهو مستشرق فرنسي مشهور، كان عضوا في مجمع اللغة العربية، وله أبحاث في الدراسات الإسلامية.. هذا المستشرق كان موظفا في إدارة المخابرات في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان إذا جاء إلى مصر فإنه يسعى إلى مقابلة الملك

فؤاد، ثم من بعده فاروق، ولكن بعد قيام ثورة يوليو سنة, 1952 حاول مقابلة عبد الناصر فلم يفلح»[16].

ونحن نتوقع اليوم أن يكون عدد كبير من المستعربين الفرنسيين ممن يقدمون أيضا خدمات جلى لبلادهم في مصالحها وإداراتها المختلفة: كوزارة الشؤون الخارجية، ووزارة الحربية، ووزارة الثقافة، ووزارة الإعلام، ووزارة التعليم الوطني، ووزارة الاقتصاد، ووزارة التجارة، وفي السفارات والقنصليات الفرنسية في مختلف البلدان العربية، وهذا أمر مسلم به لدى دولة ترى أن لها مصالح دائمة وثابتة في الشرق العربي، وأن لها صلات تقليدية عريقة ببعض أجزائه.

هذه هي الخدمات المختلفة التي يقدمها المستعربون الفرنسيون لمصالحهم الوطنية الخاصة بأجهزة دولتهم ودوائرها، ومن الطبيعي أنه كلما ازدادت الوظيفة دقة وحساسية انتدب لها واحد من أبرز المستعربين وأعمقهم تخصصا واطلاعا للقيام بأعبائها، وإنما يسأل في الأمر صاحب الاختصاص فيه.

2-المشاركة في عقد المؤتمرات الدولية للمستشرقين عامة والمستعربين خاصة:

لما كان العمل التعاوني والجماعي أمرا مفيدا في كل المجالات الصعبة التي تتميز بالسعة والعمق، فقد شعر كثير من علماء المشرقيات أن التواصل فيما بينهم ستكون له آثار عظيمة في تكامل جهودهم وتطوير دراستهم، فتجاوزوا طريقة المراسلة ودعموها بصيغة جديدة للعمل أوجدها القرن التاسع عشر في مجال السياسة أولا، ثم انتقلت لتطبق في مختلف الأنشطة البشرية الأخرى، وهذه الطريقة التي استشرت سريعا في كل مجال هي (المؤتمرات). وفي المؤتمر يلتقي عادة العاملون في مجال تخصصي واحد، ممن تربط بعضهم ببعض أفكار مشتركة وقضايا متشابهة.

وقد دعا إلى فكرة عقد مؤتمر دولي للمستشرقين الأوربيين العالم الفرنسي ليون دو روزني في أواخر القرن الماضي، ودعي إلى حضور المؤتمر الأول جميع مستشرقي أوربا، وتم عقده بالفعل في باريس سنة 1873. ثم توالت هذه المؤتمرات من حين إلى حين، متنقلة من مدينة أوربية إلى أخرى،

إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى سنة 1914، فانقطعت إلى أن استأنفت في سنة 1928 بالمؤتمر السابع عشر، الذي عقد في أكسفورد[17].

وكان كل مؤتمر من هذه المؤتمرات ينشر، في ختام اجتماعاته، البحوث والدراسات التي قدمت فيه من قبل المستشرقين المشاركين، فيما يعرف بـ (أعمال المؤتمر)، لتعم الفائدة سائر المهتمين بهذا المجال.

وقد توسعت دائرة المشاركين في مثل هذه المؤتمرات، بعد أن كانت وقفا على المستشرقين الأوربيين، لتشمل عددا لا بأس به من المستشرقين والمستعربين من خارج أوربا، ممن أسهموا في أعمالها وقدموا بحوثا قيمة ضمن أنشطتها. وهكذا أتيحت الفرصة لباحثين عرب ومسلمين وشرقيين كي يلقوا بحوثهم فيها[18]. وكان للمستعربين الفرنسيين إسهامات بارزة في أنشطة هذه المؤتمرات الدولية التي بلغ عددها تسعة وعشرين مؤتمرا خلال قرن تام من الزمان، وقد عقد هذا المؤتمر التاسع والعشرون، في الذكرى المئوية لعقدها منذ المؤتمر الأول، سنة 1973 في المدينة نفسها أي باريس. وقد شارك فيه عن القطر العربي السوري أستاذنا المرحوم شكري فيصل.

ثم إن هذه المؤتمرات لم يقتصر عقدها على مدن أوربا، وإنما انتقلت أحيانا لتعقد في إحدى العواصم الشرقية، ومنها مثلا: مؤتمر الجزائر (سنة 1905) الذي كان ترتيبه الرابع عشر، ومؤتمر إستنبول (سنة 1951) وترتيبه الثاني والعشرون، ومؤتمر نيودلهي (سنة 1964) وترتيبه السادس والعشرون، الخ. ولم تتم استضافة هذه المؤتمرات في أي عاصمة عربية مستقلة حتى اليوم.

وإذا وضعنا جانبا هذه المؤتمرات الشمولية التي كانت تشتمل على كل فروع الدراسات الاستشراقية-والعربية منها حكما-على وجه العموم، فإننا نجد نوعا أكثر تخصصا وأدق توجها في ميدان الدراسات يتمثل في مؤتمرات مقصورة على الدراسات العربية والإسلامية حصرا. وقد عقد المؤتمر الأول في سلسلة هذه المؤتمرات في شهر أيلول من سنة 1962 في مدينة قرطبة بإسبانيا، وهي المدينة التي كانت يوما ما عاصمة الخلافة الأموية إبان العصر العربي الأندلسي، وتقرر في هذا المؤتمر أن يعقد بعد ذلك مرة كل سنتين أو ثلاث سنوات، واتخذ المؤتمر في جلسته الختامية عدة مقررات

نص الثاني منها على أن هدف هذه المؤتمرات التي تضم المستعربين الأوربيين وتجمع شملهم هو تقديم الدراسات العربية إلى الاختصاصيين في أوربا الغربية، وتوفير فرص خاصة لتبادل وجهات النظر والمعلومات العلمية(19).

وتم صدور أعمال هذا المؤتمر في مدريد سنة 1964 في مجموعة عنوانها: (أعمال المؤتمر الأول للدراسات العربية والإسلامية)-Actas de primer congreso-de es tudios arabes e islamicos

وكان المستعربون الفرنسيون الذين شاركوا في هذا المؤتمر الأول هم:

1- غارديه L. Gardet.

2- غواشون A.M. Goichon.

3- فايدا G. Vajda.

4- أرنالديز R. Arnaldez.

وقد عقد المؤتمر الخامس للمستعربين وعلماء الإسلاميات في بروكسل عاصمة بلجيكا في أواخر آب وأوائل أيلول من سنة 1970، . وقد اشترك فيه من المستعربين الفرنسيين كل من:

1- آرييه R. Arie.

2- أودبير CI. Audebert.

3- بودو-لاموت A. Boudot-Lamotte.

4- برونشفيغ B. Brunschvig.

5- ريمون A. Raymond.

وشارك فيه من الباحثين العرب كل من:

1- الدكتور إحسان عباس.

2- الدكتور محمد يوسف نجم.

وأما المؤتمر السابع للدراسات العربية والإسلامية فقد عقد في مدينة غوتنغن-Gottingen بألمانيا الاتحادية سنة1974. وربط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية باستمرار في هذه المؤتمرات إنما هو تعبير عن الترابط العضوي القوي بين العرب والإسلام بعد ظهوره، أو بتعبير آخر بين اللغة العربية والإسلام.

وإذا كان لنا أمل في هذه المؤتمرات، سواء منها المؤتمرات الدولية العامة للمستشرقين أو مؤتمرات المستعربين الخاصة، فهو أن نتعاون معها ونشارك

في نشاطها من أجل إفادتها وإفادتنا معا، و لنا أمل كبير أيضا في استضافة النوع الثاني من هذه المؤتمرات من حين إلى آخر في إحدى الدول العربية من باب تشجيعها وتصحيح مسارها والتأثير في جيل المستعربين الشباب في مختلف بلدان العالم ودعمه، لما في ذلك من كسب كبير لنا ولثقافتنا، وخصوصا أن الجو مهيأ اليوم لمثل هذا الاستقطاب بعد أن لفت العرب أنظار العالم إليهم إثر حرب تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1973، كما لفتوا الانتباه أيضا إلى وحدتهم التي تجلت في التضامن العربي إبان تلك الحرب. مما دعا إلى إقبال أعداد كبيرة من الشباب الأجانب، ومن مختلف الجنسيات، على تعلم العربية والاهتمام بها بالسفر إلى البلدان العربية نفسها والتسجيل في جامعاتها. وتجلى ذلك في اتخاذ القرارات بجعل اللغة العربية لغة اختيارية ثانية في المرحلة الثانوية من التعليم الوطني في بعض الدول والبلدان (كما هي الحال في قرار وزير التعليم الوطني الفرنسي بهذا الشأن). كما أن ذلك أثر في اتخاذ الأمم المتحدة قرارا باعتماد العربية لغة رسمية معتمدة في منظماتها وجلساتها المختلفة إلى جانب اللغات الإنكليزية والفرنسية والأسبانية والروسية. كما عزز في الوقت نفسه تعليم العربية في البلدان الإسلامية أكثر فأكثر.

وقد اعتاد بعض المستعربين في فرنسا أن يعقدوا في جامعاتها أو مؤسساتها العلمية ندوات أو مؤتمرات للدراسات العربية والإسلامية هي صورة لمؤتمرات المستعربين الآنف ذكرها، وهي تضم مستعربين من داخل فرنسا، ويشاركهم فيها بعض العرب الباحثين والأساتذة في تلك الجامعات. وتقيم هذه المؤتمرات بعض الروابط والجمعيات المهتمة بتوثيق الصلة بين العرب والفرنسيين على الصعيد الثقافي. ومن ذلك المؤتمر الذي انعقد في مونبلييه في أيار من سنة 1977، تحت شعار: «الحضارتان العربية والأوربية ثقافتان متكاملتان»، ونشر أعماله بعنوان. (أضواء عربية على الغرب في العصر الوسيط). واشترك فيه من المستعربين الفرنسيين كل من:

1- أرنالديز.

2- أندريه ميكيل.

3- بابادوبولو Papadopoulo.

4- شابرييه J.-- CI. Chabrier

5- هورنوس J.--M. Hornus.

6- ميشو J. Michaud.

ومن الباحثين العرب المقيمين في فرنسا.

1- توفيق فهد.

2- أمينة راشد (أو رشيد) A. Rachid.

3- محمد أركون.

4- يواكيم مبارك.

5- وهيب عطا الله.

وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر بعناية رابطة التضامن الفرنسي-العربي.

3- الاشتراك في تحرير مواد الموسوعة الإسلامية:

طرح بعض المشتركين في المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين، المنعقد في مدينة جنيف (بسويسرا) سنة 1894 فكرة إنشاء موسوعة تبحث موادها في الحضارة الإسلامية وفي مختلف الشؤون المتعلقة بالعرب تاريخا وجغرافية ولغة وأدبا وفنا وعلما وفلسفة، بغية تغطية ثقافتهم تغطية تامة في كل ميدان وبحسب آخر ما توصلت إلية بحوث المستعربين وعلماء الإسلاميات، لا في فرنسا وحدها، وإنما في بلدان أوربا والغرب عامة. وقد لقيت هذه الفكرة فعلا ترحيب المشتركين في هذا المؤتمر، فشكلت لجنة إشراف على تنفيذها تتألف من المستشرقين التالين:

1- الفرنسي: باسيه R. Basset.

2- الإنكليزي: أرنولد T.W. Arnold.

3- الألماني: هوتسما Houtsma.

4- الألماني: هارتمان Hartmann.

وقد شارك عدد كبير من أبرز المستشرقين من علماء الإسلاميات ومن المستعربين في تحرير مواد الموسوعة الإسلامية، وكان نصيب الفرنسيين في هذا العمل كبيرا. وكانت فكرة هذه الموسوعة قد استوحيت من مصدرين رئيسيين: الأول والأقدم هو (المكتبة الشرقية) التي وضعها ديربلو، وقد سبقت الإشارة إليها وإلى مكانتها في حركة الاستشراق عامة وحركة الاستعراب على وجه الخصوص، في مكان سابق من هذا البحث. والثاني

الموسوعة الفرنسية التي وضعت في القرن التاسع عشر.

وكانت فكرة الموسوعات بحد ذاتها فكرة تهدف إلى تناول شتى المعلومات في ناحية واحدة أو مجموعة نواح من الحياة الثقافية في المجتمع، بتركيز شديد واختصار يسهل البحث ويوفر الجهود في عصر السرعة والشمول والاختزال، إذ لا يملك المرء العادي، وحتى الباحث المختص، الوقت المديد، إذا أراد معرفة شيء عن نقطة معينة تمر به أثناء بحثه الطويل، لكي يعود إلى قراءات واسعة واستقصاءات متنوعة للوصول إلى هذه المعرفة. ولذا كانت فكرة الموسوعات تقوم على توفير الوقت والجهد معا، ليبذلا في غير ذلك من الأعمال، ومن هنا كانت صفات التنظيم والاختصار والشمول في الموسوعات صفات أساسية وضرورية لها.

وتم إنجاز الطبعة الأولى من (الموسوعة الإسلامية) في أربعة مجلدات مع جزء ملحق على التوالي، بدءا من سنة 1913 وانتهاء بسنة 1942، بثلاث لغات مستقل كل منها عن الأخريين، وهي: الفرنسية E.I. والألمانية، والإنكليزية. وكان المجلد الواحد يتألف من قرابة ألف وأربعمائة صفحة من القطع الكبير، وبحرف طباعي دقيق ناعم، وورق رقيق. وقد رتبت مواد هذه الموسوعة ترتيبا هجائيا متسلسلا، لتسهيل مراجعة أي مادة فيها على الباحثين والقراء المطالعين. وفي آخر كل مادة يذكر اسم كاتب المادة من المستشرقين والمستعربين وغيرهم، فيكتب الجزء الأول منه مختصرا بالحرف الأول أو الحرفين الأولين منه، ثم يذكر الجزء الثاني أو اسم العائلة بتمامه (مثل: وليم مارسيه W. Marcais وكليمان هوار Cl. Huart) ويكون ذكر هذا الاسم عادة بعد أن يسرد كاتب المادة جملة مراجعه المعتمدة في كتابتها مرتبة أيضا ترتيبا هجائيا لتعين الباحث على العودة إلى الأصول إن شاء التوسع فيها.

وكان المستشرقون من علماء الإسلاميات والمستعربون أنفسهم يقومون بترجمة المواد المحررة بلغة من اللغات الثلاث إلى اللغتين الأخريين مباشرة، ليتم صدور هذه الموسوعة باللغات الثلاث في الوقت نفسه.

وعندما أنجزت هذه الطبعة نهائيا ونفدت نسخها، طرح في المؤتمر الدولي الحادي والعشرين للمستشرقين، المنعقد في باريس سنة 1948، مشروع طبعة ثانية منقحة لهذه الموسوعة نفسها، وقد أقر المؤتمر هذا

المشروع على أساس إنجاز الطبعة الثانية المنشودة في ستة مجلدات يتألف كل منها من ثمانين ملزمة أو1820 صفحة، من القطع والحرف المستعملين في الطبعة الأولى، مع التوصية بإصدار فهرس عام لمواد الموسوعة وكتابها، مع أطلس جغرافي وتاريخي، وتحلق هذه الذيول بجملة المجلدات الستة المحتوية على متن المواد. وأوصى المؤتمر بأن تصدر هذه الموسوعة في طبعتها الثانية باللغتين الفرنسية والإنكليزية فقط. وقد وضع مشروع هذه الطبعة تحت إشراف ليفي-بروفنسال، وأسند هذا الإشراف بعد وفاته سنة 1956 إلى المستعرب الفرنسي الآخر شارل بيلا. وقد بدئ بإصدارها سنة 1954 بشكل ملازم متسلسلة إلى أن اكتمل المجلد الأول سنة 1960. وقد أفسح المجال في الطبعة الجديدة لعدد أكبر من المواد في موضوعات اقتصادية واجتماعية وفنية، كما سمح للباحثين العرب بأن يشاركوا في تحرير موادها، وسمح كذلك للباحثين المسلمين بأن يسهموا فيها، وسمح أيضا للباحثين اليهود في فلسطين المغتصبة بمثل ذلك. وتمت إعادة قسم كبير من مواد الطبعة الأولى في الطبعة الجديدة، وقد أشير إلى مثل هذه المواد القديمة المنقحة على يد لجنة تحرير الطبعة الجديدة بنجمة توضع عند اسم كاتبها الأصلي، ويتبع هذا الاسم مباشرة وبين قوسين اسم منتح المادة[20].

ولما كانت لغات هذه الموسوعة، في طبعتها الأولى، الفرنسية والألمانية والإنكليزية، وفي طبعتها الثانية الفرنسية والإنكليزية فقط، فقد كان لابد من مواجهة مشكلة كتابة بعض الأصوات العربية، التي لا مقابل لها في هذه اللغات، بالحروف اللاتينية والتعبير عنها تعبيرا دقيقا لا لبس فيه: كالهمزة، والثاء، والحاء، والخاء، والذال، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، الخ.

وقد وضع المستعربون المشاركون في مؤتمر جنيف سنة 1894، لحل هذه المشكلة، طريقة لكتابة هذه الأصوات العربية وذلك بإدخال بعض التعديلات على بعض الحروف اللاتينية، بوضع إشارات معينة فوق هذه الحروف أو تحتها، للاصطلاح على أن يعبر كل منها عن أحد الأصوات العربية موضوع المشكلة، وقد أوصوا بتعميم استعمال هذه الطريقة في كل كتابات المستعربين للتعبير عن الأصوات العربية في الأسماء أو الكلمات العربية التي تمر في

الحرف العربي	الموسوعة الإسلامية	تاريخ الأدب العربي لبروكلمان	حوليات الاسلام لكايتاني
ءَ ، آ ، ـَ اَ ، اُ ، اِ	a , ā , ʼ í , ú , á	a , ā , ʼ í , ú , á	a , ā , ·ʼ i̇ , u̇ , ȧ
ب	b	b	b
ت	t	t	t
ث	th	t̠	th
ج	dj	ǧ	ǵ
ح	ḥ	ḥ	ḥ
خ	kh	ḫ	kh
د	d	d	d
ذ	dh	d̠	dz
ر	r	r	r
ز	z	z	z
س	s	s	s

هذه الكتابات.

غير أن مستعربا ألمانيا كبيرا هو كارل بروكلمان (1956 م) C. Brockelmann لم يلتزم هذه الطريقة الجديدة بحذافيرها، وتميز في كتاباته عامة، وفي كتابه المشهور: تاريخ الأدب العربي Geschichte der arabischen Literatur الذي بدأ بنشره سنة 1898، بتعديلاته الخاصة على بعض هذه الحروف اللاتينية المعبرة عن الأصوات العربية. ومن الجدير بالذكر هنا أن الباحث الألماني الجنسية والتركي المسلم أصلا (فؤاد سيزكين) قد استعمل في كتابه ا

الحرف العربي	الموسوعة الإسلامية	تاريخ الأدب العربي لبروكلمان	حوليات الاسلام لكايتاني
ش	s̲h̲	š	š
ص	ṣ	ṣ	s̲
ض	ḍ	ḍ	d̲
ط	ṭ	ṭ	t̲
ظ	ẓ	ẓ	z̲
ع	c̲	c̲	c̲
غ	g̲h̲	ġ	g̲h̲
ف	f	f	f
ق	k	q	q
ك	k	k	k
ل	l	l	l
م	m	m	m
ن	n	n	n
هـ	h	h	h
وْ ، ـُ	u , ū	u , ū	u , ū
يْ ، ـِ	i , i	i , i	i , i

لمشهور أيضا والمترجم إلى العربية بعنوان: تاريخ التراث العربي Geschichte des arabischen Schriftums، الحروف اللاتينية المعدلة نفسها التي كان بروكلمان قد استعملها من قبل.

يضاف إلى ذلك أن مستعربا إيطاليا كبيرا أيضا هو ليوني كايتاني

(1926 م) L. Caetani استعمل طريقة خاصة به في تعديل الحروف اللاتينية لتعبر عن الأصوات العربية موضوع المشكلة، في كتابه المشهور كذلك: حوليات الإسلام ,Annali del Islam وكان قد بدأ بنشره قبل صدور المجلد الأول من الموسوعة الإسلامية.

وهذا جدول مقارن لهذه التعديلات الثلاثة التي اصطلح عليها عند مستعربي أوربا لخدمة التعبير عن الأصوات العربية بالحروف اللاتينية: ويعبر عن الواو غير الممدودة بحرف(w)، ويصبح في حالات (النصب والرفع والكسر) على التوالي كما يلي: , wa، wi, wu.

كما يعبر عن الياء غير الممدودة بحرف (y)، ويصبح في حالات النصب والرفع والكسر) على التوالي كما يلي:

yi، yu, ya

ويعبر عن صوت (أو) ب (aw) وعن صوت (أي) ب (ay)، الخ.

وقد استعمل المستعرب الفرنسي شارل بيلا في كتابه: اللغة العربية وآدابها Langue et Littérature arabes بعض الحروف اللاتينية المعدلة الأخرى لاستعماله الخاص الذي يتوجه به إلى جمهور القراء والمثقفين الفرنسيين في التعبير عن الأصوات العربية، مثل: ش = ch

ص=C

a=i

و=u

ى=i

وقد حاول ثلاثة من خريجي كلية الآداب بجامعة القاهرة هم:

1- إبراهيم زكي خورشيد.

2- أحمد الشنتناوي.

3- عبد الحميد يونس.

أن ينقلوا هذه (الموسوعة الإسلامية) إلى اللغة العربية من طبعتها الأولى بعنوان: (دائرة المعارف الإسلامية)، وقد أنجزوا ترجمة القسم الممتد من حروف (الألف) إلى حرف (الطاء)، ما بين سنتي 1933 و1965. وأخذوا، سنة 1969، يعيدون طبع هذه الدائرة، مع إضافة ترجمة للمواد الجديدة أو المنقحة التي وردت في الطبعة الأوربية الثانية في مواضعها من ترتيب

المواد وفق الهجائية العربية، وقد ظهر منها ثلاثة عشر مجلدا وقعت في قرابة ستة آلاف وسبعمائة صفحة.

ولم يكن جهد المترجمين الثلاثة وقفا على ترجمة مواد الموسوعة، وإنما امتد إلى إثبات تعقيبات مفيدة على آراء محرري هذه المواد لعدد من أعلام الكتابة والفكر البارزين على الصعيد الثقافي آنذاك، من أمثال: مصطفى عبد الرازق، وأحمد أمين، وأمين الخولي، وإبراهيم مدكور، ومهدي علام، الخ[21]. وكان القصد من هذه التعقيبات تفنيد الآراء المنحرفة التي انجر إليها أو تقصدها بعض المستشرقين المغرضين، أو تصويب أخطاء علمية وقع فيها بعضهم الآخر سهوا وعن غير قصد، أو دفع شبهة أو تهمة باطلة اخترعها يعض الدساسين وألصقوها بالعرب أو الإسلام بغية التشهير بهما أو الطعن فيهما.

وتعد هذه الموسوعة-سواء في طبعتها الأولى التي تجاوز الزمن كثيرا من موادها، أو في طبعتها الثانية المنقحة والمزيدة، أو في ترجمتها العربية- مصدرا من مصادر البحث العامة والهامة للدارسين والباحثين الغربيين والشرقيين في الشؤون والدراسات العربية والإسلامية، بل لا غنى لهم عنها البتة.

وإننا لنشعر اليوم بحاجة ماسة إلى (موسوعة إسلامية) تحرر موادها بأيدي باحثين عرب ومسلمين، تصدر باللغة العربية على الأقل، إن لم نحاول إصدارها بعدد من اللغات الكبرى الأساسية للشعوب الإسلامية في هذا العالم. كما أننا بحاجة ماسة كذلك إلى موسوعة أخرى تعنى بشؤون العرب وحضارتهم من جميع النواحي وتعرف باسم (الموسوعة العربية) ويشارك في وضع موادها وتحريرها كل الكتاب والباحثين والعلماء والمفكرين والشعراء والأدباء والخبراء العرب داخل البلدان العربية وخارجها، كل في نطاق اختصاصه وحقله الذي برز فيه وأبدع. وقد صدر في سورية بالفعل مرسوم تشريعي (رقمه 3 لسنة 1981) يقضي بإحداث (هيئة الموسوعة العربية) وكل ما يتعلق بشأنها أو يخدم هدفها أو ينظمها. وهذا مشروع طموح لا يمكن أن تنجزه جهود الأفراد القلائل مهما أوتوا من طاقة، ولابد فيه من مشاركة كل القادرين على الكتابة ومن العمل الجماعي المنظم ومن إسهام المؤسسات الثقافية والعلمية في الأقطار العربية قاطبة.

4- تأليف الجمعيات الاستشراقية والاستعرابية والإسهام في أنشطتها:

كان الهدف الأول من إنشاء مثل هذه الجمعيات العلمية تجميع جهود العلماء في الميدان الذي يعملون فيه، وتوفير التعاون فيما بينهم، ومنع هدر الجهود في تكرار بحوث قد طرقت من قبل، وتوجيهها نحو أعمال جديدة لم تطرق بعد. ونجد المستشرقين الفرنسيين تلبية لذلك يسارعون إلى إجابة دعوة سلفستر دوساسي إلى إنشاء جمعية علمية للدراسات الشرقية في باريس سنة 1822 أطلقوا عليها اسم: الجمعية الآسيوية Societe Asiatique وقد أصدرت هذه الجمعية منذ إنشائها صحيفة لنشر دراسات أعضائها هي: (المجلة الآسيوية) le Journal Asiatique وقد ساعدت هذه الجمعية على ترسيخ قدم الدراسات الشرقية عامة، والعربية خاصة، وعلى استمرارها في مؤسسة ثابتة متجددة، بعد أن كانت هذه الدراسات عرضة للانقطاع في الفترات السابقة، نظرا لخضوعها للظروف والتيارات والأمزجة المتقلبة باستمرار في أغلب الأحيان، ونظرا أيضا لاعتمادها على الجهود الفردية المتفرقة. وقد نال الدراسات العربية من هذه الجمعية وأعضائها نصيب وافر من الاهتمام، إذ أن مؤسسها ورئيسها الأول كان المستعرب المشهور وعميد الدراسات العربية في فرنسا خاصة وأوربا عامة سلفستر دوساسي، والمعرف أنه ترأس هذه الجمعية فعليا حتى سنة1825 وشرفيا بعد ذلك حتى وفاته سنة 1838.

وكانت أنشطة المستشرقين والمستعربين في هذه الجمعية كثيرة منها على سبيل المثال: البحث والتأليف، والتحقيق والنشر، وعقد الجلسات، وإلقاء المحاضرات، وتبادل الخبرات والأفكار والآراء فيما بينهم في مختلف الشؤون.

وقد احتفلت الجمعية الآسيوية، سنة1922 بالذكرى المئوية لإنشائها، وكانت دول أخرى مثل: بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة وغيرها قد حذت حذو فرنسا بعد إنشاء تلك الجمعية، فأنشأت جمعيات مشابهة تحمل تسميات قريبة منها، نظرا لما تعود به من فائدة عظيمة على الدراسات الشرقية[22]

ومن بين أعضاء الجمعية الآسيوية الفرنسية من المستعربين الفرنسيين،

سنة 1975، كل من: كلود كاهن، وهنري لاوست، وشارل بيلا، وجورج فايدا.

ثم راح هذا النوع من النشاط يأخذ نطاقا أكثر تخصصا وأضيق، فنشأت بذلك جمعيات أو روابط تجمع جهود المهتمين بالدراسات العربية حصرا، كالرابطة الفرنسية للمستعربين L' Association Francaise des Arabisants، التي تأسست في باريس سنة 1973 لتعمل على تطوير تعليم العربية في فرنسا لما لها من أهمية وطنية. وقد أصدرت الرابطة مجلة خاصة بها وبأنشطة أعضائها تسمى: (المستعرب) L' Arabisant[23]

وقد ظهرت في فرنسا رابطة أخرى جديدة تحمل اسم (رابطة تعليم اللغة العربية L' Association de l'enseignement de la langue arabe وواضح أن غايتها المعلنة هي خدمة المؤسسات التعليمية المهتمة بالعربية ومساعدتها في تقديم المشورات أو الخبرات لتطوير أدائها.

5- إصدار المنشورات وتحريرها:

هناك أنواع عديدة من المنشورات التي تعبر عن التعاون الوثيق في العمل بين المستشرقين أو بين المستعربين الفرنسيين، وهي مجتمعة وسيلة من وسائل الدراسة، ومصدر من مصادر البحث يعتمد عليها في كثير من الأحيان لأهمية ما تحويه من جهود كتابها.

ويمكن أن نسمي ما ينشر في هذه المنشورات (الدراسات القصيرة)، في حين أن الدراسات الطويلة تنشر عادة في كتب أو مجلدات قائمة بذاتها. وبعبارة أخرى نقول: إن هذه المنشورات تعتمد أساسا على ما نسميه (المقالة).

وبوسعنا أن نقرر هنا أن هذا النوع من الأنشطة كان أكثر شيوعا وتداولا بين المستعربين الفرنسيين، إذ لم يتأخر واحد منهم عن الإسهام في هذا النشاط كثيرا أو قليلا طيلة حياته العلمية، ولذا فإننا نجد منهم من كان غزير الإنتاج كثير المقالات أو الدراسات القصيرة، ومنهم في الوقت نفسه من كان شحيح الإنتاج قليل المقالات. وفي المدة الأخيرة نجد مريدي هذا المستعرب أو ذاك من تلاميذه ينشرون له بعد وفاته، من باب الوفاء لذكراه في نفوسهم وصونا لتراثه أو آثاره، مجموعة لأهم مقالاته التي كان قد نشرها في مختلف أنواع المنشورات، فيما يعرف ب: «المنتخبات» ويطلق عليه الفرنسيون اسم: Analecta. وكان آخرها مجموعة «منتخبات بلاشير»

التي تضم مقالاته الهامة ودراساته القصيرة التي كان قد نشرها أو بعض مقالاته التي لم يتح لها أن ترى النور، وقد أصدرها المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة 1975 ضمن منشوراته.

وكانت جملة هذه المنشورات تصدر عن هيئات علمية أو مؤسسات دراسية أو مراكز بحوث قادرة على التنفيذ، فهي إذن تعبير عن الجهد الجماعي لا الفردي، وأهم أنواع هذه المنشورات.

1- الصحيفة: (le journaI)

مثل (الصحيفة الآسيوية) المشهورة من باب التجاوز باسم (المجلة الآسيوية): . JA. وتصدرها الجمعية الآسيوية بباريس منذ تأسيسها سنة 1822 إلى اليوم. ويظهر منها عدد واحد كل ثلاثة شهور، وتجمع أعداد السنة الواحدة الأربعة في مجلد واحد مستقل في نهاية السنة.

وهنالك صحيفة أخرى كانت تصدر مطبوعة على الآلة الكاتبة في بداية الأمر، وتهتم بالقضايا الاستعرابية، بعنوان: (المستعرب) L' Arabisant وكانت تصدر عن الرابطة الفرنسية للمستعربين الفرنسيين ويشترك في تحريرها كل من المستعربين أو العرب المقيمين في فرنسا التالية أسماؤهم: كلود كاهن، وجاكلين شابي، وفوزية كليمان بلخياط، وبيلانوا (ج)، وريمون (أ.)، وسيمون فان رييه Riet، وشارل فيال.

2- المجلة: (la revue)

وهي نشرة دورية كبيرة الحجم تحتوي على جملة مقالات أو دراسات قصيرة في المجال الذي اختصت به. ومن أشهر المجلات الاستعرابية التي كانت تصدر فيما مضى من الزمان ثم انقطعت عن الصدور أو مازالت تصدر إلى اليوم:

أ- المجلة الأفريقية (la Revue africaine). وكانت الجمعية التاريخية في الجزائر تصدرها منذ سنة 1856، وتنصب اهتماماتها على الموضوعات المتعلقة بالمغرب العربي أو ما كان الفرنسيون يسمونه (شمال أفريقيا)، إلى جانب الدراسات العربية عامة، ثم انقطعت عن الصدور بعد استقلال الجزائر، أيمما بعد سنة 1962.

ب- مجلة العالم الإسلامي (la Revue du Monde Musulman).

وكانت تصدر ما بين سنتي 1906 و 1926. ثم ورثتها في اختصاصها

(مجلة الدراسات الإسلامية La Revue des Etudes Islamiques، بإشراف ماسينيون. وقد شارك في إصدارها معهد الدراسات الإسلامية في باريس، والمعهد الفرنسي في دمشق، وتظهر مرة كل ثلاثة شهور، ولها ملحق يدعى. Abstracta Islamica, وهو ثبت للمراجع يصدر كل سنة مرة. وتهتم هذه المجلة، كما يبدو من اسمها، بدراسة الشؤون المتعلقة بالإسلام وحضارته ماضيا وحاضرا ومستقبلا. وهي تعرج في اهتماماتها، بطبيعة الحال، على الدراسات العربية.

جـ- مجلة أرابيكا (Arabica):(وقد تخصصت بالدراسات العربية. وكان المستعرب المعروف ليفي-بروفنسال قد أنشأها سنة 1956 بباريس. وهي تصدر مرة كل أربعة شهور، وتجمع أعدادها الثلاثة في نهاية كل سنة في مجلد واحد. وقد تولى رئاسة تحريرها، بعد وفاة مؤسسها سنة 1956 أيضا، ريجيس بلاشير، الذي تخلى بدوره عنها سنة 1962، لأسباب صحية، للمستعرب جيرار لوكونت. ومن أبرز المستعربين الذين كانوا يشاركون في تحريرها أو لا يزالون يشاركون اليوم في ذلك: كاهن، وايليسييف، ولاوست، ولوسرف، ومارسيه، و بيلا، وسورديل، وتروبو، وفايدا، الخ. ولعل هذه الصحيفة من ألصق ما أصدر المستعربون الفرنسيون من صحف بالدراسات العربية، لأنها تهتم بنشر كل ما يتعلق بتأثير الثقافة العربية في الثقافات الغربية ولاسيما الفرنسية.

د-مجلة الدراسات الإسلامية (Studia IslaImica):(وتصدر في باريس مرتين في السنة منذ سنة 1953.

هـ- كراسات الدراسات العربية والإسلامية Cashier d'Etudes arabes et islamiques): صدر العدد الأول منها في كانون الثاني من سنة 1976 عن «وحدة التعليم والبحث في لغات الهند والشرق وشمال أفريقيا وحضاراتها»، ومن أسرة تحريرها: كلود كاهن وأندريه ميكيل.

و-مجلة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية-La Revue de l'Ecole Nation ale des Langues Orientales vivantes. بدأ صدورها سنة 1964، وتوقف سنة 1968. وقد ظهر منها أربعة أعداد فقط، أي بمعدل عدد في السنة الواحدة، وقد كانت تخص الدراسات العربية بحيز ملحوظ على صفحاتها.

3- النشرة: (le bulletin)

وهي من الناحية الشكلية مجلة دورية وإن كانت تحمل اسم (نشرة)، ومن أبرز هذا النوع من المنشورات:

أ- نشرة معهد مصر(:le Bulletin de L' institut d'Egypte) وكان نابليون قد أسس هذا المعهد في القاهرة إبان حملته على مصر، وقد أصدر المعهد نشرته هذه منذ سنة 1859. ومن الواضح أن اهتمامات هذه النشرة كانت منصبة على الدراسات العربية والمصرية منها على وجه الخصوص.

ب- نشرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية(le Bulletin de L'Institut Francais d' Archeologie Orientale). ويصدرها المعهد الفرنسي في القاهرة منذ سنة 1901. وهي كما نرى تهتم بعلم الآثار الشرقية (الحضارات القديمة والحديثة)، وتتناول كذلك الفنون العربية الإسلامية المختلفة، وتصدر سنويا.

جـ- نشرة الدراسات الشرقية (:le Bulletin d'Etudes Orientales) وقد بدأ المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق بإصدارها سنة 1931، وهي حولية لا تزال تصدر إلى اليوم.

د- نشرة الدراسات العربية (:le Bulletin d'Etudes Arabes) وكانت تصدر في مدينة الجزائر منذ سنة 1941.

4- الحوليات (annales) أو السنويات: (annuaires)

وهذا النوع من المنشورات يصدر بهذا العنوان نفسه مرة كل سنة، ومن هذه الحوليات على سبيل المثال:

أ- حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر (Annales de L'Institut d'Etudes Orientales d' Alger): وقد كانت تنشر في باريس عادة منذ سنة 1934. وتتناول بالبحث والمعالجة موضوعات تتعلق بالدراسات العربية.

ب- سنوية معهد فرنسا (:Annuaire du College de France) وتضم هذه السنوية في صفحاتها دراسات تتعلق بما تناوله أساتذة هذا المعهد طوال العام الدراسي من دروس وما قاموا به من أنشطة في مجال الكراسي المتخصصة على اختلافها، ومن بينها ما يتعلق بالدروس والشؤون العربية الإسلامية، وتصدر هذه السنوية في باريس منذ سنة 1900 إلى اليوم. ويمكن أن نضيف إلى هاتين الحوليتين بعض المنشورات السابقة التي لم تحمل اسم (حولية) بصراحة، لأنها كانت تصدر عمليا مرة كل سنة، كنشرة الدراسات الشرقية ونشرة الدراسات العربية وغيرهما على سبيل المثال.

5- الدوريات: (les periodiques)

وهي مجلات تصدر دوريا في وحدات زمنية متساوية (كل شهر، أو شهرين، أو ثلاثة وتسمى في هذه الحالة فصلية، أو كل أربعة شهور وتسمى ثلثية لصدورها كل ثلث سنة، وكل ستة شهور وتسمى نصف سنوية، أو كل سنة بالتمام والكمال وهي تعرف كما رأينا آنفا باسم الحولية لصدورها مرة كل حول أي سنة. ومن هذا المنطلق تدخل في نطاق الدوريات كل أنواع المنشورات ذات الطابع المنتظم في صدورها.

6- المنوعات: (les melanges)

اعتاد المستشرقون والمستعربون الفرنسيون على أن يصدروا دراسات وبحوثا قصيرة يشاركون بها في تكريم أحد كبار زملائهم، ممن كافح طويلا في ميدان الدراسات وقدم جهودا مشكورة ذات نفع عميم للثقافة الفرنسية، ويكون إصدار هذه المنوعات التكريمية في حياة ذلك الزميل أو بعد وفاته لتخليد ذكراه والإقرار بفضله، وتهدئ مجموعة المنوعات عادة إلى روحه إن كان ميتا (أو بتعبير آخر إلى ذكراه)، وإليه مباشرة إن كان حيا. وتنشر هذه المنوعات بعد أن يتم إلقاؤها من قبل كتابها في جلسة تكريم، أو تجمع من غير إلقاء وتنشر مباشرة في مجلد واحد أو أكثر، ومن أمثلة هذا النوع من المنشورات-وهي كثيرة-نذكر:

أ- منوعات مهداة إلى ديمومبين.

1945- 1935, Mellanges offerts a G. Demombynes

ب- منوعات ماسينيون.

Melange L.Massignon, 3t .، 1956-1957

7- الذكريات: (les memoires)

ويتعلق هذا النوع من المنشورات إما بمؤسسة، فينشر مجلد في ذكرى تأسيسها المئوية أو في ذكراها المئة والخمسين مثلا، كالذي صدر في الذكرى المئة والخمسين لتأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية، بعنوان: «الذكرى المئة والخمسين للمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية» الذي صدر سنة 1948. Cent cinquantenaire de L'E.N.L.O.V., 1948 وإما أن ينشر في ذكرى أحد المستشرقين أو المستعربين وفاء له وتكريما بعد وفاته، ومن ذلك مجموعة (دراسات في الاستشراق مهداة إلى ذكرى ليفي-بروفنسال Ettudes d.

de Leve-Provencial ،orientalisme, dediees a la memoires:) j. 2t

8- الأعمال: (les actes)

وهذا النوع من المنشورات يطلق على مجموعة الدراسات والبحوث التي يتم إلقاؤها في مؤتمر ما من مؤتمرات المستشرقين الدولية أو مؤتمر ما من مؤتمرات المستعربين الدورية أو العرضية غير المنتظمة، ويتم جمع هذه الأعمال ونشرها بعد انفضاض المؤتمر واختتام جلساته المخصصة لتلك الدراسات.

ونحن نلحظ من خلان ما تقدم، أن بعض هذه المنشورات يتشابه من حيث الشكل على الرغم من إطلاق تسميات مختلفة عليه: كالصحيفة، والمجلة، والنشرة، والدورية، لأنها تكاد تصدر بحجم واحد متقارب من جهة، وتظهر في أوقات دورية منتظمة من جهة ثانية، مما يجعل التفريق بينها في بعض الأحيان إجرائيا محضا لا علاقة له بالجانب الوظيفي لها.

6- وضع إحصاءات للكتب العربية المنشورة أو المؤلفة عن العرب:

كان هذا النشاط الإحصائي يشغل حيزا من اهتمامات المستشرقين المهتمين بكل ما يتعلق بالعرب وتراثهم وما كتب عنهم في أي مجال من المجالات، ويهدف مثل هذا النشاط إلى حصر الكتب المنشورة عن العرب تحقيقا وتأليفا، تسهيلا على الباحثين وتوفيرا لجهودهم وأوقاتهم التي يمكن أن يبذلوها في قضايا غير إجرائية تكون أكثر مردودا وأنفع لهم في ميدان البحث .

وكان فكتور شوفان V. Chauvin من أبرز من قام بمثل هذه الإحصاءات لما يمكن تسميته بالمكتبة العربية Bibliotheca arabica, إذ وضع إحصائية فريدة من نوعها بعنوان: (مرجعية المؤلفات العربية أو المتعلقة بالعرب المنشورة في أوربا المسيحية من سنة 1810 إلى سنة 1885) la Bibliographie des-ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes publies dans L'Europe chretiennede 1810a 1885

وقد وقع هذا العمل الخطير والمهم في أثنى عشر مجلدا تم نشرها بين سنتي 1892 و1923. وهذا العمل بطبيعة الحال نوع من الفهرسة والتوثيق لمثل هذه الكتب. وقد سجل في هذا الجرد الشامل كل ما وصل إليه علمه

من معلومات عن المؤلفات العربية المنشورة في أوربا، أو عن المؤلفات التي تتناول العرب بالبحث والدراسة من قريب أو بعيد. وقد أفنى في إنجاز هذا العمل عشرين سنة من عمره، إذ كان يستغل أوقات فراغه لإشباع نهمه إلى هذه الهواية عظيمة الفائدة. وقد تمكن خلال هذه المدة المديدة التي لا يستهان بها من الاطلاع على عدد كبير جدا من الكتب، وقلب صفحات أكثر من سبعة آلاف مجلد من المجلات العلمية أو الفهارس أو المرجعيات (البيبليوغرافيات)[24].

يقول شوفان عن دوافعه إلى إنجاز إحصاء مرجعي كهذا. «إن كثيرا من العلماء يكررون أعمالا سبقوا إليها، فينشرون كتبا منشورة من قبل لعدم توفر معلومات مرجعية (بيبليوغرافية) كافية»[25]. ونستشف من ذلك أن غايته التي يهدف إليها كانت توفير الجهود والأوقات على هؤلاء الباحثين بالحيلولة دون تكريرهم العمل في كتب بذلت فيها جهود العلماء قبلهم فأخرجوها، لأن في هذا التكرير هدرا على غير طائل في معظم الأحوال، وهذا هو عينه ما دعا غوستاف دوغا أيضا إلى وضع كتابه المشهور: (تاريخ المستشرقين في أوربا) Histoire des orientalistes de L‘ Europe، إذ كان يترجم في هذا الكتاب للمستشرق، ثم يتبع هذه الترجمة بالحديث عن آثاره، وهو يقول في ذلك. «كم من العلماء الذين انشغلوا في وقت واحد بموضوع واحد، وتناولوا أعمالا قد بحثت من قبل في مؤلفات يجهلونها.. ومن ثم كم من الأوقات المهدورة والاستعمالات المزدوجة قد بذلت ؟»[26]

7- ترجمة دراسات أجنبية عن العرب إلى الفرنسية:

وهدف مثل هذه الترجمة هو الاطلاع على ما كتبه المستشرقون والمستعربون في البلدان الأخرى عن موضوعات عربية للاستفادة منها، ففي الدراسات اللغوية مثلا ترجم جان كانتينو J. Cantineau كتاب (العربية) للمستعرب الألماني المعروف يوهان فوك J. Fuck، ونشرت هذه الترجمة سنة1955. وفي ميدان الدراسات الأدبية ترجم المستعرب الفرنسي المعروف شارل بيلا Ch. Pellat كتاب (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية) للمستعرب الإيطالي المشهور كارلو نالينو C. Nallino, ونشرت هذه الترجمة في باريس سنة 1950.

8- الرحلة إلى البلدان العربية وتسجيل الانطباعات والمشاهدات:

لم يكف عدد لا بأس به من المستعربين والمستشرقين الفرنسيين وغيرهم من الأدباء والشعراء والرحالة الهواة عن القيام برحلات إلى المشرق العربي خاصة يزورون خلالها مدنها الكبيرة وموانئها ومعالمها الأثرية، ويتعرفون طبيعة البلاد وأجواءها وعادات أهلها وأخلاقهم وأزياءهم، إلى غير ذلك من وجوه يرون فيها مظاهر دالة على حقيقة الناس في المجتمعات العربية المشرقية. وكانوا يسجلون أثناء زياراتهم تلك ما يصل إلى علمهم من معارف ومعلومات عن كل ما يمرون به، كما يسجلون مشاهداتهم وانطباعاتهم الشخصية، وربما سجلوا ذلك في خطوط عامة وأفكار رئيسية وفق مخططات معينة لخدمة غاية ما، ثم لا يلبثون بعد عودتهم إلى فرنسا أن يتوسعوا فيها، مطلعين بذلك أبناء جلدتهم على بلاد لا يعرفونها، ويقربون إليهم صورتها الغامضة تقريبا يتيح لهم أن يتصوروها في خيالهم، وكأنهم يعيشون فيها. ومن المسلم به أن لهذا النوع من الكتابات جمهوره الذي يهتم له ويتأثر به كل التأثر ويلتذ كل الالتذاذ في قراءته لما له من سحر خاص في نفوسهم.

ومما يعثر المرء عليه، في هذا المجال من الأنشطة، هذه الأمثلة البارزة:

1- كتاب (رحلة إلى مصر والشام) للكونت دو فولني de Volney, سنة 1783، وقد كان نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية الشهيرة على مصر والشام يتخذه دليلا للمنطقة وأهلها عند نزوله بمصر سنة 1798.

2- كتاب (رحلة إلى سورية ولبنان وفلسطين ومصر) لأنغليس سنة 1799.

3- كتاب (رحلة من بغداد إلى حلب) للقنصل الفرنسي روسو L.J. Rousseau ونشر بباريس سنة 1808.

4- كتاب (دليل المسافر بين طرابلس ومصر) لموتيلنسكي، وهو وصف لرحلته بينهما، ونشر في الجزائر سنة 1900.

ومن الشعراء والكتاب الفرنسيين الذين زاروا المشرق وتركوا آثارا في هذا المجال:

1- شاتوبريان (1848 م) Chateaubriand الذي كتب (عبقرية المسيحية)، وكان قد رحل إلى القدس وخلدها في هذا الكتاب الذي نشر سنة 1802.

2- لامارتين (1869 م) Lamartine الذي وصف رحلته إلى لبنان بكتاب من

مجلدين نشرا سنة 1832 و 1833.

3- دونرفال (1855) de Nerval الذي وصف حياة الشرق في مجلدين أيضا بعنوان: (رحلة إلى الشرق)، سنة 1851.

وقد جمع كاريه Carre أخبار عدد من هؤلاء الرحالة الفرنسيين، على اختلافهم، في كتاب بعنوان: (الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر من الاحتلال العثماني سنة 1517 إلى افتتاح قناة السويس سنة 1869)، ونشره في جزأين ضمن منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة، سنة 1937.

9- الإشراف العلمي على الأطروحات الجامعية:

كان الإشراف العلمي على الأطروحات الأكاديمية التي يتقدم بها طلاب الدراسات العليا في الجامعات الفرنسية، لنيل الدرجات العلمية المختلفة، ولاسيما درجتا دكتوراه الحلقة الثالثة Doctorat du 3eme cycle ودكتوراه الدولة Doctorat d'Etat، من الأنشطة البارزة جدا والملازمة لحياة أكثر المستعربين الفرنسيين الذين كانوا يمارسون التعليم في الجامعات والمعاهد الفرنسية العليا.

ولاشك في أن هؤلاء الأساتذة كانوا يؤثرون تأثيرا عميقا ومباشرا في طلابهم عبر هذه الفعالية العلمية المتميزة، ذلك لأن دائرة اهتمام المستعرب المشرف على أطروحة جامعية ما كانت تدعوه إلى حصر قبول الإشراف- في أغلب الأحوال-بمواضيع تدخل ضمن تلك الدائرة، ويتيح هذا الاختيار مبدئيا تأثير الأستاذ في جملة أفكار الطالب ومواضيع بحثه وحدودها. ويعد هذا التأثير الأول في أطروحات الطلاب، يضاف إليه تأثير ثان في طبيعة تصور الطالب «هيكلية» الموضوع المطروح للمعالجة على بساط البحث، وأعني بها «المنهج» الذي يفضل المشرف اتباعه ويؤثره على غيره من المناهج. ولكل أستاذ، بطبيعة الحال، «منهجيته الخاصة» التي يرتاح لها ويعمد إلى المحافظة عليها ويحاول أن يعدي بها طلابه الذين يشرف عليهم، بغية نشر هذه المنهجية بين الباحثين.

وإذا نظرنا في أنواع الطلاب الذين يشرف هؤلاء المستعربون الفرنسيون عليهم، من حيث انتماءاتهم القومية، فإننا نستطيع حصرهم عموما في:

1- الطلاب الفرنسيين.

2- الطلاب الأجانب ماعدا العرب: ونسبة هؤلاء قليلة جدا عادة.

3- الطلاب العرب: وكان تخرج الطلاب العرب على يد المستعربين الفرنسيين في الجامعات الفرنسية، في اللغة العربية وآدابها، والتاريخ الحضاري للعرب، معروفا منذ مطلع النهضة العربية الحديثة إلى حدود نهاية الحرب العالمية الثانية سنة1945 . ثم أخذت هذه الموجة تنحسر شيئا فشيئا بعد تلك الحرب مباشرة، نظرا لنشأة عدد من الجامعات العربية وتطورها وازدهارها إلى الحد الذي نراها عليه اليوم في كل عاصمة عربية، بل في مراكز المحافظات والأقاليم أيضا، فلم يبق نتيجة ذلك كله سوى ذيول قليلة متفرقة هنا وهناك آخذة طريقها إلى الاضمحلال لأنها تتنافى مع طبيعة الأشياء ومع طبيعة التطور الأكاديمي في الجامعات العربية المختلفة اليوم. ونذكر على سبيل المثال أن كلا من الدكتورين طه حسين وزكي مبارك قد تخرج من جامعات فرنسية، وقد تحولت البعثات لدراسة الأدب العربي عن فرنسا وغيرها إلى مصر أولا ثم إلى غيرها من البلدان العربية.

ونضرب هنا بعض الأمثلة على هذا الإشراف وأثره.

أ- الإشراف على طلاب فرنسيين:

أشرف شارل بيلا-الذي كان قد درس الجاحظ الكاتب الناثر وآثاره- على أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة سجلها المستعرب مارك برجيه M. Berge، في جامعة السوربون (كلية الآداب)، سنة 1961، بعنوان: (أبو حيان التوحيدي الناثر والمفكر العربي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي: حياته، ووسطه، وآثاره»، وقد تمت مناقشتها سنة 1974، ووقعت في ثلاثة مجلدات ضخمة. والتأثير واضح جدا من خلال عدة وجوه.

1- اختيار برجيه تأثرا كبيرا هو (التوحيدي) كما اختار بيلا من قبل تأثرا كبيرا متقدما هو (الجاحظ).

2- ركز برجيه في أطروحته على دراسة (الوسط) الذي ترعرع فيه التوحيدي وجال في أرجائه، وهذا تأثر جلي بتركيز بيلا في أطروحته عن الجاحظ على مسألة الوسط حتى طغت على العنوان فكان: (الوسط البصري وتكوين الجاحظ).

3- تشابه خطة العمل في كل من التوحيدي والجاحظ في كثير من نقاط الدراسة الأساسية.

ب- الإشراف على طلاب عرب:

أشرف شارل بيلا أيضا على أطروحة لنيل درجة دكتوراه جامعة من باريس، سجلها الطالب العربي سعيد البستاني سنة 1961 بعنوان. (ابن الرومي: حياته وآثاره)، وقد نشر الجزء الأول من هذه الأطروحة بالفرنسية في بيروت سنة 1967، ضمن منشورات الجامعة اللبنانية، وقد جاء بعنوان: (ابن الرومي في وسطه). ومن الواضح ما في كلمة (وسطه)، هنا، من آثار منهج الأستاذ المشرف، وقد رأينا هذه الكلمة في أطروحة برجيه آنفا.

كما أشرف ريجيس بلاشير على أطروحة للطالب العربي صالح الأشتر التي سجلها سنة 1950 معه لنيل درجة الدكتوراه، وكان عنوانها: (شاعر عربي من القرن الثالث الهجري: البحتري-حياته وإنتاجه)، وواضح جدا وجه الشبه بين صيغة هذا العنوان وصيغة عنوان أطروحة بلاشير لنيل الدرجة العلمية نفسها، وكان عنوانها. (شاعر عربي من القرن الرابع للهجرة: أبو الطيب المتنبي). وقد كتب إلى الأستاذ الدكتور صالح الأشتر حول ذكرياته عن هذا الإشراف الذي دام من سنة 1950 إلى سنة 1954 رسالة قال فيها بعد وصفه الطريقة التي اتبعها في دراسة البحتري: «هذه الطريقة في دراسة الأدباء موصولة بمنهج الأستاذ بلاشير في كتابه الجامع عن (المتنبي)، .. وقد اهتديت في دراستي للبحتري بهذا المنهج بإشراف الأستاذ بلاشير نفسه»[27].

وربما تعدت هذه التأثيرات المنهجية الطلاب العرب المتقدمين بأطروحاتهم إلى جامعات فرنسية لنيل الدرجات العلمية، إلى الباحثين العرب أنفسهم بطريق غير مباشرة، بل ربما كان للمناهج التي اتبعها طلاب عرب في أطروحاتهم تلك، بإشراف بعض المستعربين الفرنسيين تأثيرات في طلاب فرنسيين جاؤوا بعدهم، كما يتضح لنا من أخذ المستعرب الفرنسي مارك برجيه المذكور آنفا، في أطروحته عن أبي حيان، منهج أستاذنا الدكتور إبراهيم الكيلاني، في تبويب أطروحته التي تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه، بإشراف المستعرب الفرنسي المعروف لوي ماسينيون، وكانت بعنوان: (أبو حيان التوحيدي البحاثة العربي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، وقد نشرها في بيروت، سنة 1950، ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق. ونستطيع القول، من خلال المقارنة بين العملين، إن مادة كتاب الدكتور

الكيلاني الوجيزة المكثفة قد استوعبت في أطروحة برجيه الضخمة، كما أنه أفاد من كل الآراء التي طرحها والنتائج التي توصل إليها، ومن المصادر التي استقى منها مادته أو رجع إليها، ولكن يبقى الفضل في كل ذلك للمتقدم والرائد المنتجع[28].

ونحن نرى، عموما، أن المستعربين الفرنسيين قد أنفقوا، في هذا الميدان من ميادين أنشطتهم، أوقاتا كثيرة، وبذلوا فيه جهودا لا تقدر بثمن، سهروا خلالها على رعاية طلابهم والإشراف عليهم في المراحل المختلفة من عملهم في أطروحاتهم الجامعية التي اختاروها وارتضوا العمل فيها طائعين، خدمة للبحث العلمي وكشفا للحقيقة، وسعيا وراء المجهول. وهم لا يزالون إلى اليوم يمارسون هذا النوع من النشاط الذي يتمثل فيه التجديد والتطوير والإبداع في مجال الفكر البشري ا لخلاق.

6

من أعلام الاستعراب الفرنسي

تكاد حركة الترجمة في أوربا، إبان ثلاثة قرون هي الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر، تكون محصورة في الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وهذه حقيقة خطيرة وهامة جدا في تاريخ التواصل بين الحضارات المتوسطية، وهذا دليل كاف على قوة انفتاح الأوربيين، في أواخر العصر الوسيط، على العرب والحضارة العربية الإسلامية.

وأخذت أوربا، في مطلع عصر النهضة وبعد اتساع الكشوف الجغرافية والاختراعات العلمية والثورة الصناعية، تتجه بأنظارها إلى خارج القارة لبسط سلطانها على العالم الجديد في غربي المحيط الأطلسي، أو لتدور حول العالم مكتشفة طرقا جديدة توصلها إلى المحيط الهندي-بالدوران حول أفريقيا-وما يمتد على سواحله من بلدان تقطن فيها شعوب ضعيفة أو متخلفة ترزح تحت أعباء حكومات إقطاعية أو شبه عبودية. وقد كانت الأوضاع المتفاوتة جدا بين قوة الدول الأوربية وواقع هذه البلدان عاملا حاسما بل حافزا لاحتلالها احتلالا عسكريا مباشرا والسيطرة على إدارتها

ومواردها الاقتصادية لاستنزاف خيراتها وموادها الأولية الخام لتشحن إلى بلدان أوربا لتغذي بها أبناءها ومصانعها ومصارفها وجيوبها والتمتع بأفضل الأشياء وأغلاها. ونحن لا نقصد هنا كل البلدان الأوربية، وإنما تلك الدول العريقة في تاريخها الاستعماري منها، كما أننا لا نقصد كل أبناء تلك الدول الاستعمارية، وإنما تلك الطبقات الحاكمة التي كانت تستغل تلك البلدان المستعمرة أبشع استغلال كما كانت تستغل في الوقت نفسه الطبقات الفقيرة في المجتمعات الأوربية نفسها. وقد تمثل استغلال الشعوب في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بشكل آخر أيضا هو تصدير المواد الأولية التي تم تصنيعها في بلدانهم إلى أسواق البلدان المستعمرة لتصريفها وجني الأرباح الطائلة من ورائها.

وقد دفعت كل هذه الظروف وهذه الثروات الأوربيين دفعا إلى ازدهار حركة الاستعمار المباشر لهذه البلدان الضعيفة والمتخلفة عن ركب التطور العلمي والتقني في أوربا الغربية على وجه الخصوص، ولم يلبث التنافس على امتلاك المستعمرات أن قام بين الدول الأوربية نفسها وولد صراعا مريرا على المسرح الأوربي أولا، وفي المستعمرات ثانيا، فانقسمت هذه الدول الأوربية إلى دول مستعمرة وأخرى محرومة من هذا الاستعمار ومحصورة قهرا في إطار أوربا أو داخل حدودها نفسها.

وكان طبيعيا أن تفكر هذه الدول الاستعمارية في التعرف على شعوب تلك البلدان المستعمرة، ولا يتم مثل هذا التعرف عادة إلا بتعلم لغات تلك الشعوب الشرقية في آسيا وأفريقيا. وكان ذلك تمهيدا طبيعيا أيضا لسائر المعارف الأخرى عن هذه البلدان. كالمواقع الجغرافية، والحاضر السياسي فيها وتاريخها الماضي، وثرواتها الحضارية التي تتمثل بالتراث القديم وثقافتها القائمة، وأديانها ومذاهبها وعادات الناس وتقاليدهم. وباختصار شديد، اتجه هؤلاء الأوربيون إلى اكتشاف عقليات هذه الشعوب وطرائق تفكيرها وسلوكها ومعرفة أسباب التأثير فيها، والاطلاع الدقيق على نقاط القوة والضعف في البنية العامة لهذه العقليات لتتمكن من ضرب نقاط القوة وتفتيتها وإبطال مفعولها من جهة، ولتتمكن من استغلال نقاط الضعف خير استغلال لأحكام طوق السيطرة على هذه الشعوب وبلدانها من جهة أخرى.

ولم يقتصر المستعمرون الأوربيون على هذا وحده، وإنما تجاوزوه إلى حمل لغتهم وثقافتهم ومعارفهم الخاصة إلى هذه الشعوب لتحل شيئا فشيئا محل لغات الشعوب المستعمرة وثقافاتها ومعارفها الخاصة بها، لتتمكن السيطرة عليها من الداخل ويسهل عليهم بالتالي شدهم إلى فلكهم بتبعية دائمة لا تزول، فيما اصطلح على تسميته في أيامنا بـ «غزو العقول» أو «الغزو الثقافي». يضاف إلى ذلك أنهم حملوا معهم كثيرا من فنونهم، وعاداتهم، وأخلاقياتهم، وفلسفاتهم، وأزيائهم، وحتى ألوان طعامهم إلى الشعوب المستعمرة لعلهم يغرسونها في نفوسهم ويحلونها محل ما يقابلها عندهم من خصوصيات. وربما حملوا معهم كذلك الديانة المسيحية بحسب المذاهب المنتشرة في بلدانهم إلى الشعوب الوثنية التي ليس لها ديانات قوية، بل عمدوا إلى نقل المسيحية إلى كثير من البلدان التي تنتشر فيها ديانات قوية كالإسلام والبوذية والهندوسية على أيدي المبشرين المبعوثين خصيصا لهذا الغرض: غرض التبشير والدعوة، ليتم بذلك ضمان ربط المستعمرات روحيا أيضا بالمراكز الدينية العليا في أوربا. وهذه هي الحال التي آل إليها كثير من الشعوب الأفريقية والآسيوية بانتصار السيطرة اللغوية(وعلى سبيل المثال انتصار اللغتين الفرنسية والإنجليزية)، وبانتصار السيطرة الروحية.

وكان من أهم الشعوب التي لفتت انتباه المستعمرين الأوربيين إليها قي وقت مبكر: العرب الذين كانت بلدانهم-فيما عدا المغرب الأقصى-تابعة للسلطان العثماني ابتداء من أواخر العقد الثاني من القرن السادس عشر، وكانت شكل أكبر جزء من أراضي السلطنة العثمانية التي كانت تؤمن بالإسلام دينا رسميا للدولة، وتتخذ التركية في الوقت نفسه لغة للسيادة (أي الحكم والإدارة على وجه الخصوص)[1].

وقد كانت علاقات الأوربيين مع العرب-في الفترة التي كانت الدولة العثمانية فيها قوية عسكريا وكان الأوربيون عاجزين عن الدخول في حرب مباشرة معها-تقتصر على العلاقات السياسية والتجارية على الأغلب، وكانت العلاقات السياسية تتم عن طريق الباب العالي ومن خلال السلطان العثماني وجهازه الحاكم. وكان العثمانيون آنذاك يفرضون على المنطقة العربية طوق عزلة شبه محكم عن العالم الخارجي وما يجري فيه من تيارات، فعاش

العرب في قوقعة السلطان التركي منغلقين انغلاقا تاما عن تطور ركب الحضارة والتطور العلمي والتقني إلى أن هبت نسماتها مع بزوغ فجر النهضة الحديثة.

وكان هؤلاء الأوربيون الطامحون إلى تمزيق هذه الدولة وتقاسم أجزائها ينشطون للعمل فيها إبان فترات الضعف والانحطاط، وكانوا يتدخلون حسب مصالحهم: تارة مع الدولة العثمانية ضد أعدائها في الداخل أو الخارج، وتارة أخرى مع أعدائها هؤلاء، حتى كانت حملة نابليون العسكرية على مصر والشام أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وهي الحملة التي فتحت الصفحة الأولى في تاريخ العرب الحديث، وكانت خطوة عملية لدحر السلطان العثماني، بعد أن كانت هنالك محاولات إسبانية لاحتلال سواحل الشمال الأفريقي، ومحاولات برتغالية لاحتلال سواحل بحر العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وتلت تلك المحاولات محاولات إنكليزية وفرنسية كتب لبعضها الإخفاق (حملة فريزر على مصر سنة 1807) ولبعضها الآخر النجاح (الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830، الخ) في القرن التاسع عشر. ثم كان استعمار سائر البلدان العربية في العقد الثاني من القرن العشرين (إذ استعمرت إيطاليا ليبيا سنة 1911- واستعمرت فرنسا المغرب الأقصى سنة 1914، ثم الساحل السوري سنة 1918 والداخل سنة 1920- واستعمرت بريطانيا العراق سنة 1914، ثم فلسطين 1917، ثم الأردن سنة 1920).

وهكذا نلحظ أن اللغة العربية كانت، بحكم هذه الأطماع الاستعمارية الأوربية في البلدان العربية، على رأس قائمة اللغات المهمة للقوى المستعمرة المؤثرة فيها (وهي: إسبانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا على وجه الخصوص). وكانت فرنسا، في الواقع، من أكثر هذه الدول اهتماما باللغة العربية منذ وقت مبكر: إذ قام الملك فرانسوا الأول سنة 1530 بإصدار أوامره بالاهتمام بها وتعليمها في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس). وقد تابع الملك-الشمس لويس الرابع عشر اهتمامه بتعليمها في مدرسة فتيان اللغات إلى جانب التركية والفارسية، بوصفها جميعا لغات إسلامية بارزة ومفيدة آنذاك لخدمة الصلات والمصالح والمطامع الفرنسية بدول الشرق الأدنى القريبة إلى الساحة الأوربية أكثر من غيرها من البلدان الشرقية.

ثم تابعت الثورة الفرنسية هذه الجهود وأضفت عليها طابع الجدية والعمق والاستمرارية والرسوخ أكثر من أي وقت مضى من قبل، وذلك بتأسيسها المدرسة الشهيرة باسم (المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية)[2] سنة 1795، أي قبل حملة نابليون بثلاث سنين فقط.

وكانت ثمرات المدرسة الأخيرة أنضج وأحلى من ثمرات المدرستين الآخرين، نظرا لإرساء أسس ثابتة ودائمة لتعليم العربية الفصحى واللهجات العربية العامية من مشرق الوطن العربي ومغربه على حد سواء، ولظهور عدد من المستعربين الكبار المتمكنين من العربية والدراسات العربية بأنواعها كافة، ولنشأة تيارات ومدارس استعرابية متعددة وقوية في فرنسا كان لها تأثيرات ملحوظة في أوربا عامة.

وقد ظهرت في فرنسا-إثر مدرسة اللغات الشرقية هذه-مؤسسات علمية وأكاديمية ثابتة وراسخة ومستمرة، ولها تقاليدها الواضحة، فحلت محل الجهود الفردية الضعيفة والمتناثرة التي كانت تخضع للرغبات والنزوات الآنية وتتحكم فيها جملة من الظروف والأهواء السياسية المتباينة، وانتهى بذلك عهد وبدأ عهد آخر في تاريخ الاستعراب يقوم على سياسة ثابتة عند الدولة والمجتمع الفرنسي في هذا المجال.

وجاء احتلال الفرنسيين الجزائر، سنة 183 دفعا قويا جدا للدراسات العربية في فرنسا، إذ ازدهرت ازدهارا عظيما، إلى حد أن معظم المستعربين الذين برزوا في ميدان الاستعراب الفرنسي، كانوا قد تكونوا كليا أو جزئيا في المدرسة الجزائرية، أو درسوا على أيدي من تكونوا فيها على أقل تقدير، ذلك لأن المستعربين أصبحوا على اتصال مباشر بالتراث العربي وعلى احتكاك قوي بجزء من الأمة العربية وجها لوجه. وقد عبر المستعرب الفرنسي هنري ماسية,H. Masse في مقالة طويلة جدا له[3]، عن جوانب هذا الازدهار في الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وكشف النقاب فيها عن محاولات الفرنسيين فرنسة الشعب العربي في الجزائر والمراحل التي كانت مرسومة لتنفيذ هذه السياسة. وفي الحقيقة، تشكل (المدرسة الجزائرية في حركة الاستعراب الفرنسي) موضوعا قيما لدراسة مستقلة قائمة برأسها نظرا لأهميتها الخاصة في هذا ا لميدان.

وقد مر بنا في فصل سابق أن المستعربين الفرنسيين وبعض عملائهم

من المشارقة كانوا يعاونون الجيوش الفرنسية الغازية للبلدان العربية في أعمال الترجمة والوساطة في التفاهم بينها وبين الشعوب العربية في تلك البلدان. ويتضح لنا، من ذلك، مدى التداخل بين الأهداف العلمية والأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية للاستعراب، وهذا أمر مفروغ منه في نظرنا، لأن المستعربين، أغلبهم إن لم نقل كلهم، كانوا يرون في ذلك خدمة وطنية أو واجبا قوميا لشعوبهم ودولهم يؤدونه عن طيب نفس وخاطر.

وكان المستعربون عموما يتفاوتون عادة كما هي طبيعة الأشياء في قدراتهم على التعامل مع اللغة العربية، ولذا نجدهم يتدرجون مثلا: من مستعرب يتكلم العربية بطلاقة كأهلها ويقرأ بها النصوص وينشئ بها البحوث والدراسات ويفهم من أهلها ما يلقى على أسماعه منهم ويحاورهم (كما هي حال ماسينيون، وبلاشير، وجاك بيرك، وميكيل على سبيل المثال)، وهؤلاء يعدون في الدرجة العليا من سلم الاستعراب، إلى مستعرب لا يجيد الكلام بالعربية ولا فهم الحوار فيها ولكنه يكون قادرا على فهم نصوصها فهما تاما وينشئ بها بعض ما يضطر إلى إنشائه اضطرارا عند الحاجة الماسة، ويمكنه قراءة نصوصها بصوت عال من الكتب والأوراق التي بين يديه (كما هي حال الغالبية العظمى من المستعربين الفرنسيين حتى اليوم ونموذجهم المجلى في ذلك دوساسي).

وهنالك تفاوتات أخرى بين المستعربين تتعلق بميول كل منهم واهتماماته التي تستقطب جهوده وتستغرقها وتوجهها. وتكون هذه الميول خاضعة لتأثيرات شتى ذات صلة بعوامل نفسية أو استعدادات فطرية وبتوجيهات تربوية عن طريق التلقين أو الإيحاء أو القدوة والتقليد، وربما كانت ذات صلة أيضا بظروف البيئة والنشأة التي تحيط بالمرء، فتتحكم في تكوين اهتماماته وفي رسم طريقه المستقبلي، ذلك لأن البيئة قد تضع بين يدي مستعرب مالا تضعه بين يدي مستعرب آخر، وقد تجعله يتفتح على موضوعات لم تتوفر لغيره، ولذا فإننا لا نجد مستعربين اثنين متشابهين أو متطابقين تمام التطابق في الميول والاهتمامات مهما كانت الظروف، وهذا يعني أن كلا من المستعربين كانت له موضوعاته التي يهتم بها، واتجاهاته الخاصة، وطريقته في العمل والفهم، ومنهجه في البحث، وشخصيته المستقلة في الأداء. وسوف نلحظ كل ذلك في الفصل الراهن الذي نتناول فيه

ترجمة خمسة من أعلام المستعربين الفرنسيين من أيام الثورة الفرنسية إلى يومنا هذا، كنا قد انتقيناهم ليكونوا نماذج لحركة الاستعراب الفرنسي بخطوطها العريضة، وذلك من بين أكثر من مئتي مستعرب ظهروا في الفترة الراسخة والمستمرة من تاريخ الاستعراب الفرنسي، أي منذ مطالع القرن التاسع عشر إلى اليوم. ومن الجدير بالذكر هنا أن من هؤلاء المستعربين الكثر من قصر اهتمامه على الدراسات العربية والإسلامية، ومنهم من كان يمد هذا الاهتمام إلى الدراسات التركية والفارسية أو يمزجها بدراسات مقارنة بالحضارات العربية القديمة العريقة التي كانت قائمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ومن شاء الاطلاع على تراجم هؤلاء المستعربين الذين ظهروا في فرنسا جملة عبر هذا التاريخ للتعرف على حياتهم وآثارهم عموما، فليعد إلى مظان هذه التراجم بالعربية أو الفرنسية أو الألمانية، ومن أبرزها:

1- «تاريخ المستشرقين في أوربا» (ومن بينهم الفرنسيون) لغوستاف دوغا:

- 1868, Paris . ،G.Dugat, l‘ Histoire des orientalistes de l‘ Europe, 2 t 1870.

2- «تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا:< وهو كتيب وضعه بالعربية المستعرب النمسوي يوسف جيرا، ونشره في القاهرة سنة 1929.

3- «الأعلام»: وهو بحسب العنوان الفرعي التوضيحي الذي وضعه له مصنفه وجامع تراجمه خير الدين الزركلي (قاموس لأبرز أعلام العرب والمستعربين من رجال ونساء) ويقع في 11 جزءا رتبت الأعلام فيها ترتيبا هجائيا متسلسلا.

4- «الدراسات العربية في أوربا»: وقد ألفه المستعرب الألماني المشهور يوهان فوك: J. Fuck, Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955,

5- «المستشرقون:< وقد جمعه وصنفه نجيب العقيقي، ووضع تحت عنوانه توضيحا نصه (موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنهم، منذ ألف عام حتى اليوم)، وقد وقع هذا الكتاب بطبعته الثالثة الصادرة عن دار المعارف بمصر في ثلاثة مجلدات ذات ترقيم متسلسل: الأول سنة 1964، والثاني والثالث سنة 1965 (بلغ عدد صفحاته 1414 صفحة). وقد استقى المصنف مادته من مختلف المصادر الاستعرابية والاستشراقية

بلغاتها الأصلية أو عن طريق ما ترجم منها إلى العربية، ويعد المصدر الثر والواسع الوحيد في بابه. وعلى الرغم من سعة هذا الكتاب وغنى مادته وتنوعها وتغطيتها غالبية البلدان الأجنبية في العالم، فإن لنا عليه ملاحظات ربما كان أكثرها عائدا إلى طبيعة الموضوع وتشعب آفاقه تشعبا مريعا ومنها: إغفاله قائمة المصادر التي اعتمد عليها في جميع مادته. وعدم تمييزه في آثار المستشرق الواحد بين كتبه ومقالاته بحدود فاصلة ترفع اللبس بينها. وعدم إثبات عناوين الكتب أو المقالات بلغتها الأصلية لتدقيق الإفادة منها. وعدم إلمامه بكل آثار المؤلف الواحد منهم، وإغفال كثير من تفاصيل حياة المستشرق والمناصب التي شغلها في حياته. وذكر تراجم لمستشرقين ليس لهم أي صلة قريبة أو بعيدة بالعرب والتراث العربي. إلى جانب بعض الأخطاء في التواريخ والأرقام أحيانا. إلا أن عذر المصنف في كل ذلك قوي وواضح، لأن ما أنجزه بجهوده الفردية تكاد المؤسسات الكبيرة في وطننا تنوء بحملة. ومما يذكر أن طبعة الكتاب الأولى كانت في مجلد واحد عادي الحجم ثم توسع في طبعته الثانية إلى أن آل إلى حجمه الضخم في الطبعة الثالثة ويمكن أن يبلغ حجمه عشرة مجلدات على سبيل المثال حتى تتم الإحاطة الوافية بمادته أو تكون قريبة من ذلك.

يضاف إلى هذه المصادر بعض الدراسات المفردة لدراسة مستعرب بعينه وتتبع مراحل حياته وآثاره بالتفصيل والتدقيق والنقد والتحليل الوافي لكل جزئية منها وكل فكرة كانت تنتشر متفرقة من حين لآخر، إلى جانب المقالات التي كانت تنتشر في بعض المناسبات، ولاسيما المناسبات التأبينية منها، في بعض الدوريات الاستعرابية أو الاستشراقية على حد سواء. وفي مثل هذه الأعمال مواد وافية أو مختصرة عن هذا المستعرب أو ذاك.

ومن أبرز المعايير التي راعيناها في اختيار الأعلام الخمسة من المستعربين الفرنسيين للترجمة لهم هنا: (الشهرة)، نظرا لتمايزهم في هذا المعيار، ذلك أن منهم العلم المعروف في أوساط العلماء من المستشرقين والمستعربين والعرب داخل فرنسا وخارجها، كما أن منهم المغمور الخامل حتى في أضيق الأوساط الثقافية. وهذه الشهرة غالبا ما تكون ناجمة من المعايير الأخرى كـ (غزارة الإنتاج العلمي) وأهميته، و(تعدد الاتجاهات والجوانب) التي يتطرق إليها ويتناولها في آثاره. و(العمق) في معالجة

موضوعاته وما يتعلق بذلك من (أصالة) و(إبداع) من خلال امتلاكه منهجا خاصا به ومتميزا و(تكوين تلاميذ ومريدين) في فرنسا وخارجها يكونون معجبين بشخصيته وآثاره ومنهجه، ويكنون له الاحترام والتقدير، لأن هؤلاء هم الذين يرسمون لأستاذهم هالة الشهرة وذيوع الصيت مع الزمن.

ولاشك في أن المتتبع لجهود كل مستعرب من هؤلاء الذين تنطبق عليهم هذه المعايير، سيجد أن لكل منهم اهتماما رئيسيا يدور حوله في عظم آثاره، لا يكاد يبتعد عنه حتى يثوب إليه، وهذا الاهتمام أشبه بالمحور أو المركز أو النواة بالنسبة للأشياء. وسنرى هذه الحقيقة ماثلة فيمن سنترجم لهم في هذا الفصل بكل وضوح:

1- سلفستر دوساسي (1758-1838)[4]:

ولد (أنطوان-إسحاق سلفستر دوساسي) في باريس في الحادي والعشرين من شهر أيلول سنة 1758. وكان أبوه أبرهام-جاك سلفستر دوساسي يعمل كاتب عدل، وقد توفي هذا الأب سنة1765، مخلفا ابنه صغيرا في حضانة أمه التي كان لها دور كبير في رعايته وتربيته وتثقيفه، وكان هذا الابن هزيل الجسم ضعيف البنية معتل الصحة.

وقد أظهر دوساسي منذ نعومة أظافره ميلا إلى الدراسة، وربما كان ذلك ناتجا عن إشباع أمه لرغباته القلبية وتهيئة الجو لتفتح قدراته العقلية الكامنة، وكانت ميوله الأولى تكشف عن اهتمام بالشؤون الدينية، ويروى أنه كان متأثرا بطريقة دير (بور رويال) Port-Royal، معقل المذهب اليانسيني[5] Jansenisme ولذا فقد بدأ بدراسة اللغة العبرية ليحقق الترجمات اللاتينية والفرنسية لـ (لكتاب المقدس) La Bible أي: التوراة أو ما يعرف عند علماء اللاهوت بالعهد القديم. وكان يلتقي في أحد الأديرة برجل دين يهودي ويطرح عليه أسئلة ويتلقى عنها الإجابات[6].

كانت هذه الخطوة بداية رحلة دوساسي في عالم الاستشراق والاستعراب، إذ اندفع بعدها إلى محاولة التعرف على اللغات القريبة للغة العبرية، وهي التي أطلق عليها خطأ آنذاك بتأثير الدراسات التوراتية اسم (اللغات السامية)[7]، ولذا اتصل بباحث في النصوص العربية يدعى دوم برترو Dom Berthereau كان له الفضل الأكبر في توجيه الشاب دوساسي إلى

دراسة اللغة العربية وتشجيعه، إذ كان يتنبأ له بقدرات هائلة على البحث.

ولم تكن اللغات الشرقية، مع ذلك، تستقطب اهتمام دوساسي ولا جهوده في فترة شبابه الأولى، إذ اتجه إلى تعلم لغات أوربية حية كالألمانية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية، وانتظم في دروس مدرسة الحقوق بباريس.

وقد نشر دوساسي، سنة 1780، ملخصا لمخطوطة سريانية في المكتبة الملكية (الوطنية اليوم) بباريس، ضمن المجموعة المسماة (الفهرسة) أو (الفهارس)-Reper torium، ثم نشر فيها، سنة 1783، نص رسالتين من القرن السادس عشر مبعوثتين من السامريين[8] إلى يوليوس سكاليجر[9] J. Scaliger مع ترجمة لهما. وقد أدت مثل هذه الأعمال الأولى والمبكرة إلى شهرته في ميدان البحث، مما دفع بالملك إلى أن يستدعيه سنة1785 لشغل واحد من ثمانية أمكنة للأكاديميين الأحرار المقيمين، التي أسست في أكاديمية النقوش والآداب، فظل وفيا لمنصبه هذا طيلة حياته.

وكان دوساسي قد عين، سنة 1781، في وظيفة مستشار بديوان النقود، واستمر فيها إلى أن عينه الملك مفوضا عاما للنقود، وبقي فيه إلى أن استقال منه بعد الثورة سنة 1792.

ونستطيع أن نلم بالتكوين العلمي لدوساسي من خلال أحاديثه واعترافاته، إذ نراه يقول مرة في كلمة كان قد ألقاها، سنة 1810، أمام الهيئة التشريعية، لتقديم كتابه في (النحو العربي): «كانت دراسة الآثار الأصلية للدين هي الموضوع الأول الذي دفع بعض العلماء إلى أن يقفوا جهودهم على اللغة العبرية التي كتبت بها أقدم آثار العصور الأولى في العالم. وقد ارتأيت بعد ذلك أنه لدخول هذا الحرم وتذليل صعابه كان يجب أن تضاف إلى تلك اللغة دراسة لغات تم حفظها في كثير من الآثار، أو مازالت مستعملة في بعض أنحاء آسيا.. ، وهكذا كانت دراسة اللغة العربية»[10]. وإذا كان في هذه الأحكام مغالطة تاريخية، فعذر صاحبها أن الكشوف الأثرية لم تكن معروفة بعد حين أطلقها، ولأن هذا هو ما كان سائدا في أيامه من أفكار وآراء، قبل أن تكتشف الكتابات والأبجديات القديمة في المشرق العربي، وخاصة الشام والعراق ومصر.

ويبين دوساسي، في رسالة جوابية يبعث بها إلى أحد المشرقيين المعجبين بعمله، جوانب أخرى من تكوينه العلمي إذ يقول: «وأنت تريد أن تعلم إذا ما

كان لي شيوخ علموني اللغة العربية.. ، وإني أستطيع أن أؤكد لك أنه لم يكن لي من معلم سوى الكتاب. وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية شيئا، ولا أفهم ما يقال بها، إذ لم تتح لي في شبابي أي فرصة لممارسة الكلام أو الاستماع للأحاديث بالعربية. وقد أطريتني كثيرا بما قلته لي عن مؤلفاتي، وعلي أن أقر لك بأنني آسف لأني لم أرحل في شبابي إلى مصر أو الشام، وبأنني بعيد جدا عن امتلاك معرفة تامة بهذه اللغة الواسعة كالمحيم»[11].

نستنبط من هذا النص أن دوساسي كان يقرأ النصوص المكتوبة ويفهمها ويترجمها إلى الفرنسية، إلا أنه لم يكن قادرا على تبادل الحديث بها مشافهة مع محاور من العرب أو غيرهم. كما أنه غير قادر كذلك على فهم حديث يستمع إليه، وقد وصفه الشيخ رفاعة الطهطاوي حين كان مع البعثة الدراسية المصرية بباريس بقوله: «وحين يقرأ ينطق كالعجم، ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب»[12].

كان دوساسي قد تزوج سنة 1786، انسحب إلى الريف سنة 1792 بعد أن قدم استقالته من عمله، بسبب الاضطرابات الثورية العنيفة التي كانت تجري في باريس، وأقام في منزل بقرية هادئة تدعى (لابرى)La Brie, وانصرف فيها إلى الراحة، وانكب على القراءة والتأليف. وكان من ثمار هذه الفترة كتابه: (بحوث حول العاديات الفارسية القديمة) Memoires sur Les antiquites de La Perse.

وكأن دو ساسي، من الناحية السياسية، معارضا للثورة الفرنسية، وكارها تعاليمها وإجراءاتها وأعمالها الفوضوية كما كان يراها من وجهة نظر معاصرة للأحداث، وكان في دخيلته يحن إلى العهد الملكي البائد، ويحتفظ له في قلبه بالمحبة والوفاء، وظل متمسكا بموقفه هذا طيلة حياته، غير مبال بالمناصب والألقاب التي حبته بها حكومة الثورة من جهة وحكومة نابليون الإمبراطورية من جهة أخرى.

وقد اختير المواطن سلفستر دوساسي-بحسب التعبير الثوري آنذاك- عندما أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية، في الثلاثين من آذار سنة 1795، مرسوم تأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية، لشغل كرسي اللغة العربية فيها، وابتدأ فعلا بتدريسها في حزيران من سنة 1796. وقد رفض أداء اليمين السياسية التي كانت الحكومة تفرضها على موظفيها، قبل مباشرتهم

العمل, ولهذا قرر أن يستقيل من هذا المنصب، وأن يشغله مؤقتا حتى يعثر على بديل له يحل محله في تعليم العربية، غير أن هذا البديل لم يتوفر في هذه الفترة، ثم تغيرت الظروف، فاستمر في منصبه إلى آخر حياته.

كانت العربية، في بداية حياة دوساسي، واحدا من اهتماماته المتنوعة، إلا أنها قفزت فجأة لتحتل المرتبة الأولى والأساسية بين هذه الاهتمامات، حين عين في كرسي العربية المذكور آنفا، فأخذ يجمع جهوده حولها، وراح يعب المعارف المتعلقة بها وبالأدب العربي عبا وبنهم شديد استغرق منه أكثر أوقاته وجهوده تقريبا.

ورشح دوساسي، سنة 1799، لشغل كرسي اللغة العبرية في المعهد الملكي (كوليج دو فرانس)، غير أنه لم يباشر العمل فيه. وعين، سنة1806، في كرسي اللغة الفارسية في المعهد نفسه، فزاول التدريس فيه إلى سنة وفاته.

وبإمكاننا أن نقول إن التدريس كان محور كل الأنشطة العلمية التي قام بها دوساسي، منذ تعيينه مدرسا للعربية إلى أن حانت وفاته سنة 1838، أنه من هذا التدريس كان ينطلق وإليه كان يعود. ولذا فإننا نكاد نلمس الطابع التعليمي في كل أثر من آثاره التي أنتجها عبر مسيرته العلمية، وبه حقق شهرة واسعة في عالم الاستشراق عامة والاستعراب خاصة، كما سنرى لاحقا في هذه النبذة الترجمية.

عمل دوساسي، في سنتي1797 و 1798، على إملاء دروس في قواعد اللغة العربية على طلابه، فكانت تمهيدا عمليا لتأليف كتابه. (النحو العربي)- La Gram maire arabe الذي وقفه على طلاب المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية بباريس، وقد وقع هذا الكتاب في مجلدين، وظهرت طبعته الأولى سنة1810، والثانية سنة 1831، بعد أن أضاف إليه بحثا في «علم العروض العربية»، وقد وضع لهذا الكتاب عنوانا عربيا على الطريقة السجعية التي كانت متبعة في العصور المتأخرة في تسمية الكتب، وهو. (التحفة السنية في علم العربية)، وقد أطلع على هذا الكتاب القيم، ذي الأثر الكبير في عصره، الشيخ رفاعة الطهطاوي، حين كان في باريس يطلب العلم، وهو الذي أغراه بتأليف كتابه النحوي الذي أسماه تسمية قريبة منه هي: (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية)، متأثرا بطريقة دوساسي في ترتيبه وتبويبه، وقد صدر سنة 1869 في مصر.

وكان دوساسي قد ألف، سنة 1799، كتابا بعنوان: (أصول النحو العام الموضوعة في متناول الأولاد والمستعملة مدخلا إلى دراسة جميع اللغات) Principes de grammaire generale, وكان للعربية فيه نصيب قليل جدا، وطبع هذا الكتاب مرارا: الطبعة الأولى سنة 1799، والرابعة سنة 1824.

وكان كتاب دوساسي في النحو العربي، في الحقيقة، استجابة للمادة الرابعة من مرسوم الجمعية الوطنية القاضي بتأسيس مدرسة اللغات الشرقية، وتنص على ضرورة تأليف أساتذة المدرسة كتبا في نحو اللغات التي يعلمها كل منهم.

ولم يكن نشاط دوساسي مقصورا على هذه الأعمال المذكورة حتى الآن، وإنما صاحبها أو أعقبها بأعمال عديدة في ميادين شتى، فقد نشر، سنة1806، مجموعة مختارات أدبية شهيرة عرفت باسم: Chrestomathie arabe، وقد وضع لها عنوانا مسجوعا هو: (كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد)، ووقعت في ثلاثة مجلدات، متنا وترجمة فرنسية، وشملت مختارات من آداب العرب وعلومهم المختلفة، وقد أعيد طبعها سنة 1827، وهي كما نلحظ موجهة إلى وسط تعليمي يتمثل في طلاب العربية خصوصا.

ونشر، سنة 1829، كتابا يهتم بالقضايا النحوية اختار نصوصه من كتب النحويين العرب القدماء، وأسماه. (مختارات نحوية عربية)-Anthologie grammaticale arabe.

وكان قد نشر، سنة1811، كتاب: (الإفادة والاعتبار) لمؤلفه عبد اللطيف البغدادي، وهو في وصف مصر، متنا وترجمة معا، وقد أفاد من مادته مؤلفو الكتاب المشهور باسم: (وصف مصر) Description de l'Egypte, الذي تم وضعه بعد العودة من الحملة على مصر.

وترجم إلى الفرنسية، سنة 1799، بحوثا متعلقة بالنقود والأوزان والمكاييل الرسمية في الإسلام من كتاب: (الخطط) للمقريزي.

وحقق دوساسي نصوص (مقامات الحريري) مقابلة على مخطوطات عدة، وعاد إلى شروحها العربية المختلفة وجمع منها شرحا مختارا لها، ونشرها متنا فقط بموجب مرسوم إمبراطوري سنة 1812، تم طبعها بالمطبعة الإمبراطورية، وكتب لها بالعربية مقدمة مسجوعة أدهشت الطهطاوي، فنقلها في كتابه: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)[13]. وكان دوساسي

قد اختار في مختاراته (الأنيس المفيد) عددا من هذه المقامات وترجمها إلى الفرنسية.

ونشر دوساسي، بحكم اهتماماته بالنحو العربي، (ألفية ابن مالك)، متنا وترجمة معا، إضافة إلى الشرح والتعليق، وذلك سنة 1834.

وكان قد نشر من قبل، بين سنتي 1816 و 1822 القصص المنسوجة على ألسن الحيوانات والطيور: (كليلة ودمنة) مع مقدمة تعرف بهذا الأثر الأدبي الذي بات أثرا عالميا بعد أن مر برحلة طويلة من الأدب الهندي إلى الأدب الفارسي، ومنه إلى الأدب العربي، وقد فقدت كل الأصول الهندية والفارسية له، ونقل عن العربية وحدها إلى الآداب العالمية المختلفة. وكانت له آثار واسعة وعميقة في أدب الأطفال على وجه الخصوص.

وقد أدرج جورج سلمون G. Salmon، في كتابه الذي نشره عن دوساسي ضمن منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة، في مجلدين سنة 1905، ثبتا بأعماله بعد إحصائها وحصرها، فوجدها تبلغ أربعمائة وثلاثين عملا منشورا في حياته ما بين سنتي 1783 و1838، إضافة إلى أربعة أعمال نشرت بعد وفاته. وتتراوح هذه الأعمال ما بين مؤلفات، وتحقيقات، ومترجمات، واختيارات، وتلخيصات، ومقالات. وكان معظم هذه الأعمال يتعلق بالعربية وآدابها والباقي يتعلق بلغات أخرى كالفارسية.

وقد شغل دوساسي مناصب هامة وكثيرة في حياته المديدة بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه آنفا، ولنذكر منها مثلا شغله منصب رئاسة جامعة باريس، في عهد عودة الملكية البوربونية في فرنسا حتى بداية حكم الأيام المئة النابليونية، وبعد انتهاء هذه الفترة القصيرة عين في لجنة التعليم العام، وأصبح مديرا لمعهد فرنسا (كوليج دو فرانس) من سنة 1823 إلى سنة وفاته1838 كما شغل منصب مدير للمدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية أيضا سنة 1824 وبقي فيه إلى سنة وفاته أيضا.

وتم تأسيس (الجمعية الآسيوية) La Societe Asiatique ، في باريس، سنة 1822، بمبادرة من دوساسي وبالتعاون مع آبل ريموزا A. Remusat، لتكون رابطة للمستشرقين الفرنسيين تنظم جهودهم وتنسق فيما بينهم في تعاون تام وتبادل للفائدة، من أجل تكوين معرفة موحدة شاملة لجميع فروع الاستشراق الموجودة في باريس، وكانت الدراسات العربية آنذاك من أبرز

الدراسات الشرقية في هذه الجمعية عند تأسيسها، وأخذت فروع أخرى من الاستشراق تزاحمها في هذه الجمعية مع مرور الوقت، وقد شغل دوساسي منصب رئاسة هذه الجمعية من سنة1822 إلى سنة 1829، ثم خلفه فيه يموزا من سنة 1829 إلى سنة 1832، ثم عاد دوساسي إلى هذا المنصب ثانية من سنة 1832 إلى سنة 1834، ثم استقال منه لأسباب صحية. ومما يذكر هنا أن هذه الجمعية الباريسية كانت النموذج الذي سرعان ما احتذته دول أوربية عديدة لخدمة حركة الاستشراق فيها مثل هذه الخدمة.

وكان دوساسي قد حمل كذلك عبء مسؤولية المطبعة الملكية، وشغل منصب أمين المخطوطات الشرقية في المكتبة الملكية (الوطنية اليوم)، وعمل أمين سر في أكاديمية النقوش والآداب مدى الحياة، ومنح عدة ألقاب وأوسمة، وانتخب لمختلف الدرجات العلمية في المجامع والجمعيات العلمية في عدد من مدن أوربا، وعمل ممثلا لمقاطعة السين في الجمعية الوطنية الفرنسية.

وكان، إلى جانب ذلك كله يشارك في تحرير-المجلة الآسيوية-Le Journal as itique, التي أنشئت سنة 1822، في الجمعية الآسيوية لتستقطب أنشطة أعضائها العلمية، ولا تزال تصدر عنها إلى اليوم، كما كان يحرر المقالات في عدد من الدوريات والمجموعات الأخرى في فرنسا.

ولم يكن دوساسي يكن للإمبراطور نابليون أي حب، على الرغم من سعي نابليون إلى صداقته وتقريبه إياه ومنحه لقب (بارون)، بل كان من أبرز معارضيه، وكان من المنقلبين، عليه سنة1815. وكانت عودة الملكية من أمانيه الدائمة، فلما عادت فعلا رحب ترحيبا حارا بها وأبدى حماسة شديدة للملك الجديد لويس الثامن عشر. وكان نابليون يوجه إلى دوساسي، كلما لقيه في حدائق التويلري، سؤالا أصبح تقليديا، وهو. كيف حال العربية؟ Comment va l‘ arabe(14).

ويمكن القول، إجمالا، إن دوساسي قد وصل إلى أعلى المراتب العلمية وتبوأ أرفع المناصب الإدارية، فحقق لنفسه بذلك مجدا عظيما، وربما كان هذا المظهر من نشاطه العام أحد أسباب شهرته في بلاده وخارجها، في أوساط العلماء والباحثين من المستشرقين عامة، والمستعربين خاصة، وفي أوساط العلماء أو المثقفين العرب المعاصرين له، وحتى اليوم أيضا.

كانت حياة دوساسي غنية إذن، وكانت أعماله غزيرة متنوعة، مما جعله شخصية متميزة أصبحت مثالا يحتذيه طلبته ومريدوه الذين راحوا يتتبعون آثاره ويسيرون على خطاه: فكانوا يعتنون بالعربية عنايته في مجالات التدريس، والتأليف، والتحقيق، والنشر، وجمع المختارات، والترجمة، وكتابة المقالات. وأهم من هذا كله أنهم كانوا يتبعونه في الروح الخلاقة المبدعة التي تضيف جديدا إلى أعمال الأستاذ ولا تظل أسيرة إنتاجه ولا حبيسة في إطاره. ولعل أعظم أثر لدوساسي المستعرب في طلابه هو أنه غرس في نفوسهم حب تكوين الطلبة والمريدين، فتكون له بذلك تلاميذ لتلاميذه، وتتالت هذه الموجات إلى يومنا هذا، حتى تكونت بذلك صورة فريدة من نوعها لهذا الأستاذ في عالم الاستشراق، لم يحظ بمثلها من بعد غير قلة من المستشرقين إلى اليوم.

كان دوساسي يحترم الشباب الجاد والمبدع ويقدره ويشجعه على الوصول إلى غايته وطموحه، ولذلك كان يقف إلى جانب كل من يشق طريقا جديدة في العلم أو المعرفة، ومن ذلك أنه طلب إلى الملك استحداث كرسي في معهد فرنسا للسنسكريتية لغة البراهمة الهنود الأدبية والدينية المقدسة، ليشغله الشاب النشيط شيزي Chezy، كما دعم أوجين بورنوف Eug. Burnouf مكتشف الفيلولوجيا المقارنة، وشامبوليون Champollion الذي توصل إلى فك رموز الكتابة المصرية المقدسة القديمة (الهيروغليفية)، وفتح الطريق بذلك لاكتشاف حضارة مصر القديمة العريقة، وأشاد بأعمالهما وباكتشافاتها المهمة.

قال الفرد موري A. Maury فيه: «الفيلولوجيا علم حديث تماما، ودوساسي هو الممثل الأكثر روعة للغات (السامية)، وكان بإمكانه أن يتوصل إلى اكتشاف هذه الفيلولوجيا المقارنة»[15]

ويقول عنه دوق بروغلي Broglie: «عزم على تأليف الكتب الأكثر ضرورة للتعليم... إذ كان كل شيء ناقصا: الأساتذة، والطلاب، والكتب، والدروس. وكانت المدرسة القديمة في الاستشراق تعمل على هواها، إلى أن أسس دوساسي المدرسة الجديدة»[16]. وقام هذا التأسيس فعلا على توفير الأدوات الأولية اللازمة للتعليم، وتوفير الطريقة العلمية في هذا التعليم كالملاحظة المتأنية والدقة الصارمة والتفاني في العمل، ذلك لأن دوساسي كان ولوعا

بالتعليم وبمهنة الأستاذية، فكان الأستاذ عنده يسيطر على العالم، وكان يتحرى الحقيقة دوما في كل بحوثه. وهكذا كان دوساسي فاتحة عصر جديد في تاريخ حركة الاستعراب والدراسات العربية في فرنسا خاصة، وفي أوربا عامة.

لم تتأثر دروس دوساسي بالاضطرابات التي عاشتها أوربا إبان الحروب النابليونية وما نجم منها من أحداث سياسية وتغييرات في كل مكان، وظلت هذه الدروس هدفا لأولئك الطلاب الذين صرفوا النظر عن الصراعات بين الشعوب، ليركزوه على الدراسات الشرقية، فكنت ترى حول دوساسي طلابا قدموا من مختلف أنحاء أوربا لتلقي هذه الدراسات عليه والعودة من ثم إلى بلدانهم وقد نعموا بالخير الوفير من زاد أستاذهم العلمي، ليفيدوا به العلم والوطن. وكانت باريس في عهد دوساسي، بإقرار عام من المستشرقين والمستعربين الأوربيين، تحتل المكانة الأولى في حركة الاستشراق في أوربا، ويعود الفضل في ذلك إلى هذا الأستاذ القدير بلا أدنى شك.

كان دوساسي يترجم لطلابه في دروسه من مختاراته العربية (الأنيس المفيد)، وبعض أجزاء من (القرآن الكريم) مع تفسيرات البيضاوي وكان يدرس كذلك كتاب (حياة تيمور) لابن عربشاه (طبعة مانجيه Manger)، وكتاب (فاكهة الخلفاء) لابن عربشاه أيضا، كما كان يدرسهم كذلك (معلقة لبيد) بشرح الزوزني.

ظهر دوساسي على مسرح الدراسات العربية في أوربا وهي تعاني من التشتت والضعف وتغط في سبات عميق وتخضع للأمزجة والأهواء وتتعرض للانقطاع فترات من الزمن، لأنها لم تكن تملك مقومات الاستمرارية والثبات. ويعطينا هذا الوصف الإجمالي لحالة هذه الدراسات قبل ظهور دوساسي، صورة جلية لمكانته الرفيعة في بث هذه الدراسات وترسيخ قدمها لا في فرنسا وحدها فقط، بل في أوربا كلها، فانتقلت الدراسات العربية بذلك من العيش في العراء الذي يعرضها لكل أنواع التقلبات في الأجواء العامة إلى حصن حصين يحميها من هذه التقلبات وينظمها ويضمن لها العيش المطمئن والازدهار.

ففي فرنسا، كان كاردون Cardonne أبرز المستعربين، وهو لم يكن يعنى بتكوين طلاب أو مريدين له يحملون عنه علمه ويؤدون رسالته، فمات من

غير أن يرث علمه أحد قادر على دفع الدراسات العربية وتعليم العربية إلى الأمام خطوة واحدة، فانتهى ذلك بـ (قتل هذه الدراسات) بحسب تعبير بلاشير.

وفي ألمانيا، مات رايسكه Reiske، قبل عشرين سنة من افتتاح كرسي العربية في باريس سنة 1795، وكان هو نفسه يسهم بأعماله في إبعاد الطلاب عن الدراسات العربية أكثر من إسهامه في استقطابهم حولها.

وفي هولندا، توفي شولتنس Schultens من غير أن يخلف مريدين قادرين على مواصلة العمل المجدي في ميدان الدراسات العربية، إذ كان الاعتماد هناك قائما على كتاب النحو الذي وضعه أربينيوس Erpenius الذي أعاد تلميذه غوليوس Golius طبعه في القرن السابع عشر، وهو كتاب كثير الثغرات نظرا لقدمه.

إذن لم يكن في الساحة الأوربية، قبيل ظهور دوساسي، أستاذ بارز للعربية، ولم تكن الكتب التعليمية المفيدة متوفرة، ولم يكن هناك منهج واضح في العمل ولا معاجم ولا قواميس ذات بال، ولم تكن هناك استمرارية في الدراسات العربية بل انقطاعات بين الحين والآخر، فجاء دوساسي بجهوده ومثابرته ورمم هذا الواقع المرير وقلبه واقعا جديدا مختلفا كل الاختلاف، فكان عشاق العربية والآداب الشرقية لا يملون الاستماع لدروسه، والإفادة من روح أستاذهم العلمية، والمواظبة على الأخذ عنه وتقليده حين يصبحون أساتذة في المعاهد العلمية في بلدانهم إثر عودتهم إليها، مع حرصهم على أن يضيفوا إلى كل ذلك إبداعات جديدة خاصة بهم لتكون مسيرتهم العلمية صحيحة وخطاهم في دروبها سديدة. ولذا فقد عد جمهور المستعربين الأوربيين دوساسي المؤسس الحقيقي للدراسات العربية في فرنسا خاصة وأوربا عامة، إذ أقام بناءها على أسس علمية متينة أولها الأساس اللغوي الذي وضعه بكتابه: (النحو العربي)[17].

وقد مني هذا المستعرب المتميز، سنة 1819، بوفاة أمه التي كان لها فضل كبير في تربيته الأولى وتكوينه ذلك التكوين الذي أدى به إلى رحاب الاستعراب، ثم أصيب ثانية، سنة 1835، بوفاة زوجته التي كان فقدها ضربة قوية تحملها بصبر، وإن زعزعت كيانه، فلحق بها بعد ثلاث سنين فقط، في التاسع والعشرين من شهر شباط سنة 1838، بعد حياة مديدة غنية قاربت

الثمانين سنة وكانت حافلة بألوان النشاط العلمي والإداري، وبالمجد والشرف وذيوع الصيت. وقد بلغ من احترام الأوربيين له أن صدر أمر خاص للجيوش التي دخلت فرنسا إثر هزيمة نابليون في معركة واترلو بالمحافظة على ممتلكاته وعدم مسها بأي سوء.

وكان ابنه صمويل-أسطى زاد يحمل كثيرا من صفات أبيه، ولكن في غير ميدان الاستشراق، فكان عضوا في الأكاديمية الفرنسية. وكان لدوساسي حفيد من إحدى بناته، يدعى بافيه دو كورتي Pavet de Courteille، وقد اختط لنفسه الاستعراب سبيلا كجده.

ومما يدل على مكانة دوساسي المحترمة هذه أيضا ما ذكره المستشرق الفرنسي كاريير عنه في النبذة التاريخية التي كتبها عن مدرسة اللغات الشرقية بباريس حين قال: «وشعر الناس، عندما توفي هذا المستشرق الشهير، بأن المدرسة قد دفنت معه، لأن شخصيته كانت مسيطرة عليها»[18]

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، لأن دوساسي، وإن ترك فراغا كبيرا بعده، فقد خلف من بين تلاميذه من كان قادرا على القيام بأداء رسالته العلمية في ميدان العربية والدراسات العربية، وهؤلاء التلاميذ هم الذين أعادوا للمدرسة حياتها بعد موت الأستاذ ووفروا لها مقومات الاستمرار من غير أن تحدث فيها انتكاسة أو تتعرض لانقطاع، والصولجان الذي سقط من يد الأستاذ توزع بين خلفائه أيضا من كل الأمم الأوربية. ومن أبرز هؤلاء الخلفاء الذين كانوا تلاميذ مباشرين له داخل فرنسا وخارجها على سبيل المثال:

في فرنسا: رينو Reinaud, وسيديو الأب والابن Sedillot، وغارسان دوتاسي G. de Tassy, وغرانجريه دو لاغرانج G. de Lagrange, وبيلان Belin, وبرينييه Bresnier, ودوسلان De Slane, الخ.

وفي ألمانيا: كوزغارتن Kosegarten, وفلايشر Fleischer, وفولرز-Vol lers, وفلوغل FIugel , الخ.

وفي السويد: هولمبويه Holmboe, وتورنبرغ Tomberg, الخ.

وفي إسبانيا: دي غيانغوس de Gayangos, الخ.

وقد أدى دوساسي بتكوين هؤلاء التلاميذ إلى نثر بذور الدراسات العربية القائمة على أسس علمية راسخة وواضحة في كل أنحاء أوربا تقريبا، وهذه

خدمة جلى أسداها للعربية تحمد له بغير جدال.

2-موريس غودفروا-ديمومبين (1862-1957)[19]:

ولد ديمومبين في أميان Amiens سنة 1862. وتلقى في شبابه دروسا حقوقية في البداية، مما جعله، فيما بعد، يميل إلى دراسة موضوعات تتعلق بالنظم. وقد انتظم، خلال إقامته في الجزائر التي أصبحت مرتعا خصبا يترعرع فيه المستعربون الفرنسيون ويتكونون بسبب السيطرة الاستعمارية الفرنسية عليها آنذاك، في دروس كلية الآداب في مدينة الجزائر، وكانت تسمى يومئذ (مدرسة الآداب) حتى سنة 1909. وكان لأستاذه في تلك المدرسة، رنيه باسيه R. Basset، أكبر الأثر في توجيه ميوله وتحديدها، فهو الذي دفعه نهائيا إلى ميدان الاستعراب، فسافر ديمومبين إلى باريس، والتحق بدروس مدرسة اللغات الشرقية الحية فيها وتضلع هناك من العربية، ثم عاد، سنة 1895، مرة أخرى إلى الجزائر، ليعمل مديرا لمدرسة تلمسان، وأقام هناك ثلاث سنوات كان لها أثرها في كتاباته التي نشرها، فيما بعد، عن التقاليد والعادات الشعبية، وعاد، سنة 1898، إلى باريس ليتسلم منصب أمين مكتبة مدرسة اللغات الشرقية.

وتسلم، سنة1905، دروس تعليم العربية في المدرسة الاستعمارية L' Ecole coIoniale التي كانت قد أنشئت سنة 1889 لخدمة الشؤون الاستعمارية.

وعين ديمومبين، سنة 1908، إثر وفاة هرتويغ ديرنبورغ Hartwig Der-enbourg, في كرسي العربية الفصحى الذي كان يشغله في مدرسة اللغات الشرقية، فكان ترتيبه رابعا بين من تولوا هذا الكرسي منذ إنشائه سنة1795، بعد كل من: دوساسي، ورينو، وديرنبورغ. وقد استمر في هذا المنصب التدريسي إلى سنة 1935. وكان قد ترك تعليم العربية في المدرسة الاستعمارية منذ سنة 1912.

وعين، سنة 1923 بعد متابعته أطروحتي الدكتوراه في الآداب، محاضرا في كلية الآداب بباريس. ثم انتقل، سنة 1927 لشغل منصب مدير الدراسات الإسلامية، في القسم الخامس من مدرسة الدراسات العالية L' Ecole des Hautes Etudes التي كانت قد أنشئت سنة 1868.

وشارك، سنة 1929، كلا من وليم مارسيه W. Marcais ولوي ماسينيون.

L' Massignon, في تأسيس (معهد الدراسات الإسلامية)-L' lnstitut d'Etudes ls lamiques في رحاب جامعة باريس.

وأحيل ديمومبين على التقاعد سنة1935، إلا أن هذه الإحالة لم تكن لتعني انتهاء نشاطه العلمي بأي حال، بل إنها وفرت له وقت الفراغ الكافي لممارسة هذا النشاط، وتدل على ذلك آثاره التي سنذكرها عما قليل في هذه النبذة.

وقد تم انتخابه، لمكانته العلمية، عضوا في معهد فرنسا L' Institut de France، وهو معهد يضم النخبة المصفاة من العلماء والكتاب وأدباء والفنانين الأكابر من الفرنسيين في مختلف الميادين[20]

وقد تحدث هنري ماسيه عن أجواء عمل ديمومبين فقال: «استقبلني ديمومبين يوم وفاته-في الثاني عشر من شهر آب سنة 1957- لبعض الوقت، في غرفة مكتبه، وهو يتأمل الأفق المألوف لديه، وهو وادي نهر السين الهادئ، وكنت أقول لنفسي أن ظلال هذه الأمكنة هي التي صقلت مواهب أوغست دو بيير كورني Corneille، قرب منزل غوستاف فلوبير G. Flaubert, والنصب التذكاري الذي يشير إلى المكان الذي دفن فيه تابوت الإمبراطور العائد من سانت هيلين[21]، وكان منطقيا أن يخصص رجل ذو ثقافة رفيعة، ومستشرق كبير، الجوانب الأخيرة من مواهبه ومعرفته، لمؤسس واحدة من الثورات الحاسمة في التاريخ [22]»[23].

كان ديمومبين يتمتع بمزايا عقلية فريدة: كإيمانه الشديد بالواجب، وفطنته الإدارية، وإنصافه في التعليم، ومزجه حبه التعليم بولعه بالبحث العلمي، ودقته في العمل، والحماسة للاطلاع، ومعرفته كيف يبين للناشئ المبتدئ الطريق التي ينبغي له أن يسلكها، وتعلقه بتلاميذه ودعمهم في أعمالهم، وكانت بساطته تجلب له ودهم، وكان ديمومبين كذلك متشككا في كل جزئية من جزئيات بحوثه حتى يثبت له وجه الصواب فيها، وكان يصغي لأحاديث الآخرين وآرائهم ثم ينطلق في تساؤلاته، ويظهر اعتراضاته، ويبدي شكوكه. وهو لم يكن يخشى الوقوف أحيانا عند نقطة من النقاط ليقول بصراحة: «هذا غير واضح لي»، ليغلق بهذه العبارة باب الجدل في مسألة من المسائل التي تعرض عليه أو التي تعرض له. وكان من مزاياه أيضا أنه يعد الاستنتاج في البحث من أصعب المهام وأخطرها، لأنه كان يفضل دائما

إبقاء هامش يمكنه من تصحيح نتائجه غير الحتمية وغير النهائية باستمرار، كلما بدت له وجهة نظر جديدة من الصواب كان غافلا عنها أو كانت غائبة عنه. وهذه جميعا بلا شك هي صفات العالم والباحث والأستاذ المعلم الذي يظل متواضعا وإنسانا عاديا مهما علت به درجات العلم ومهما حاز من شهرة وصيت.

ولم يكن ديمومبين، مع هذا كله، يفصل بين ذوقه باحثا والتزاماته أستاذا، بمعنى أنه كان يسخر بحثه لتعليمه وعلمه في وقت واحد، لأن الميدانين متداخلان في شخصيته.

وقد حقق كل ذلك لهذا المستعرب الجاد الدؤوب مجدا عريضا وسمعة طيبة في الأوساط العلمية التي كان يعمل فيها وينتمي إليها.

وقد كان إنتاجه العلمي غزيرا، وواسعا، وخصبا، تدلنا عليه قائمة أعماله الطويلة التي نشرت في المنوعات التكريمية les Melanges التي نشرت له في القاهرة ما بين سنتي 1935 و1945، وكذلك القائمة الملحقة بها والتي أعدتها جانين سوردل-تومين ,J. Sourdel-Thomine وأثبتتها في آخر مقالة هنري باسيه التي اعتمدناها في كتابة هذه النبذة, وهذه القوائم كلها تبين لنا توزع اهتمامات ديمومبين بين تأليف الكتب والترجمات والمقالات.

كانت الموضوعات التي طرقها ديمومبين متنوعة، وبدأت ببعض الأعمال التي يستشف منها الميل إلى الدراسات الفولكلورية، والاتنوغرافية، واللهجية التي تتعلق ببلدان المغرب العربي، ولاسيما الجزائر التي عايش شعبها وتعرف عاداته وتقاليده عن كثب، ودرس أخلاقه الوطنية والقومية، وتمرس بلهجته العربية العامية. وقد تمخضت ملاحظاته ومشاهداته كلها عن كتب أربعة، هي:

1- حكاية باللهجة التلمسانية :Recit en dialecte tlemcenien بالتعاون مع عبد العزيز زناغي Zenagui سنة 1904.

2- مختصر العربية المراكشية :Manuel d‘ arabe marocain نشره سنة 1913 بالتعاون مع لوي مرسييه ,L. Mercier فكانت له أهمية كبيرة في دراسة اللهجة العربية في مراكش.

3- مراسم الزواج عند أهل الجزائر Les Ceremonies du mariage chez les indigenes de L‘Algérie: نشر سنة 1900، وقد درس فيه مراحل الزواج وتقاليده،

وعاداته دراسة منهجية في مناطق جزائرية هي: تلمسان، وقسنطينة، والقبائل، مع بعض المقارنات بالعادات المتبعة في مثل هذه المناسبة في بعض البلدان العربية الأخرى. وقد كتب، في مقدمة هذه الدراسة، يقول: «ليس هذا العمل غير إسهامة في التقصي الذي يجب القيام به يوما ما حول أخلاق أهل المغرب وعاداتهم، إذ يصبح ممكنا أن نستخلص النتائج من دراسة إجمالية، ويمكننا أن نعرف، من خلال دراستنا العادات المغربية، العادات البشرية العامة في المغرب، والعادات المستمدة من الإسلام، والعادات التي تنتمي عموما إلى السكان (الساميين) كافة، وتلك التي تعد عادات مغربية محضة»[24].

4- ترجمة قصص (مئة ليلة وليلة): وقد ترجمها ترجمة دقيقة وساحرة، وأضاف إليها تعليقات غنية عن أصول هذه القصص الشعبية، وقد نشرها سنة 1911.

ودخل ديمومبين كذلك ميدان الدراسات التاريخية، فأعطى بعض الآثار فيه، وكان أولها ترجمته لكتاب: (تاريخ بني الأحمر أواخر ملوك غرناطة)، نقلا عن (تاريخ ابن خلدون)، وقد نشرها سنة 1898. وكان الثاني بحثه: (بلاد الشام في عهد المماليك بحسب المؤلفين العرب La Syrie a I'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes، وقد تناول فيه بالدراسة التنظيم الذي قام به المماليك في الشام من الناحيتين السياسية والإدارية: فدرس علاقة السلطان بالخليفة العباسي الشكلي، وعلاقته بالجيش، وأحوال الوظائف الإدارية والموظفين. وأما أثره التاريخي الثالث فهو: (العالم الإسلامي والبيزنطيون حتى الحروب الصليبية le monde musulman et byzantins jusqu' aux Croisades، الذي نشره سنة 1923، وقد تناول في هذه الدراسة أربعة قرون من التاريخ الإسلامي راصدا علاقاته الخارجية بالدولة المجاورة له في الشمال والشمال الغربي، أي: الدولة البيزنطية. وتحدث على التوالي عن: جزيرة العرب الوثنية في الجاهلية، والدعوة الإسلامية فيها، وتنظيم الخلافة الأموية في دمشق. ثم تحدث عن الدولة الإسلامية وتنظيمها الإداري. وقد تميز هذا العمل بتحليله لكل من الحياة السياسية، والحياة الاقتصادية، والحياة الإدارية. كما وردت في كتابه هذا صفحات ممتازة عن الأدب العربي، مما جعل دراسته أقرب إلى الدراسة التاريخية

الحضارية منها إلى دراسة الحوادث السياسية والحربية وحدها.

وطرق ديمومبين كذلك باب النظم الحضارية في الإسلام بكتابه القيم. (النظم الإسلامية)[25] les institutions musulmanes, فعرف بجوانب مختلفة من هذه النظم، وتناول في طرف من دراسته هذه بالحديث الأدب العربي.

وأسهم في ميدان الأدب الجغرافي والرحلات بترجمة كتاب: (مسالك الأمصار) للعمري المصري سنة 1927 وقد أغناها بتعليقات كثيرة وذيلها باقتباسات من الكتاب العرب الآخرين، وكتب لها مقدمة مستفيضة درس فيها التنظيمات السياسية والعسكرية في بلدان شمال أفريقيا. ثم نشر، سنة 1953، ترجمة: (رحلة ابن جبير) من القرن الثاني عشر للميلاد، فكانت لها فائدة كبيرة للقراء الفرنسيين.

وكانت له، في مجال النقد الأدبي العربي القديم، إسهامة هامة بنشره مقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة متنا وترجمة مع التعليق عليها سنة 1947، فساعد بذلك في تعرف الفرنسيين هذا الجانب من النشاط الأدبي عند العرب بما يروى الغليل، لأن أحدا من المستعربين الفرنسيين قبله لم يقتحم ميدان النقد الأدبي العربي، وربما كان الحذر من اقتحامه ناتجا عن ضعف قدرتهم على فهم الشعر العربي وتذوق معانيه واستساغة صوره، وأدى بهم ذلك إلى العجز عن إصدار الإحكام عليه أو تقويمه في دراسة نقدية منهجية خاصة به، مما جعلهم ميالين في الغالب إلى التأريخ الأدبي وتراجم الشعراء، ذلك لأن روح الشعر تظل متصلة بروح الشعب الذي ينتجه، وهي تظل بالتالي عصية الفهم من الخارج، ولابد لإزالة عقبة هذا التواصل من الدخول في رحابه من الداخل حتما، ومن المسلم به أن الروحية العامة تختلف من شعب إلى آخر، بسبب الاختلاف في طريقة التفكير، والتصور، والبيئة، والأخلاق، والمثل، والقيم، والعادات والتقاليد التي تكونت عبر أجيال طويلة من تاريخ هذا الشعب أو ذاك.

وأصدر ديمومبين، سنة 1937، بالتعاون مع بلاشير، كتاب: (نحو العربية الفصحى) Grammaire de L‘ arabe classique, وكان ثمرة الأفكار والملاحظات والجهود التي بذلها ديمومبين في سنوات تدريسه اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية، حيث كان يطبق المناهج الحديثة في علم اللغة على دراسته العربية وعلى تدريسها، مخالفا بذلك طريقتي دوساسي وديرنبورغ

اللذين كانا يعتمدان، في تدريسهما النحو العربي، على مناهج النحويين العرب، مع استغلالهما أحيانا بعض المقارنات باللغات التي تسمى (الساميات). وقد كان دوساسي، مثلا، يحاول التوفيق في كتابه (النحو العربي) بين مقولات النحو الفرنسي في نحو بور رويال-Port Royal ومناهج النحويين العرب. وقد قدمت طريقة ديمومبين هذه فوائد كثيرة لتدريسه، فلم تعد العربية تظهر لطلابه محكومة-بحسب زعمه-بقواعد مقدسة دقيقة وغامضة، فازداد بذلك وضوحها، وخصوصا أنه كان يستغل أحيانا بعض الوقائع المتعلقة باللهجات العربية العامية الحديثة التي اهتم بها في مطلع حياته العلمية من أجل مقارنتها بوقائع العربية الفصحى القديمة، مما أدى به إلى إدخال الوضوح والبساطة على علم كان يعده صبا ومعقدا في ذلك الحين. وقد كان ديمومبين يؤمن بالمبدأ الذي يرى أن دراسة اللغة تكون مفيدة بقدر ما تقدم من معرفة بالحضارة التي تعد هذه اللغة وسيلة التعبير عنها، وهكذا فإن التعمق في اللغة كان عنده وسيلة دائما لا غاية لذاته.

وتناول ديمومبين ركنا هاما من أركان الإسلام، وهو الحج، في كتابه: (الحج إلى مكة) Le pelerinage a la Mekke، سنة 1923 وقد بحث فيه الطابع الديني لهذا الركن الإسلامي، وقد استند في وصفه الدقيق للأماكن المقدسة على ما كتبه عنها الكتاب الشرقيون والغربيون من القدماء والمحدثين، وتطرق إلى دراسة الشعائر التي يقوم بها المسلمون في الحج من الإحرام إلى الإحلال. وقد توصل في نهاية دراسته هذه إلى نتيجة تقول: «إن أساس شعائر الحج جاهلي-كما يتضح-لم تحصل فيه إلا تغييرات في التفاصيل والترتيب والابتداء»(26)

وكان ديمومبين يطمح دوما، في ميدان السيرة، إلى تأليف كتاب عن حياة الرسول صلعم وعن الإسلام، وقد استطاع أن ينجز هذا العمل العظيم قبيل وفاته، وقد أهله للقيام بهذه المهمة تدريسه القرآن وتفسيره أمام تلاميذه لسنوات طويلة، وقراءته كتب السيرة النبوية التي كتبها العرب أنفسهم، وتفحصه النصوص العربية الإسلامية في كل ميدان، واستعداده لتفهم التجارب الدينية وتعمقه في الموضوع، وانسحابه إلى بلدة هادئة في ضواحي روان Rouen تدعى (هوت-سور-سين) Haute-sur-Seine، حيث كان يخلو في غرفة بحثه، ويعمل بجد وصمت، إلى أن انتهى من العمل الذي

جاء فخرا للاستشراق الفرنسي عامة، وللاستعراب منه خاصة، وقد صدر بعنوان: (محمد) Mahomet، في باريس سنة 1957.

لم تكن هذه الآثار المكتوبة تشكل وحدها أعمال ديمومبين، إذ نجد له عددا كبيرا من الإسهامات الأخرى في الصحف والدوريات الاستشراقية تتناول جوانب مختلفة من هذه الميادين التي طرقها طوال حياته العلمية الزاخرة بالنشاط والجهد المتواصلين إلى آخر لحظة من لحظات حياته.

وخلف لنا ديمومبين، إلى جانب ذلك، طبقة ممتازة من التلاميذ والمريدين الذين ظهروا في ميدان الاستشراق أو الاستعراب، وذاع صيتهم فيه، وقدموا فيه عطاء يعد من المرتبة الأولى، فكان كل تلميذ من تلاميذ ديمومبين-بهذا المعيار-أثرا حيا من آثاره. ويكفي أن نستعرض من هؤلاء على سبيل المثال: هنري ماسيه H. Masse ولوي ماسينيون L. Massignon، وغاستون فييت G. Wiet وروبير برونشفيغ, R. Brunschvig وكلود كاهن, Cl. Cahen وهنري لاوست H. Laoust، ولوي مرسييه L. Mercier، وجان سوفاجيه J. Sauvaget، وجان كانتينو J. Cantineau.

3- غاستون فييت (1887- 1971)[27]:

ولد غاستون فييت Gaston Wiet في باريس في الثامن عشر من شهر كانون الأول من سنة 1887، وهو ينتمي إلى أصول إنكليزية قدمت إلى فرنسا في أواخر القرن السابع عشر. أنهى دراسته الثانوية في المعهد الحر بمقاطعة يون Yonne الفرنسية. وانتظم، سنة 1905، في دروس مدرسة اللغات الشرقية الحية التي كان باربييه دو مينار B. de Meynard، عالم الإسلاميات والتركيات، يديرها. وقد تابع فييت الشاب دروس كليمان هوار CI. Hum بالفارسية. وكان يتعلم العربية والتركية أيضا، كما كان يتابع دروسا في الجغرافيا، والتشريع، والتاريخ المتعلق بالدول الإسلامية التي كان بول رافيس P. Ravisse، المختص بمصر في العصر الوسيط، يلقيها. وكان فييت يتابع، إلى جانب دروس مدرسة اللغات الشرقية هذه، دروسه في الحقوق.

وحصل، سنة 1908 على ليسانس الحقوق، ونال معه دبلوم مدرسة اللغات الشرقية الحية في اللغة العربية الفصحى والعامية، وفي التركية والفارسية أيضا. ثم قرر مدير المدرسة آنذاك، بول بوير P. Boyer، إرساله إلى المعهد

الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة مبعوثا، فبقي هناك من أوائل سنة 1909 إلى أواخر سنة 1911، وكان من جملة رفاقه في المعهد لوي ماسينيون، وقد التقى، خلال وجوده في القاهرة، المستشرق السويسري ماكس فان برشيم ,Max Van Berchem الذي أطلعه على علم النقوش العربية L'epigraphie وحببه إليه، فتعلق به طوال حياته، وأنتج فيه أعمالا كثيرة سنذكرها في مواضعها من هذه النبذة.

صادق فييت هنري ماسيه، وتتلمذ خارج مدرسة اللغات الشرقية على رنيه باسيه ,R. Basset وعلى رنيه دوسو ,R. Dussaud عالم الآثار المهتم ببلاد الشام، وعلى ديمومبين ووليم مارسيه أيضا.

وقد أعد فييت، خلال إقامته في مصر، كتاب (الخطط والآثار) للنشر، وهو من تأليف المقريزي، ويعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، ويتناول جغرافية مصر وتاريخها. وقد نشر المجلدين الأول والثاني في سنتي 1911و 1914 ثم نشر المجلدين الثالث والرابع في سنتي 1922و 1924 ونشر المجلد الخامس في سنة 1928.

وقد أسهم ظهور المجلد الأول من خطط المقريزي في اختيار ناشره الشاب فييت للمنصب الذي استحدث سنة 1911، وهو منصب محاضر باللغتين العربية والتركية في كلية الآداب بمدينة ليون Lyon، ولكنه اقتصر، عند مباشرته التدريس، على محاضرات اللغة العربية وحدها دون التركية.

واستدعى الأمير فؤاد، رئيس الجامعة المصرية بالقاهرة، في أواخر سنة 1912، غاستون فييت لإلقاء محاضرات باللغة العربية عن الأدب العربي في كلية الآداب من تلك الجامعة، فباشر فييت العمل في ذلك الحين واستمر فيه إلى آخر نيسان من سنة 1913، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق، الذي أصبح فيما بعد شيخ الجامع الأزهر، يقوم مقام فييت في ذلك العام الدراسي في كلية الآداب بليون.

وعاد فييت إلى ليون في العام الجامعي 1913- 1914، هناك قامت صداقة بينه وبين زميليه. بول هازار ,P. Hazard وهو أكبر منه بتسع سنوات، وكان مكلفا بمحاضرات في الأدب الحديث المقارن. وهنري فوسيون .H Focillon, وهو أكبر منه بست سنوات، وكان أستاذا لتاريخ الفن، وكان له تأثير كبير في فييت المستشرق الشاب، إذ أيقظ في نفسه الإحساس بالفن

وتذوق الآثار القديمة، فاتجه فيما بعد إلى دراسة الفنون والآثار الإسلامية، وأعطى فيها بعض الآثار التي سنتحدث عنها في هذا السياق.

والتحق فييت، عندما ثارت رياح الحرب العالمية الأولى سنة 1914، بفيلق للمشاة برتبة ملازم. وقد منحه فيلقه هذا، خلال معاركه، ثناء وصليبا حربيا ونجمة برونزية، تقديرا لشجاعته فيها، كما منحه أيضا مدالية ذهبية في حملة الصرب سنة 1915. ورفع في آخر السنة المذكورة إلى رتبة ملازم أول. وأصيب في أواخر سنة 1916 بالبرداء، وظل مريضا إلى نيسان من سنة 1917، فأبعد عن جبهة القتال، وعين في وظيفة ضابط مترجم حتى أيلول من سنة 1918. والتحق، في هذا التاريخ، بالمفوضية العليا للجمهورية الفرنسية في سورية، فالتقى فيها برفيقه القديم في المعهد الفرنسي بالقاهرة لوي ماسينيون، وشارك في بعثة جورج بيكو G. Picot في المباحثات التي أجرتها مع الإنكليز والزعماء العرب. ورفع فييت، في تشرين الأول من سنة 1918، إلى رتبة نقيب وهو في بيروت. ثم سرح أخيرا في الثالث من شهر تموز من سنة 1919، بعد خدمة في الجيش الفرنسي دامت خمس سنوات تقريبا خلال الحرب العالمية الأولى.

وعاد فييت في اليوم التالي لتسريحه إلى وظيفته المدنية في كلية الآداب بجامعة ليون، وتسلم تعليم العربية في بداية العام الجامعي التالي 1919-1920، واستمر في منصبه هذا إلى سنة 1926، وكان من بين طلابه سنة 1920 المستعرب الفرنسي ماريوس كنار M. Canard الذي كان يتمرن على العربية ويعمل تحت إشرافه، وهذا التلميذ الشاب هو الذي أصبح بعد عدة سنوات واحدا من أفضل المختصين بتاريخ العرب فيما يعرف عند الغربيين بالعصر الوسيط.

وأما عن برنامج محاضرات فييت في العام الجامعي1919- 1920، على سبيل المثال، فقد كان يشمل: القرآن الكريم (الأجزاء 12، 14، 19)، وديوان طرفة (طبعة سيلغسون Seligson)، وديوان عامر بن الطفيل (طبعة ليال Lyall). ومروج الذهب للمسعودي (طبعة باربييه دومينار، المجلد الخامس، ص 14-168)، وكتاب الأغاني (طبعة بيروت، الجزء الأول، ص 34-188).

وقد تمكن فييت، بمنشوراته المختلفة، من نيل شهرة طيبة في الأوساط العلمية والثقافية أهلته لأن يعين عضوا مراسلا في أكاديمية النقوش والآداب

منذ سنة 1925 ومن أبرز هذه المنشورات: خطط المقريزي التي مرت بنا من قبل، وكتابه: (مواد لمدونة النقوش العربية Materiaux pour un Corpus Inscriptonum Arabicarum وتناول منها بنفسه قسم سورية الجنوبية والقدس، وكان أستاذه برشيم السويسري قد بدأ بها من قبل، وكان فييت قد بدأ بطباعة هذه المدونة سنة 1922.

ودعاه الملك فؤاد، سنة 1926، وهو الذي عرفه منذ مدة طويلة، ليكون مديرا لمتحف الفن العربي في القاهرة، فوضعته وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية تحت تصرف الحكومة المصرية في بعثة استمرت حتى سنة 1951، وقد أتاحت له هذه الوظيفة الجديدة أن يتابع بحوثه ويتخصص بدراسة فنون البلاد الإسلامية. وقد انتخب أثناء ذلك عضوا في لجنة المحافظة على الآثار العربية إلى جانب عالم الآثار البريطاني المعروف بمنشوراته ذائعة الصيت في العالم عن الآثار الإسلامية كريزول Creswell.

ووضع فييت، خلال عمله المذكور، الفهرس العام للمتحف العربي le Catalogue general du Musée arabe، مفتتحا بذلك سلسلة من المجلدات التي درس فيها المصابيح، وقوارير الزجاج المزخرف، والتحف النحاسية مع إعطاء صور لكل منها.

وعين فييت، سنة1930، أستاذا لكرسي جغرافية البلدان الإسلامية وتاريخها وأنظمتها، في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، مع احتفاظه في الوقت نفسه بوظيفته في مصر، غير أنه استبدل به آخرون بعد ذلك في تلك المدرسة.

وبدأ فييت، سنة 1931، بنشر الفهرس التاريخي لعلم النقوش العربية Re-pertoire chronologique d'Epigraphie arabe، بالتعاون مع اتيين كومب، Combe Et. وجان سوفاجيه J. Sauvaget. وقد وصلت سلسلة هذا الفهرس سنة 1958 إلى المجلد الثالث عشر.

ونشر فييت، سنة 1933، مجلد هاما عن الفن الإسلامي الذي ظهر في المعرض الذي أقيم في لندن سنة1931 للفن الفارسي. وأصدر بعد ذلك مجلدا عن (مساجد القاهرة) les Mosquees du Caire، بالتعاون مع لوي هوتكور L. Hautecour.

ونظم فييت، في كانون الثاني من سنة1935، معرضا للفن الفارسي

بالقاهرة، فأدى به ذلك إلى الاهتمام بالأنسجة والبسط والسجاجيد، وقد أقيم في باريس، في أواخر السنة نفسها، معرض لأنسجة المتحف العربي وبسطه وسجاجيده من العصور الإسلامية المختلفة، وقام فييت بوضع فهرس له.

ودعت مدرسة اللوفر L' Ecole du Louvre فييت، بصفته أستاذا لتاريخ الفنون الإسلامية، لإلقاء محاضرات في هذا الموضوع استمرت من سنة 1936، إلى سنة 1938، مع احتفاظه أيضا بعمله في القاهرة.

ونشر فييت، سنة 1933، في سلسلة تاريخ (الأمة) المصرية، التي تنشر بالفرنسية، المجلد الثاني فيها بعنوان: (موجز تاريخ مصر) Precis d' histoire de.L'Egypte. ثم نشر، سنة 1938، المجلد الرابع في هذه السلسلة، وكان يتناول فيه تاريخ مصر الإسلامية. وكان هذان العملان مخصصين للجمهور الواسع.

وقد شارك، فيما بعد، في المجلدين الثاني والثالث من (التاريخ العام في موسوعة البلياد) L' histoire universelle de l'Encyclopedie de la Pleiade. كما شارك كذلك في المجلد الثالث من (تاريخ الإنسانية) Histoire de l'humanite من سنة 400 إلى سنة 1300 للميلاد، وقامت بنشره منظمة (اليونسكو) التابعة لهيئة الأمم المتحدة.

وترجم فييت كتاب (البلدان) لليعقوبي، ونشره في المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة 1937، كما ترجم كذلك كتاب (الاعلاق النفيسة) لابن رسته سنة1955، مع التعليق عليه. ونشر أيضا (مختصر الإدريسي) متنا وترجمة.

وبدأ فييت، عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، بإنجاز سلسلة ترجمات كان القصد منها تعريف الجمهور الفرنسي بالكتاب المصريين المحدثين، وكان ينشرها في: «مجلة القاهرة» Revue du Caire، التي قام بتأسيسها سنة 1938، فظهرت ترجمته لكتاب (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم، ثم ترجمته لكتاب (الأيام) لطه حسين، ثم مجموعة (بنت الشيطان) القصصية لمحمود تيمور، وغيرها. وذلك لأن فييت بقي مقيما في القاهرة طوال فترة الحرب، فشغل نفسه خلالها بهذا الميدان الميسر له بحكم عيشه في الوسط المصري الذي ينقل شيئا من أدبه إلى لغته الفرنسية بغية إطلاع جمهور المثقفين والقراء على هذا الأدب.

وقد استجاب فييت، سنة 1940، لنداء الجنرال ديغول، خلال الحرب العالمية، وأصبح نائب رئيس لجنة فرنسا الحرة في مصر، ثم أسهم في تأسيس لجنتي فرنسا الحرة في كل من اليونان وتركيا. ونشر في «مجلة القاهرة» سلسلة من المقالات السياسية جمعها في مجلد بعنوان: (أوضاع Positions. وألف كتيبا بعنوان (صفحة من التاريخ) Une page d' Histoire. واستمر فييت في جهوده العلمية، على الرغم من ظروف الحرب، فنشر سنة 1943 فهرسا محققا للمنمنمات الفارسية والتركية والهندية من مجموعة شريف صبري باشا. ونشر كذلك بعض الوثائق المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر، وبعض الوثائق المتعلقة بمحمد علي باشا.

وقد عين فييت مكان جان سوفاجيه، في العام التالي لوفاته سنة 1950، في كرسي اللغة العربية وآدابها الذي كان يدعى كرسي «تاريخ العالم العربي» في عهد سوفاجيه، في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس). وقد ظل فييت يشغل هذا الكرسي إلى سنة 1960، ثم تحول إلى أستاذ فخري له. وكانت محاضراته في معهد فرنسا تعتمد على نقوش مكة والمدينة وأسواق القاهرة، وعلى دراسة الشام ومصر عند ابن حوقل، وعلى الاحتلال العثماني لمصر بحسب ما يذكره ابن إياس، وأتاحت له المحاضرة عن العثمانيين الفرصة لنشر كتاب: (يوميات برجوازي من القاهرة) لابن إياس[28]، مع ترجمته والتعليق عليه، في مجلدين. كما نشر مجلدا عن (تاريخ سلاطين المماليك).

واستمر فييت، بعد إحالته على التقاعد، في نشاطه العلمي، فشارك في كتابة بعض مواد «الموسوعة الإسلامية» .E.I، ومواد «الموسوعة الشاملة» I' Encyclopedia Universalis. ونشر، سنة1966، في مجموعات منظمة (اليونسكو) كتابا هامكا بعنوان: (مدخل إلى الأدب العربي) lntroduction a la Literature arabe تناول فيه دراسة الأدب العربي على أساس المعرفة الكاملة للثقافة باللغة العربية، وهو قائم على مفهوم كلمة (الأدب) بمعناها الواسع الذي كان يراه العلماء العرب القدماء، في العصور العباسية، وهو «الأخذ من كل علم بطرف»، وكان صاحب هذه الثقافة الشمولية يدعى (أديبا)، وهو يعرف في أيامنا بـ (المثقف)، في حين أن المختص بعلم واحد والمتعمق فيه كان يدعى في الماضي وفي الحاضر على حد سواء (عالما)، فجاء هذا الكتاب شاملا ومركزا في آن واحد.

ونشر فييت، في مجموعات جامعة أوكلاهوما Oklahoma, في الولايات المتحدة، مجلدا بعنوان: (القاهرة مدينة الفن والآثار). ونشر سنة 1961 مجموعة نصوص تحت عنوان: (عظمة الإسلام من محمد «صلى الله عليه وسلم» إلى فرانسوا الأول) la Grandeur de I'Islam de Mahomet a Francois Ier.

ولا يغيب عن بالنا أن نذكر بمشاركته كذلك في كتابة المقالات والبيانات في المجلات والدوريات الاستعرابية والاستشراقية المختلفة، من أمثال مجلة «سورية» Syria, و«المجلة الآسيوية»، وغيرهما. وكان قد انتخب سنة 1957 عضوا في أكاديمية النقوش والآداب.

تلك هي خلاصة حياة غاستون فييت وأعماله والمناصب الإدارية التي تولاها، ويبدو لنا فيها هذا التنوع الخصب الذي كان يدور على وجه الإجمال حول مصر والإسلام والفنون والآثار التابعة لهما أو النابعة منهما، إضافة إلى الجوانب التاريخية والجغرافية والأدبية المتعلقة بالعرب والإسلام. وكانت جهوده في ذلك كله منصبة على التأليف أو التحقيق أو الترجمة أو النشر، وما يتصل بكل ذلك من فهرسة وتحليل وتعليق. ويضاف إلى ذلك أيضا أنه كان عضوا في جمعيات علمية كثيرة. وقد خدم وطنه في ساحات الحرب وفي ميادين الترجمة العسكرية والسياسية والمفاوضات.

وقد كان لنشأة فييت العلمية الأولى في أحضان القاهرة وفي أوساط الشعب العربي في مصر وعيشه فيهما فترة طويلة من حياته مدرسا في كلية الآداب أو مديرا للمتحف العربي بالقاهرة، أثر عميق جدا في ترسيخ حبه لمصر وشعبها وللحضارة العربية الإسلامية في نفسه، وقد احتفظ بصداقته للمصريين وحبه لمصر ووفائه لها حتى آخر لحظات حياته.

وأسلم فييت أخيرا روحه إلى بارئها في مدينة (نوييى-سور-سين)، وذلك في العشرين من شهر نيسان من سنة1971، عن عمار يناهز الخامسة والثمانين، تاركا في نفوس طلابه وأهله لوعة وحرقة، وفي الأوساط العلمية الفرنسية والعربية فراغا كبيرا بعد أن جعل من نفسه همزة وصل بين الشعبين العربي والفرنسي، وربما أيضا بين الشرق والغرب، أكثر من ستين سنة من حياته، عاش منها في مصر وحدها أكثر من ثلاثين سنة، كافح خلالها كفاح العالم والمعلم والباحث والجندي المخلص لوطنه في كل ميدان نزل فيه، ولكل حقيقة آمن بها، فانطوى بغيابه علم من أبرز أعلام المستعربين

الفرنسيين الذين وقفوا حياتهم وجهودهم على دراسة الحضارة العربية الإسلامية من خلال الميادين التي مرت بنا آنفا في هذه النبذة.

4- ريجيس بلاشير (1900 - 1973)[29]:

ولد ريجيس بلاشير Regis Blachere في الثلاثين من شهر حزيران من سنة 1900، في ضاحية من ضواحي باريس تدعى (مونروج) Montrouge. وعندما انتقل أبوه-وكان موظفا صغيرا-مع أسرته إلى المغرب الأقصى، سنة1915، بعد احتلاله من قبل فرنسا، كان بلاشير يرافقه، فأنهى هناك دراسته الثانوية في مدرسة ليوتي Lycée Lyautey، في مدينة الدار البيضاء Casablanca. وقد مال بعد ذلك إلى العمل في وظيفة مترجم، غير أن أساتذته ألفوا فيه استعدادا قويا للدراسات ولتعلم اللغات الأجنبية، فوجهوه إلى تعلم اللغة العربية على وجه الخصوص، ليصبح مستعربا يعلم العربية. وكان عيش بلاشير في البيئة العربية في المغرب واختلاطه بأهلها مما غرس في نفسه حب الاطلاع على حياة هؤلاء الناس وتاريخهم وحضارتهم وكل وما يتصل بذلك من عقيدة وأدب. غير أنه لم يتمكن من التفرغ للدراسة في هذا الميدان، بسبب الأعباء المالية التي تفرضها عليه معيشته وضيق حال أسرته، فاضطر إلى العمل في وقت مبكر موجها في معهد مولاي يوسف في مدينة الرباط، مع مواصلته لدراساته العالية الحرة وقد ساعده على النجاح فيها ولعه الشديد بالمطالعة لما اتصف به من ظمأ لا ينتهي إلى المعرفة.

وقد حصل بلاشير، سنة 1922، على ليسانس اللغة العربية من كلية الآداب في مدينة الجزائر، وكان من أساتذته فيها: هنري ماسيه، وايفاريست ليفي-بروفنسال[30] E. Levi-Provencal. وقد كان الأول منهما يدفعه إلى التعليم، وكان الثاني يريد له أن يصبح دارسا للاتينية ومؤرخا لروما القديمة. وحظي بلاشير هناك بصداقة المستعرب الفرنسي هنري باسيه H. Basset, عميد تلك الكلية، الذي كان يهتم بدراسة الاتنوغرافية المغربية.

ونال، سنة 1924، درجة الأغريغاسيون agregation، وكان أستاذه فيها المستعرب وليم مارسيه W. Marcais. وعاد بعد هذه الدرجة أستاذ للعربية في معهد مولاي يوسف الذي كان يعمل فيه من قبل. وكانت عنده نزعة

قوية إلى معرفة العالم العربي ولإسلام والتعريف بهما، وكان ذلك أثرا من آثار اجتماع صفة العالم بصفة المعلم في دخيلة نفسه.

وعمل بلاشير، من سنة 1929 إلى سنة1935، أستاذا مديرا للدراسات في معهد الدراسات المغربية العالية L' Institut des Hautes Etudes Marocaines ثم خلف، في سنة 1935، صديقة المستعرب موريس غودفروا-ديمومبين في كرسي العربية الفصحى في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، فكان خامس من يتولاه منذ إنشائه، وظل يشغله إلى سنة 1950.

وقد أعد، في سنة1935، أطروحتين لنيل درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون: فكانت «الأطروحة الأساسية» دراسة أحادية بعنوان: (شاعر من القرن الرابع الهجري. أبو الطيب المتنبي)، وكانت «الأطروحة المتممة» ترجمة لكتاب (طبقات الأمم) لصاعد الأندلسي، مع تعليقات عليه.

وانتقل بلاشير، سنة 1950، من مدرسة اللغات الشرقية ليشغل كرسي الفيلولوجيا والأدب العربيين في العصر الوسيط في جامعة السوربون، وبقي في هذا المنصب إلى حدود سنة 1970.

وقد عمل في مناصب أخرى كثيرة، إلى جانب ما سبق ذكره، فكان يؤدى فيها نشاطات علمية مختلفة، فقد خلف سنة 1942 وليم مارسيه مديرا لدراسات الفيلولوجيا العربية في القسم الرابع من المدرسة التطبيقية للدراسات العالية، واستمر في هذا المنصب إلى سنة 1968. وأصبح في سنة 1956 مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية في أكاديمية باريس، وضل يشغل هذا المنصب حتى سنة 1965، وكان كل من وليم مارسيه وليفي-بروفنسال وديمومبين قد اشتركوا في تأسيس هذا المعهد سنة 1929. وشغل، سنة 1962، منصب مدير مركز المعجمية العربية التابع للمركز الوطني للبحث العلمي بباريس C.N.R.S لمتابعة الأعمال التي تستهدف إصدار قاموس عربي-فرنسي-إنكليزي معا. كما تولى منصب نائب رئيس لرابطة تقدم الدراسات الإسلامية. وانتخب عضوا مراسلا في مجمعي اللغة العربية في كل من دمشق والقاهرة وانتخب كذلك عضوا في أكاديمية النقوش والآداب بفرنسا.

وأما الميادين الأخرى التي ظهر فيها نشاط بلاشير، الذي كان وحده علامة بارزة في الدراسات العربية الإسلامية في هذا القرن في ميدان الاستعراب الفرنسي، فقد كانت كثيرة موزعة بين اللغة والأدب والدين

والأدب الجغرافي.

وفي ثبت أعماله الكاملة الذي نشرته إيف باريه E. Paret في (المنتخب) من مقالاته Analecta, الذي أصدره المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، يجد المرء خمسة عشر كتابا من تأليفه الخالص أو بالمشاركة مع آخرين، إلى جانب مائة وسبع عشرة مقالة في موضوعات شتى كانت قد نشرت في عدد من المجلات والمنوعات الاستعرابية والاستشراقية(31)، أو في بعض الموسوعات، كالموسوعة الإسلامية(32)، والموسوعة الكبيرة(33) La Grande Encyclopedie, والموسوعة الشاملة.

وقد مر بنا في ترجمتنا لديمومبين أن بلاشير قد عاونه في وضع كتاب (قواعد العربية الفصحى) الذي نشر سنة 1937. وهو الكتاب الذي استطاع عند ظهوره أن يزحزح كتاب نحو العربية الذي كان دو ساسي قد وضعه وظل معتمدا حتى ذلك الوقت عند المستعربين الفرنسيين، وحل محله، لأن المؤلفين اتبعا فيه المناهج الحديثة في علم اللغة في أيامهما، وقصدا به أن يكون مخصصا للمستعربين الفرنسيين، وقد طبع سنة 1952 طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة، وهو لا يزال إلى اليوم تقريبا مرجعا أساسيا في موضوعه، وقد أدى دورا كبيرا في تكوين أجيال من المستعربين.

وتابع بلاشير موضوع البحث في اللغة العربية في آثار لاحقه، إذ نشر في سنة 1939 كتابا بعنوان. (مبادئ العربية الفصحى)-Elements de I'arabe classique، وقد طبع في سنة 1958 طبعة رابعة منقحة ومصححة. ونشر في سنة 1946 كتابا بعنوان: (تمارين على العربية الفصحي)-Exercices d'arabe clas sique، بالتعاون مع ماري تشيكالدي ,M. Ceccaldi وطبع في سنة 1971 طبعة سابعة.

وكان بلاشير يفكر، إلى جانب هذه الإسهامات الهامة في دراسة اللغة العربية، في مشروع كبير هو إنجاز قاموس ثلاثي اللغات يدعى (القاموس العربي-الفرنسي-الإنكليزي)، وقد طرح فكرته الأولى في المؤتمر الثالث والعشرين للمستشرقين المنعقد في كامبردج سنة 1954، وجوهر هذا المعجم تاريخي اشتقاقي معا، وقد شكلت لذلك لجنة ثلاثية تتألف من: بلاشير، ومصطفي شويمي، وكلود دينيزو CI. Denizeau وقد عمد الثلاثة إلى العودة إلى النصوص العربية من مختلف العصور ضمن قراءات واسعة لجمع مادة

هذا القاموس، وقد بدئ بطبعة سنة 1963، وصدرت منه ثلاثة مجلدات في حياة بلاشير من أصل ستة: وكان الأول قد تم نشره سنة 1967، والثاني سنة 1970، والثالث سنة 1973. وقد أوصي بلاشير، قبيل وفاته، بأن يدير العمل من بعده المستعرب الفرنسي المعروف شارل بيلا Ch.Pellat، الذي كان له باع طويل في ميدان الدراسات العربية أيضا، بغية إنجاز المجلدات الثلاثة المتبقية ونشرها.

ونشر بلاشير، في مجال الأدب الجغرافي، كتابا بعنوان: (اقتباسات من الجغرافيين العرب الرئيسيين في العصر الوسيط) Extraits des principaux géographes arabes du Moyen Age، في سنة 1934 ثم أعاد طبعه دارمون Darmaun مصححا ومنقحا سنة 1957. وبلاشير هو الذي دفع بتلميذه المستعرب أندريه ميكيل A. Miquel إلى دراسة الأدب الجغرافي عند العرب في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه.

وأصدر بلاشير، في مجال التحقيق والترجمة، بالتعاون مع صديقة جان سوفاجيه، كتيبا يحوي قواعد التحقيق والترجمة ليستعمله المستعربون دليلا لهم في هذين المجالين، وهو بعنوان: (قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها)[34] Règles pour editions et de publications des textes arabes، وذلك في سنة 1953.

وقدم بلاشير، في مجال الدراسات الإسلامية، آثارا قيمة كان أولها كتابة: (مدخل إلى القرآن) Introduction au Coran، الذي نشر سنة 1947، ثم أعاد نشره ثانية سنة 1959، وقد تناول فيه تاريخا موجزا للقرآن الكريم توجه به إلى جمهور القراء غير المختصين ليعرفهم إياه ويقربهم إليه. وقد أصدر-بعد هذه الدراسة ترجمة دقيقة للقرآن في مجلدين ضخمين: ظهر الأول منهما سنة 1949، الثاني سنة 1950. وقد رتب السور في هذه الترجمة بحسب المراحل الأربع التي مرت بها الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة، وقد زود ترجمته هذه بتعليقات وشروح فيلولوجيه كثيرة، وذيلها بفهرس كبير للأعلام والمفاهيم التي تحتاج إلى تفسير أو توضيح. وتعد هذه الترجمة، بإقرار المستعربين أنفسهم، أقرب إلى روح النص الأصلي وأسلوبه المشرق، وإن كنا نستبعد ذلك عن أي ترجمة للقرآن استبعادا مطلقا لاستحالة المقاربة فضلا عن المطابقة، وهذه الترجمة على أي حال أكثر الترجمات

إفادة للباحثين من علماء الإسلاميات في ميدان الاستعراب الفرنسي على وجه الخصوص. وأعاد بلاشير طباعة ترجمته هذه، سنة 1957، على ورق ناعم ورقيق، بعد أن أعاد ترتيب السور فيها إلى الترتيب القرآني المعتاد، وتوجه بهذه الطبعة إلى جمهور القراء الفرنسيين أكثر من توجهه إلى العلماء المختصين والباحثين. ثم نشرت هذه الطبعة ثانية في سنة 1972. كما قدم بلاشير لجمهور القراء الفرنسيين أيضا دراسة قصيرة ومركزة سنة 1966 بعنوان. (القرآن)[35] Le Coran، وقد نشرت الطبعة الثالثة منها سنة 1973. ولم يفت بلاشير، في الوقت نفسه، أن يخص شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) بالدراسة والتحليل والتاريخ، فأصدر كتابا بعنوان (قضية محمد «صلى الله عليه وسلم») Le problème de Mahomet في سنة 1952، ليكون عونا على فهم ترجمة القرآن من جهة وتعاليم الإسلام وتاريخه من جهة ثانية. ثم نشر، في سنة 1956، كتابا آخر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعنوان: (على خطا محمد «صلى الله عليه وسلم») Dans les pas de Mahomet.

وكان الأدب العربي من الميادين المفضلة البارزة عند بلاشير، ولا سيما الشعر منه. وقد بدأ اتصاله بهذا الأدب بدراسته التي وقفها على المتنبي في أطروحته الأساسية التي قدمها لنيل درجة الدكتوراه في الآداب سنة 1935. وقد تناولت فيها هذا الشاعر وفنه وفق منهج تاريخي متصاعد ومتسلسل بحسب المراحل، مطبقا فيها نظرية تين Taine عن الوسط (البيئة) والعرق والعصر وأثرها معا في نسج حياة الشاعر وفنه[36].

ثم نشر، سنة 1957، ترجمة لـ (مختارات من مقامات بديع الزمان الهمذاني) بالتعاون مع بيير ماسنو P. Masnou، ولعل الغاية من هذه المختارات إعطاء صورة لفن المقامات في الأدب العربي، تكمل ما تكون منها في ذهن القارئ الفرنسي والباحث المستعرب حين قام بترجمة بعض مقامات الحريرى من قبل.

ويعد كتابه. (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر)[37]

I' Histoire de le littérature arabe des origines a la fin du XVe siècle.

الكتاب الهام الذي خلد جهوده ومكانته العلمية بين المستعربين، وكان قد خطط له أن يغطي الأدب العربي، بالمفهوم المحدد والضيق لكلمة (الأدب)،

أي: الشعر والنثر الفني، من أقدم عصوره التاريخية (الجاهلية) إلى نهاية القرن الذي شهد انهيار الدولة المملوكية في الشام ومصر وبدايات سقوطها في قبضة العثمانيين، إلا أن المجلدات الثلاثة التي ظهرت في حياة بلاشير وصلت بهذا العمل الطموح إلى سنة 125 هـ/ 742 م، ثم انقطع العمل فيه، لسوء الطالع، بوفاة صاحبه، وكان المجلد الأول منها قد نشر سنة 1952، الثاني سنة1964، والثالث سنة 1966. وتعد هذه المجلدات أداة عمل لا غنى عنها لدى الباحثين من المستعربين على وجه الخصوص.

وكان بلاشير يتبع في دراسته الشعراء، في مقالاته ودراساته المطولة على حد سواء، المنهج النصي، لأنه يعد النصوص شواهد على الوسط (البيئة) الذي أنتجت فيه، كما كان يطبق على الشعراء كذلك منهج تين في تتبع تأثيرات الوسط (البيئة)، والعرق، والعصر، لفهم تلك النصوص على حقيقتها، بالإضافة إلى فهم منتجها فهما أدق بقدر الإمكان، وكان يرى دائما أن دراسة الأدب ليست غاية، وإنما هي وسيلة لفهم الحضارة التي أنتجت هذا الأدب، ونستنبط من هذا الرأي أن بلاشير كان يحاول فهم الحضارة العربية الإسلامية من خلال الأدب الذي تم إبداعه في ظلها، وكان يرى أن الأدب العربي القديم يتمتع بسمة هامة جدا هي أن إنتاج «جماعي» لم يكن للأفراد فيه إلا الاستجابة للرأي العام في الجماعة التي يعيشون فيها. غير أن هذا الرأي مدفوع عندنا ولا يجوز تعميمه على جميع مبدعي ذلك الأدب القديم.

تلك هي أهم آثار بلاشير في الميادين المختلفة، وأما مقالاته فإننا نغض الطرف عنها، لأننا رأينا في هذه النبذة إشارة إلى عدد منها، وهي في غالبيتها المطلقة في موضوعات أدبية شعرية، ولأنها كثيرة، ونحيل المهتمين بها إلى المجموعة المنتقاة منها في مجلد واحد، كان قد جمع مقالاته ثلاثة من مريدي بلاشير وطلابه، وهم ؛ أندريه ميكيل، وجيرار تروبو,G. Troupeau وأندريه ريمون ,A. Raymond ثم نشروها سنة1975، بعنوان: (المنتخب من مقالات ريجيس بلاشير) ,Analecta de R. Blachere ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق.

وقد أسهم بلاشير كذلك في إدارة مجلة (أرابيكا) Arabica، وفي رئاسة تحريرها منذ سنة 1956، أثر وفاة مؤسسها وأستاذة القديم المستعرب

الفرنسي ليفي-بروفنسال، وكانت قد بدأت بالصدور سنة 1954، ثم تنازل بلاشير عن إدارة هذه المجلة الفصلية، سنة 1962، إلى تلميذه جيرار لوكونت G. Lecomte, وهو من المهتمين بالدراسات العربية، وقد وقف أكثر اهتماماته على دراسة ابن قتيبة وآثاره.

نضيف إلى كل ذلك أن بلاشير خرج عدة أجيال من المستعربين الباحثين في مدرسة اللغات الشرقية، وجامعة السوربون، ومدرسة الدراسات العالية، وغيرها من المؤسسات التعليمية في فرنسا. وأشرف على عدد كبير من أطروحات الدكتوراه التي تقدم بها طلبة فرنسيون وأجانب وعرب لنيل الدرجة العلمية. وقد بقي حتى لحظاته الأخيرة محبا للعلم ومولعا بطلابه، ولم يكن يبخل على أي منهم بنصيحة أو توجيه، ولم يتأخر عن إبداء رأي إذا طلب إليه ذلك. على أنه كان متشددا جدا في دروسه في مطلع حياته العلمية، غير أنه أخذ يتساهل معهم بالتدريج من غير مساس بحدود الحق أو الصواب، إذ لم يعرف عنه أنه تساهل يوما في خطأ أو انحراف. وكان طلابه في مدرسة اللغات الشرقية يعرفون له وضوح العرض في دروسه، ويتذكرون حدته وقسوته أحيانا في ملاحظاته، ويذكرون تلك العبارة التي كان يرددها على أسماعهم في التحريض على إبلاء العربية ما تستحق من اهتمام وهي. «العربية معشوقة متشددة تتطلب من المرء أن يخصص لها كل يوم ساعات عديدة». وقد كان على من يريد منهم النجاح في ميدان الاستعراب حقا أن يعمل بهذا القول. وكان طلاب بلاشير القدامى يذكرون أستاذهم ذا القامة المديدة، ويذكرون الصلع المبكر الذي أخذ يغزو رأسه، وضعف بصره الدائم الذي تحول فيما بعد إلى عمى تام قبل وفاته بقرابة عشرين سنة، أي منذ سنة 1953، غير أن هذا العمى لم يكن ليؤثر في نشاطه العلمي، ولا في إنتاجه، لأنه حان يتمتع بذاكرة قوية وقدرة كبيرة على استيعاب المعلومات التي يسمعها وعلى تصنيفها، ولذا كان يتابع نشاطه العلمي بالسوية السابقة نفسها، وذلك بإملاء ما لا يكون بحاجة إلى إعادة النظر فيه أو إلى تنقيحه. وقد شغل بلاشير نفسه في الأسابيع الأخيرة من حياته بدراسة لم تتم عن الشاعر بشار بن برد، وكأنما أراد بذلك أن يقدم لنا شيئا من معاناته العمى بإسقاطها على حياة بشار الأعمى، أو ليجد عزاء عن عماه بتذكر هذا الشاعر العربي الذي ولد على العمى وكانت له

حياة حافلة مليئة بالنشاط والحيوية والشعر والشر، وكان عنيدا وعنيفا يرهب جانبه سفلة القوم وعليتهم على حد سواء.

كان بلاشير، بحسب ما يصفه معاصروه، يبدو لمن يتعامل معه، للوهلة الأولى، رجلا صارما، باردا، ذا وجه هادئ جامد يجعله منفرا، ولكن من يتقرب إليه أكثر ويعاشره يكتشف فيه إنسانا حساسا جدا، وموهوبا، ومنفتحا على الحياة والصداقة، ومتمتعا بثقافة واسعة. وكان يحب الموسيقى إلى جانب حبه الأدب، وكان يعزف على آلة الكمان معبرا بها عما يحس به من عواطف، وكان يصطحب في عزلته موسيقى كل من باخ وبيتهوفن، كما أنه كان يحب مطالعة أعمال كل من مونتيني، وفولتير، ورينان، وستاندال[38].

أما شهرته فكانت واسعة في أوساط العلماء الفرنسيين والمستشرقين والمستعربين والعرب وعلماء الإسلاميات وجمهور المثقفين. ويفخر عدد من الباحثين بأنهم كانوا يوما ما من طلابه الذين تلقوا دروسهم على يديه أو أنه أشرف على بحوثهم، فنالوا رعايته وتشجيعه في أعمالهم. ويتمثل سر شهرته الواسعة هذه في هؤلاء التلاميذ والمريدين الذين جمعهم حوله بتعليمه وشخصيته من نحو، وفي آثاره الكثيرة والمتنوعة التي نشرها خلال مسيرته العلمية وحياته المديدة، فهو كما يقول عنه تلميذه جوليان Ch. Jullien في ترجمته له بعد وفاته بثلاث سنوات كان «يتمتع بصفة المعلم من شواطئ الأطلسي إلى ضفاف دجلة» وقال أندريه ميكيل عن اهتمامه بالعربية: «كانت العربية، وربما العربية وحدها، هي الشغل الشاغل لحياة هذا العالم، من شبابه المغربي إلى السوربون»[39].

وقد كانت مدام إيف باريه، طوال محنته في بصره، تقف إلى جانبه ساهرة على خدمته وإدارة أعماله بإخلاص وتفان نادرين، فكانت خير معين له حتى حانت وفاته في السابع من شهر آب من سنة 1973. وقد دفن في المقبرة التي ثوى فيها قبله أبوه وزوجته مرغريت. وقد كتب إلى تلميذه أندريه ميكيل في 25 حزيران 1976 كتابا ذكر فيه أن بلاشير أوصى قبيل وفاته بأن يكفن جثمانه بجلبابه المغربي، وأن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حبه الشديد للمغرب ووفائه لأهله، وهم الذين احتضنوه في مطلع شبابه، وكان لهم الفضل الأول عليه في تكوينه وتوجهه إلى ميدان الاستعراب والدراسات الإسلامية، إذ عاش في المغرب وبين أهله قرابة عشرين سنة

تمتد من سنة1915 إلى سنة1935، وهي فترة التفتح والتكون والنضج والاستقرار في حياة الإنسان. وقد حفظ هذا المستعرب كل ذلك وعبر عنه بهذا الرمز العميق في دلالته، وهو «الجلباب المغربي».

5- أندريه ميكيل (ولد سنة 1929)[40]:

ولد أندريه ميكيل Andre Miquel في قرية(ميز)Meze جنوب فرنسا في السادس والعشرين من شهر أيلول من سنة 1929. وقد تلقى العربية على يد المستعرب ريجيس بلاشير من سنة 1950 إلى سنة 1953، وكان في هذه الفترة نفسها طالبا في معهد المعلمين العالي الذي تخرج فيه اختصاصيا بالنحو الفرنسي. وقد أرسل في السنة الدراسية 1953- 1954 مبعوثا إلى المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، وكلف وقتها بإلقاء دروس في المدرسة العليا للآداب ببيروت، ثم عاد إلى فرنسا ليؤدي الخدمة العسكرية الإلزامية ما بين سنتي 1954 و1955.

ولما كان قد اكتسب معرفة جيدة بالبلدان العربية عن كثب، أثناء دراسته في المعهد الفرنسي بدمشق وتدريسه في بيروت، فقد رغب في توسيع دائرة معرفته ببلدان أخرى في الشرق ذات طابع (سامي)[41]، ولذا فقد سارع إلى تسلم منصب الأمين العام لقسم الآثار في المعهد الأثيوبي للبحوث في أديس أبابا عاصمة أثيوبيا، بين سنتي 1955 و 1956، حين عرض عليه، وشارك هناك ببعض أعمال التنقيب والحفريات الأثرية في منطقة أكسوم.

وعلم بعد عودته إلى فرنسا في مدرسة بليز-بسكال Lycée Blaise-Pascal، في السنة الدراسية 1955-1956. ثم عمل في الإدارة العامة للشؤون الثقافية والفنية في وزارة الشؤون الخارجية (خدمة التعليم، قسم الشرق الأدنى)، وظل يعمل في هذه الوظيفة من سنة 1957 إلى سنة 1961، وكان يستغل أوقات فراغه، خلال هذه السنوات الأربع، في تحضير أطروحته المتممة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، وهي تقوم أساسا على ترجمة جزئية لكتاب: (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي، مع وضع مقدمة وافية وملاحظات وفهارس، وقد نشرها في المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1963. وكان لأستاذه بلاشير أثر كبير في توجهه إلى دراسة الأدب الجغرافي عند العرب في هذه الأطروحة التي أشرف عليها المستعرب الفرنسي المشهور

شارل بيلا.

وعين ميكيل، سنة 1961، رئيسا للبعثة الجامعية والثقافية الفرنسية إلى مصر، وكان يفكر، حين وصل في أيلول من السنة نفسها إلى القاهرة لمزاولة مهام عمله الإداري، في جمع وثائق ومعلومات عن مختلف جوانب الثقافة في مصر المعاصرة لتأليف أطروحته الأساسية لنيل درجة الدكتوراه، غير أن الظروف اضطرته اضطرارا إلى أن يعود إلى فرنسا قبل أن يستكمل سنة في مصر، فأدى به ذلك إلى استبعاد الموضوع لصعوبة الحصول على مادته بعيدا عن الوسط الذي يدرسه، وقد دفعه لك إلى دراسة اللغة العربية وآدابها في العصور القديمة، واختار لدراسته هذه ما كتبه الجغرافيون العرب من آثار عن البلدان الإسلامية المختلفة ومجتمعاتها في القرون التي عايشوها فيها.

وقد عين ميكيل، إثر عودته إلى فرنسا، أستاذا مساعدا للغة العربية وآدابها، في جامعة (اكس-آن-بروفانس) Aix-en-Provence, من سنة1962 إلى سنة 1964. ثم أصبح أستاذا مساعدا أيضا لعلم اجتماع اللغة العربية وآدابها، في القسم السادس من المدرسة التطبيقية للدراسات العالية E. P. H. E. من سنة 1964 إلى سنة 1968.

وكان خلال الفترة المذكورة آنفا يحضر أطروحته الأساسية بعنوان: (الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي حتى منتصف القرن الحادي عشر للميلاد la géographie humaine du monde musulman jusqu‘au milieu du XIIe Siècle بإشراف أستاذه بلاشير نفسه، الذي كان من اهتماماته في الماضي البحث في هذا الجانب من التراث العربي. وقد تم نشر أطروحته هذه في مجلدين: الأول سنة 1967، والثاني سنة1975.

وعين ميكيل، سنة 1968، أستاذا محاضرا في جامعة باريس الثالثة، وبقي كذلك حتى سنة 1970 التي عين فيها أستاذا محاضرا لمادة «اللغة العربية وآدابها في العصر الوسيط»، ثم عين في الجامعة نفسها أستاذا بلا كرسي للمادة نفسها. ثم عمل، منذ مطلع سنة 1974، مديرا لوحدة الدراسة والبحث .U.E.R في «لغات الهند والشرق، وشمال أفريقيا وحضاراتها» في جامعة باريس الثالثة أيضا.

وكان ميكيل يلقي، وهو في هذه المناصب، دروسه على طلبة الليسانس

والأغريغاسيون والحلقة الثالثة في اللغة العربية، فكانت أعماله فيها تشمل تطبيقات عملية ودروسا نظرية في الأدب العربي قديمة وحديثة، إضافة إلى تكوين الطلاب على أساس متين، بحسب المناهج اللغوية الحديثة، وكذا الأمر في النقد الأدبي، كما كان يلقي على طلبته أيضا دروسا في أدب الجغرافيين العرب، وفي الأدب الشعبي الذي يتمثل في «ألف ليلة وليلة».

وقد طلب ميكيل، بالتعاون مع المستعرب دافيد كوهين D. Cohen، إلى المركز الوطني للبحث العلمي C.N.R.S. إحداث فريق للبحوث المشتركة تكون أنشطته وقفا على علم اللغة العربية وآدابها، وقد حصلا على هذا المطلب. وكان ميكيل يعقد الأمل على متابعة وحدة الدراسة والبحث U.E.R. نشر كتاب بلاشير: (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر) الذي ظهر منه ثلاثة مجلدات توقفت عند سنة742 م / 125 هـ.

وكان ميكيل مشاركا نشيطا في ميدان المؤتمرات والندوات التي تتعلق باهتماماته ومهنته في البحث والتعليم، ومن هذه المؤتمرات والندوات: ما عقد في مدريد سنة 1965 في إستنبول سنة1966، وفي تونس سنة 1968، وفي المحمدية بالمغرب سنة 1970، وفي المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين الذي عقد في باريس سنة 1973 بمناسبة الذكرى المئوية لانعقاد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس نفسها سنة 1873 وكان ميكيل أمينا عاما مساعدا في مؤتمر هذه المناسبة، وفي عمان سنة 1974. وقد لبى الدعوات التي كانت بعض الجامعات العربية توجهها إليه للمحاضرة فيها: كجامعات دمشق، وعمان، وتونس.

تلك هي أهم الأنشطة والمسؤوليات العلمية والتعليمية والإدارية التي قام ميكيل بالعمل فيها وتوليها، وقد توجت سنة1975 بانتخابه لشغل كرسي العربية الفصحى وآدابها في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس)، ويعد هذا الانتخاب شهادة على غزارة آثاره ونوعيتها وإفادتها الثقافة الفرنسية، إذ يمكننا إبراز أنشطته في ميدان البحث والتأليف والترجمة والتحقيق في شكلين: الأول الكتب، والثاني المقالات، والدراسات القصيرة، والبيانات، والمواد التي تنشر في الموسوعات أو المنوعات أو في مجموعات أعمال المؤتمرات أو الندوات، وغير ذلك من أشكال النشر القصيرة والسريعة.

وأبرز آثار ميكيل المنشورة حتى اليوم:

1- ترجمة حكايات (كليلة ودمنة)، مع التعليق عليها: وقد نشرت سنة 1957، وأعيدت طباعتها طبعة منقحة سنة 1976. ومن المعروف أن لهذه الحكايات تأثيرا كبيرا في الأدب الفرنسي خاصة (ولاسيما: أماثيل لافونتين- (les fables de La fontaine)[42]، وفي الآداب الأوربية والغربية عامة.

2- الترجمة الجزئية لكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي.

3- الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي: وهي بحث في الأدب الجغرافي العربي الإسلامي[43].

4- الإسلام وحضارته I' Islam et Sa civilisation: وهو بحث نشره سنة 1968، ونال عليه جائزة الأكاديمية الفرنسية، وحقق لصاحبه شهرة واسعة في الأوساط العلمية في فرنسا والخارج، بسبب المادة الغزيرة التي حشدها فيه وعرضها بأسلوبه المشرق الجذاب عن الحضارة الإسلامية. ولذا نجد لهذا الكتاب ترجمات إلى لغات أجنبية حية بارزة: كاللغة الألمانية التي نقل إليها بعنوان: (الإسلام من محمد (صلعم) إلى عبد الناصر) سنة1970. والبرتغالية سنة 1971. والإيطالية سنة 1973.

5- الأدب العربي[44] la literature arabe: وهو كتيب يستعرض فيه مراحل التاريخ الأدبي العربي المختلفة إلى العصر الراهن بإيجاز مخل كل الإخلال بالغرض. وكان قد نشر بباريس سنة 1969. وهو مترجم في تونس.

6- ترجمة قصة (غريب وعجيب): وهي من قصص (ألف ليلة وليلة)، وقد نشرها، سنة1976، مع دراسة من أربعة فصول تناول فيها بالتحليل كلا من المكان والزمان والحدث والخطاب في هذه القصة.

7- ترجمة ديوان (المعبد الغريق) لبدر شاكر السياب سنة 1976.

وأما مقالات ميكيل فتزيد على مائة مقالة، تناول فيها مواضيع أدبية متنوعة تمتد من الأدب الجغرافي العربي إلى الأدب العربي القديم عامة عبر عصوره المختلفة، إلى ترجمات لبعض أعلام الحضارة العربية الإسلامية في مختلف الميادين، إلى الأدب العربي الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى اليوم، إلى البحث في أدوات وردت في القرآن (مثل: حتى، وإنما، وغيرهما)، إلى آخر ما هنالك من بحوث في ميادين أخرى مقاربة.

ويبدو لنا أن مقالات ميكيل إنما كانت استجابة لضرورات البحث والتعليم أو محاولات للإجابة عن بعض التساؤلات القائمة، أو توضيحا لبعض القضايا

المشكلة في الأذهان. وقد نشر ميكيل إسهاماته هذه في عدد كبير من الدوريات والموسوعات الفرنسية، ومنها مثلا. مجلة أرابيكا، والمجلة الآسيوية، ونشرة الدراسات الشرقية BEO (التي يصدرها المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق منذ أوائل الثلاثينات)، ومجلة الناقد، وخلة الإنسان، ومجلة الدراسات الإسلامية ,REI وحوليات الدراسات الإسلامية (الصادرة عن معهد الدراسات الإسلامية بباريس)، وحوليات أثيوبيا (الصادرة عن معهد الآثار في أديس أبابا)، ومجلة القاهرة الجديدة (التي كانت استمرارا لمجلة القاهرة التي أسسها فييت في القاهرة)، وكراسات تونس، والموسوعة الإسلامية .E.I والموسوعة العامة لا روس، والموسوعة الشاملة .E.U وغيرها.

ولا يزال هذا المستعرب مجدا وناشطا في عطائه المتواصل في ميدان الأدب العربي والتراث القديم، في ميادين شتى كالتأليف والتحقيق والنشر والترجمة والمقالة. وهو يشغل اليوم منصب المدير العام للمكتبة الوطنية بباريس، وهي سن عظميات المكتبات في فرنسا والعالم، وفيها كنوز طيبة من مخطوطات تراثنا العربي العريق.

المصادر العربية والمترجمة

أولا : الأساسية

1- أثر العرب في الفن الحديث للدكتور عفيف بهنسي، دمشق، 1970.

2- أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 7 , 1927.

3- الأستاذ كليمان هوار، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 7 , 1927.

4- أصول التاريخ الأوربي الحديث لهربرت فيشر، ترجمة. د. زينب عصمت راشد، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ط 3، دار المعارف بمصر.

5- أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة, 1974.

6- أصول النشر الأدبي العربي لوليم مارسيه، ترجمة: د. محمود المقداد، في: مجلة التراث العربي بدمشق، ع 18 , 1985.

7- الاعتبار لأسامة بن منقذ، تحقيق: د. فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون في الولايات المتحدة، 1930.

8- تاريخ الأدب العربي المعاصر للدكتور إبراهيم أبو الخشب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976.

9- تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، 5ج في 2 مج، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت.

10- تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا للمستعرب النمسوي يوسف جيرا، القاهرة، 1929.

11- تاريخ دراسة المشرقيات في أوربا للدكتور فيليب حتي، في: مجلة الهلال المصرية، مج 33 , 1923, ٢.

12- تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة, 1974.

13- تراثنا بين ماض وحاضر للدكتورة عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر، 1970.

14- تعليقات وأقوال مأثورة لطه حسين بقلم الدكتور محمد الدسوقي، في: مجلة العربي بالكويت، ع 207, 1976.

15- الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ط 1، القاهرة 1963.

16- خطط الشام لمحمد كرد علي، 6 ج، دمشق، 1343 هـ / 1925 م.

17- دائرة المعارف الإسلامية للدكتور سيد نوفل، في: مجلة الهلال المصرية، عدد يناير (كانون الثاني)، 1976.

18- الدروس العربية في فرنسا لكليمان هوار، ترجمة. عبد الله رعد، في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 5, 1925.

19- عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي، تحقيق: حسن محمد جوهر وآخرين، 4 ج، ط 1، لجنة البيان العربي بالقاهرة، 1958- 1965.

20- العرب والعثمانيون للدكتور عبد الكريم رافق، دمشق، 1974.

21- غرائب الغرب لمحمد كرد علي، 1910.

22- القرآن الكريم.

23- قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها لريجيس بلاشير، وجان سوفاجيه، ترجمة. د. محمود المقداد، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، 1988.

24- المستشرقون لنجيب العقيقي، ط 3، دار المعارف بمصر، 1964.

25- النثر الفني في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك، 2 ج، ط 2، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

26- يومان في باريس للدكتور فيليب حتي، في: مجلة الهلال المصرية، مج 33, 1923.

27- يوميات الجبرتي المعروفة بـ (مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس)، دار المعارف بمصر.

ثانيا. الثانوية

28- أثر العرب في الحضارة الأوروبية لعباس محمود العقاد، ط 7، دار

المعارف بمصر، 1969.

29- تاريخ الأدب العربي لريجيس بلاشير، ترجمة: د، إبراهيم الكيلاني، 3 ج، منشورات وزارة الثقافة بدمشق 1973- 1974.

30- الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء لشارل بيلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية بدمشق، 1961.

31- رحلة الأدب العربي إلى أوروبا لمحمد مفيد الشوباشي، دار المعارف بمصر، 1968.

32- فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق (الطب والصيدلة) للدكتور سامي خلف حمارنة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1969.

33- المذكرات لمحمد كرد علي، 3 ج، مطبعة الترقي بدمشق، 1948.

الهوامش

الفصل الأول

(1) الحروب البونية Ies guerres puniques هي تلك الحروب التي وقعت بين روما وقرطاجة بين سنتي 264 و 146 قبل الميلاد، وأدت إلى دمار الدولة البونية (أي القرطاجية): كانت الحرب البونية الأولى بين سنتي 264 و 241 ق. م والثانية بين سنتي 218 و 201 ق. م والثالثة بين سنتي 149 و 146 ق. م.

(2) قسطنطين: هو قسطنطين الكبير(280-337 م)، كان إمبراطورا رومانيا ما بين سنتي 306 و337 م، وقد تمكن من توحيد الإمبراطورية تحت حكمه سنة 324 م، بعد صراع دام خمسة عشر عاما، وكانت قد فقدت وحدتها سنة285. وشهدت فترة التوحيد هذه دخول هذا الإمبراطور في المسيحية، وإقامة الكنيسة ومنحها حقوقا شتى، وكان قسطنطين يرى في هذه الكنيسة أبرز دعائم الدولة الموحدة، وعد سلطته مستمدة من الله، وقد أسس المدينة التي عرفت باسم (القسطنطينية) نسبة إلى سنة 330 م، في موقع ما كان يعرف بـ (بيزنطة).

(3) انظر كتابه: تاريخ التمدن الإسلامي، 1/ 107.

(4) انظر . Leclerc (L.),Histoire de la médecine arabe, 2eme ed, U.S.A 1971, P 345II

(5) انظر مادة (طليطلة) Tollie في. Encyclopédie du XXe siècle

(6) ألفونس السادس: Alphonse VI عاش بين سنتي (1040- 1109 م)، كان ملكا على ليون من سنة1065 م، ثم استولى على قشتالة وغاليسية، ثم التفت إلى طليطلة فانتزعها من يد العرب سنة1085 م، واتخذها عاصمة لملكه.

(7) ألكسيس الأول كومنينوس: Alexis I Comnenus عاش بين سنتي (1056- 1118 م)، وهو إمبراطور على بيزنطة من سنة 1081 م وكان مؤسس أسرة كومنينوس الحاكمة في الإمبراطورية البيزنطية.

(8) البابا أربانيوس الثاني: Urbanius II عاش بين سنتي 1042 و 1099 م، وتولى منصب البابوية بين سنتي 1088 و 1099. وقد تابع العمل الإصلاحي لأسلافه وحكم بالحرمان على هنري الرابع الألماني وفيليب الأول الفرنسي، وكان هو نفسه من أصل فرنسي، واقدم، في مجمع كليرمون Clermont سنة1095 ، على اتخاذ إجراءات صارمة، إذ أعلن بدء الحرب الصليبية الأولى، بتوجيه نداء إلى الغرب حرضه فيه على نجدة المشرق المسيحي ضد الغزو التركي، فاستجاب له ألوف الرجال، لأن فكرة الفروسية آنذاك كانت تفرض على المحارب واجب الدفاع عن شعب الله ضد مضطهديه، وكانت الغاية المعلنة هي إنقاذ قبر المسيح وتأمين طريق الحج، واتخذت هذه الحرب الصليب شعارا لها، فنسبت إليه، وقد استغرقت جملة الحروب الصليبية ماينوف على قرنين من عمر الزمان، إذ بدأت سنة 1095 لتنتهي سنة 1291. وكان عدد حملاتها تسعا كالتالي:

ا لأولى (1095- 1099).

الثانية (1147- 1149) وأخفقت أمام دمشق.

الثالثة (1189- 1192) وكان سببها المباشر تحرير صلاح الدين مدينة القدس، بعد انتصاره في وقعة

حطين سنة 1187.
الرابعة (1202- 1204) وكان هدفها مصر.
الخامسة (1217- 1221) ضد مصر أيضا.
السادسة (1228- 1229) وتمت إعادة السيطرة بها على القدس. إلى أن عادت إلى يد مصر سنة 1244.
السابعة (1248- 1254).
الثامنة (1270) وكان هدفها تونس، ومات فيها لويس التاسع ملك فرنسا بالطاعون.
التاسعة والأخيرة في تلك السلسلة (1291) وقد أخفقت في انتزاع مدينة عكا من أيدي المسلمين.
ورأى المتتبعين لتاريخ هذه الحملات أنها إذا ما كانت قد انتهت. من الوجهة العسكرية، إلى الإخفاق والخيبة، فقد كان لها أثر عميق في تطور العالم الأوربي، إذ عجلت تعجيلا غير مباشر تحرر المدن، وذلك بإجبار السادة على بيع إقطاعيتهم للحصول على المبالغ اللازمة لتمويل هذه الحملات، وقد أتاحت كذلك معرفة فضلى للعالم الآسيوي. وسهلت التبادلات التجارية، والفكرية، والفنية بين طرفي البحر الأبيض المتوسط.

(9) انظر كتابه: الحركة الصليبية، ص 1261.

(10) م. ن.

(11) ذكر أسامة بن منقذ في كتابه: الاعتبار، ص 35 استيلاء الإفرنج على مكتبته المنقولة من مصر إلى الشام فقال: فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب إلي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت.

(12) انظر كتابه.. Histoire de la médecine arabe, 2eme ed, U.S.A . ،II 1971, ،p .526

(13) انظر: . Op. cit.P .366

(14) انظر: . Op.cit.II.p. 34 l -526

(15) انظر كتابه: Averroès et averrolSME, 1852, p .200

(16) انظر: . lbid

(17) انظر: Op. cit ..p 201

(18) انظر: . lbid

(19) انظر: . Op. cit. p .202

(20) انظر: . Op. cit. p .203

(21) انظر: Op. cit. p .204

(22) انظر كتابه: . Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris 1901, ،XI-XVl .P

(23) انظر: العرب والعثمانيون للدكتور عبد الكريم رافق، ص 83- 39.

(24) م. س، ص 43.

(25) م. س، ص 37.

(26) انظر: أصول التاريخ الأوربي الحديث لهربرت فيشر، ص 375.

(27) انظر: . Driault (E,), la question de l'Orient ،VIII. p

(28) انظر:. Op. cit. P. IX

(29) كولبير: هوجان-باتيست كولبير، من كبار رجال الدولة الفرنسية، عاش بين سنتي 1619 و

1683، تقلد عددا كبيرا من المناصب العليا زمن الملك لويس الرابع عشر، وكان من عظماء الوزراء المنظمين للدولة والإدارة ومؤسساتها، وقد أحدث عددا من الأكاديميات العلمية، وكان من حماة الآداب والفنون ومشجعي أربابها على وجه العموم.

(30) انظر كتابه: Les sources orientales de la Divine Comedie ،Paris 1910, ، 119 -127 .

(31) فاسكو دي غاما : Vasco de Gama بحار برتغالي عاش بين سنتي 1469 و 1524، وقد تجاوز سنة 1497 رأس الرجاء الصالح، ووقع الساحل الشرقي لأفريقيا، ثم وصل إلى ساحل مالابار، وبلغ كلكتا سنة 1498، ووقع أميرها معاهدة تجارية مع البرتغال، وتوفى في الهند.

(32) انظر، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص 13.

(33) انظر كتابه: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 4/ 351.

(34) هو جان-فرنسوا شامبليون، وقد عاش بين سنتي 1790-1832، وكان عالم مصريات، وقد أوصله شغفه باللغة القبطية إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية واكتشاف الكتابة الهيراطيقية، وقد درس حجر رشيد وإحدى المسلات المصرية مع النص الإغريقي المطابق للنص الهيروغليفي على قاعدة تلك المسلة، وعرض نتائجه على أكاديمية النقوش والآداب في رسالة إلى السيد داسييه Dacier تتعلق بأبجدية الأصوات الهيروغليفية.

(35) أنظر: Colin (G.S.) L' arabe vulgaire, in: 150e de I' Ecole des Langues Orientales, Paris, 1948, p. 106.

(36) وقد أنشئت هذه المطبعة على غرار المطبعة الملكية في باريس.

(37) وقد تم إنشاؤها على غرار (مدرسة اللغات الشرقية الحية) في باريس، وهي المدرسة التي تعلم لغات الشرق المختلفة، وقد تحدث عنها الطهطاوي وعن أساتذتها في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) بإعجاب كبير.

(38) انظر: تاريخ الأدب العربي المعاصر للدكتور إبراهيم أبو الخشب، ص 77- 78.

(39) إذ من الملحوظ عموما أن الغالبية المطلقة من الموفدين العائدين من البلدان الأجنبية شرقا وغربا، لا يترجمون طوال حياتهم العلمية، في الجامعة، أي كتاب جاد ذي أهمية جوهرية في اختصاصاتهم بل إنهم يتقاعسون حتى عن ترجمة أطروحاتهم العلمية الأكاديمية التي نالوا بها الدرجات العلمية التي يحملون ألقابها.

(40) انظر مقالة. أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في مجلة المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية اليوم) بدمشق، مج 7, 1927 ص 440.

(41) شارل مارتل: أمير إفرنجي، عاش بين سنتي 685 و 741 م، وهو ابن بيبان ديرستال pepin Herstal õD، وقد أصبح سيدا لأوسترازيا Austrasie ونوستريا ,Neustrie وقام بحملات واسعة على جرمانيا وفريزا Frisa للغزو والتبشير، وهو الذي أوقف في بواتييه ,Poitiers سنة 732 م، حركة الفتح الإسلامي، وضمن لنفسه تبعية مقاطعات أكيتين Aquitaine وبورغونيا Pepin Le Bret والبروفانس La provence، ونظم قبل موته أمر خلافته بين ابنيه كارلومان-Carlomn وبيبان القصي Pepin le Bref

(42) انظر هذا المصطلح في: . Larousse du XXe siece

(43) انظر هذا المصطلح في: . lbid

(44) انظر هذا المصطلح في: . lbid

(45) انظر كتاب الذكرى المئة والخمسين لتلك المدرسة، ecole des õCent cinquantenaire de l. 1948

Langues Orientales, Paris

وكذلك مقالة ميرامبيل A. Mirambel.t.l, 1964 p8، L orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in: Revue de l'E.L.O

(46) اسم يطلق على أسرة من اللغات مرتبطة بالمجموعة الأورالية-الألطائية (نسبة إلى الطاي، وهي هضبة جبلية في آسيا الوسطى في الاتحاد السوفييتي) التي تشمل الفنلندية، والهنغارية، والأستونية ولغات شتى في الاتحاد السوفييتي، والألطائية تطلق على مجموعة من اللغات التركية والمغولية تكون أسرة لغات.

(47) انظر: Mirambel)A(, L'Ecole des Langues Orientales de Paris et Les etudes. d'orientalisme, in : Revue de L'ensignement suerieur, 1957, n2.p116.

الفصل الثاني

(1) انظر: Elisseeff (N.) Themes et motifs des Mille et Une Nuits, Beyrouth, 1949,p6:

(2) انظر:. Les sources orientales de Blochet (E) la Divine Comédie ،Paris 1901, ،P . 160. ،(.

(3) انظر: Op.cit., p . 161

(4) انظر:. Ibid

(5) ا نظر: op.cit. p160

(6)انظر: 164- 163 op.cit . ،p.

(7) كارل بروكلمان: من كبار المستعربيين الألمان وأغزرهم إنتاجا وأوسعهم اطلاعا وعلما، عاش بين سنتي 1868و1956.

(8) انظر افتتاحية زوتنبرغ H. Zotenberg لفهرس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس الذي كان قد وضعه المستعرب دوسلان من قبل.

(9) انظر. Zotenberg(H), op., P.I حيث يصرح غالان بهذا الاتجاه.

(10) أنطوان غالان: أحد مشاهير المستعربين الفرنسيين، عاش بين سنتي 1646 و 1715، تعلم العربية في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس)، رافق سفير فرنسا في تركيا، وقام برحلة خاصة إلى الشرق العربي على نفقته، وكان أول من ترجم قصص (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية، لتذيع عن ترجمته تلك جملة من الترجمات إلى اللغات الغربية الرئيسية، فطارت شهرته لذلك في الآفاق.

(11) انظر افتتاحية بلوشيه للفهرس الذي صنعه لهذه المجموعة: Catalogue de la collection de. manuscrits orientaux arabes ،persans et turcs, par Schefer

(12) من نص رسالة موجهة إلى مدير المكتبة الوطنية بباريس سنة 1898 ورد في: op. cit. PIII

(13) كاترين دو ميديتشي: ملكة فرنسا، من أصل إيطالي، عاشت بين سنتي 1519 و 1589، تزوجت سنة 1533 من ملك فرنسا المقبل هنري الثاني الذي حكم من سنة 1547 إلى سنة 1559، وأنجبت له عشرة أولاد، وقد أصبحت، بعد وفاة زوجها، وصية على العرش إلى إن تولى ابنها هنري الثالث السلطة سنة 1574. وكانت قد أظهرت، خلال عهد وصايتها، أنها ذات مزايا سياسية عظيمة.

(14) الكردينال مازاران: رجل دولة فرنسي، عاش بين سنتي 1602 و 1661، ينحدر من أسرة صقلية متواضعة، دخل في خدمة فرنسا سنة 1639 بعد حصوله على الجنسية، وعين سنة 1642 كردينالا، وحل بعد قليل محل الكردينال ريشليو Richelieu، ثم توفى الملك لويس الثالث عشر بدوره سنة

1643، فنصبته آن النمسوية Anne d'Autriche, التي أصبحت وصية على العرش وكانت تحبه، وزيرا أول عندها، فأثار ذلك حسد النخبة المهمة من الحاشية، إلا أنه قام بمجموعة من الأعمال في الدخل والخارج أرسى بها أسس عظمة عصر لويس الرابع عشر.
(15) وقد أشار إليه الجبرتي في يومياته: مظهر التقديس في زوال دولة ألفرنسيس، 1 / 173 باسم (منتورة) وذكر أنه كان ترجمان بونابرت ويعرف التركية والعربية.
(16) انظر: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص 13 ويروي أن الطبيب كلوت بك هذا هو الذي أقنع محمد علي بتحويل البعثات المصرية إلى فرنسا.
(17) انـظـر: Carrière(A.)Notice historique sur L'Ecole Speciale des Langues Orientales. Vivantes, in: Melanges orientaux, Paris, 1883, P.XLV
(18) انظر: Meuvret (C.), La Bibliotheque, in: 150e de l'E.L.0., Paris, 1948, p404
(19) انظر الافتتاحية التي كتبها بلوشيه للفهرس الذي صنعه لمجموعة شيفر هذه: Catalogue de collection de manuscrits orientaux arabes, persans et turcs, par Schefer ،la. p.lV-V
(20) انظر:. op. cit., P. V
(21) انظر كتابه: خطط الشام، 6/ 198- 199.
(22) انظر Blochet)E.(, Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris 1901, p 157
(23) انظر ما كتبه زوتنبرغ في افتتاحيته لفهرس المخطوطات العربية الذي وضعه دوسلان.
(24) عاش بين سنتي 1806و1889 تعلم العربية على يد المستعرب الفرنسي رينو، وقد تقلب في عدد كبير من المناصب السياسية والأكاديمية في إيطاليا.
(25) انظر: (Dugat (G.) ،Histoire des orientalistes de l'Europe, Paris, 1668, I ،p XXVl
(26) انظر: Carrière)A.) ،op.cit .،p III
(27) استقينا هذه المعلومة من نص رسالة كان قد بعث بها إلي المستعرب الفرنسي المشهور شارل بيلا بتاريخ 10/ 2/ 1976.
(28) وقد ترجمناه إلى العربية بالعنوان المذكور أعلاه مع إضافة عنوان فرعي توضيحي تحته هو (وجهة نظر الاستعراب الفرنسي) وتم نشره في دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت سنة 1988.
(29) انظر مقالة، أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج، 7, 1927 ص 455.
(30) انظر: Carrière)A .) ،op.cit .،p XXI.

الفصل الثالث

(1) فرانسوا الأول: عاش بين سنتي 1494 و 1547، وكان ملكا على فرنسا من سنة1515. وقد شجع في عهده الفنون وأسهم في انتصار النهضة الفرنسية. وسجل عهده بدايات الحكم المطلق Absolutisme في فرنسا.
(2) غيوم بوديه: عاش بين سنتي 1467 و1540، وهو «انسانياتي» فرنسي (أردنا كلمة «انسانياتي» هنا ترجمة لكلمة Humaniste التي تعني: المرء الذي يستغرق جهوده في معرفة اللغات والآداب القديمة عند الشعوب المختلفة بلا تمييز، وهي نسبة إلى «الانسانيات» وهي الأمور المتصلة

بالإنسان والإنسانية عموما.

(3) انظر. Dugat(G.) ،op.cit., 1, p. XVll وانظر أيضا: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا للمستعرب النمسوي يوسف جيرا، ص 15- 16.

(4) انظر:. Annuaire du College de France, 1975, p. 6

(5) النزعة المدرسية: تطلق على التعليم الفلسفي واللاهوتي الخاص به العصر الوسيط الأوربي، وكان قائما على التراث الأرسطوطاليسي الذي ترجمه علماء اللاهوت الغربيون. وتطلق كذلك على كل نزعة أصولية متحجرة أو جامدة لا تأخذ بالحسبان التطورات والمتغيرات ولا تراعي المستحدثات المعاصرة ولا الظروف الجديدة المختلفة.

(6) انظر: . op. cit . ،p. 5

(7) انظر:. op. cit . ،p. 6

(8) انظر:. op. cit . ،p . 8

(9) انظر: 15- op.cit.p. 8

(10) انظر: . 21- op.cit. p. 19

(11) انظر: Dugat (G.) ،op.cit . ،I ،p XVll

(12) انظر كتابه: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا، ص 15.

(13) زدنا (لا) النافية للجنس لضرورتها في السياق ولارتباطها ب (سيما) دوما، وهذا خطأ شائع في أحاديث الناس وكتاباتهم ينبغي التنيه عليه والرجوع عنه.

(14) انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص 17.

(15) للتوسع في دراسة حياة بوسك وآثاره راجع:

.Secret (F.) Guillaume Postel et les etudes arabes a la Rennaissance, in: Arabica, t، . . IX, 1962, p.21-36.

وراجع أيضا: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص 15- 20 وكذلك Fuck (J.) Diearbischen stadien in Europa, Leizig, 1955,p.36-43.

(16) انظر مقالة: الدروس العربية في فرنسا لكليمان هوار، ترجمة: عبد الله رعد في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 5, 1955، ص 158.

(17) ا نظر: . Ahnuaire du College de France, 1975, P. II

(18) انظر على سبيل المثال: Ls Jeunes de Langues ou {Arméniens } a ،Dupont-Ferrier) G. 89.p.) ، arméniennes, t.ll ÁLouis-Le-Grand, in: Revue d'études 1922,

(19) انظر: القرآن، سورة الروم 30/ 22.

(20) انظر: . Dupont-Ferrer (G) ،op. cit.t.ll ،p . 189

(21) انظر: . op.cit . ،II. t 190,

(22) انظر: 191- op.cit . ،II. t ،p . 190

(23) انظر مادة. (Jeunes de Langues) في Grand Larousse encyclopedique

(24) كانت مدرسة (بيرا) أهم من مدرسة (أزمير) لقربها من العاصمة العثمانية والسفارة الفرنسية فيها.

(25) انظر: . 196- Dupont-Ferrier)G .) ،op.cit.t.ll ،p . 193

(26) انظر: 204- op. cit . ،II. t ،p . 197

(27) انظر: 204-219. op.cit . ،II. t ،p

(28) انظر: 217. op.cit . ،II. t ،p

(29) انظر: 218. op.cit . ،II. t ،p

(30) انظر: 220-221. op.cit . ،II. t ،p

(31) انظر: op.cit . ،III, 1923, t p. 9

(32) انظر: 222. op.cit . ،II. t ،p

(33) انظر: 226-232. op.cit . ،II. t ،p

(34) انظر 10-18. op.cit . ،III. t ،p

(35) انظر: 28- 24. op.cit . ،III . t ،p

(36) انظر: op.cit . ،III, t.p. 29

(37) يمكن لمن يود الاستزادة من المعلومات الإحصائية أن يراجع القوائم المثبتة في آخر البحث الذي كتبه (دوبون-فرييه) ونشره في المجلدين الثاني والثالث من (مجلة الدراسات الأرمنية) المذكورة أعلاه. وتتعلق هذه القوائم بالأساتذة وسنوات تدريسهم، وبالتلاميذ، وغير ذلك من الأمور.

(38) انظر: Carriere(A) ،op.cit . ،p III-V

(39) وهو الشهر السابع في التقويم الجمهوري الذي وضعته الثورة الفرنسية، ويوازي في التاريخ الميلادي الفترة الممتدة من21 آذار إلى 19 نيسان.

(40) انظر: . op.cit. p.III

وانظر أيضا: Blachere (R) L' arabe litteral, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948, p.47.

وكذلك: Deny (J.), L'Ecole Nationale des Langues Orientales Vivantes, in: 150e de I'E.L.O., Paris, 1928, p.1.

(41) انظر: 9- 8. op. cit. p

(42) انظر مواد هذا المرسوم في: op. cit, . ,p. 7

وفي. carriere (A) ،op. cit. , P.V

(43) انظر: op.cit., p. XXIII

وقد ذكر كاريير (في P.X) نبذة من خطاب لانغليس في طلبته يبين لهم فيها هدف التعليم في هذه المدرسة.

(44) انظر:. 9-11. Deny(J.) op.cit . ،p

(45) الفيلولوجيون: هم العلماء الذين يعمدون إلى دراسة الحياة الفكرية لشعب من الشعوب أو لعصر من العصور من خلال النصوص التي تمثل تلك الحياة.

(46) انظر: تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص 218.

(47) انظر Deny (J.)p. XLIV. ،op.cit Blachere (R) ،op.cit., p.49. Dugat(G) op.cit., tI, p.XLIV,

(48) انظر: Carrière)A .) ،op. cit. p.XXIII

(49) انظر:. Derenbourg)H.) ،Silvestre de Sacy, Paris, 1895, p. 23

(50) انظر:. 16-17- Deny (J.) ،op.cit . ،p

(51) انظر: Carrière)A .) ،op. cit . ،pXLV

(52) انظر. op. cit. , p. LI

(53) انظر: Blachere (R) ،op. cit., p. 50

(54) انظر: Cohen (D) , Regis Blachere (1900-1973), in: Journal asiatique, t.CCLXII, 1974, p.1-10,

Elisseeff (N.), Regis Blachere (1900-1973), in: Arabica, T.XXII, 1976, p.1-5.

وانظر ترجمة النبذة الأخيرة في أول ترجمتنا كتاب بلاشية وسوفاجية: قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، ص 23-29.

(55) انظر.. Meuvret) C.) ،op.cit . ،P. 395

(56) انظر: . Carrière)A.(, op. cit., P.XX

(57) انظر: . Carrière (A)،op. cit . ،XXI. Meuvret (C .P.) ،op. cit . ،P .396

(58) انظر: Carrière (A) ،op. cit . ،pXXII

(59) انظر: تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص 327.

(60) انظر Carrière(A)،op. cit . ،P XXIII

(61) انظر: . Colin) G.S.) ،op.cit., p .107

(62) انظر: op.cit . ،Carrière)A .109 -108 .) ،op.cit., p. LI

(63) انظر: . Colin(G. S)،op.cit. , p .110 -111

(64) منها مثلا: . Les parlers arabes du Horan, Paris 1946,

(65) انظر:

Drugeon(O)Géographie, histoire, Institutions des Etats musulmsnd. in: 150e de L'E.L.0./ paris. 1948. p 389

(66) انظر: . Carrière(A.), op. cit . ،XLVIl-XLVIlI. Deny(J) ،op. cit . ،p. 10

(67) انظر: Carrière (A)،op.cit . ،P XXXIV-XXXIX

(68) انظر: Deny (J.) ،op. cit . ،p .17

(69) انـــظـــر: Cahen)CI(.(et PelIat)Ch. tique, .) ،Les etudes arabes et islamiques, in: Journal asia t.CCLXI, 1973, P 91.

(70) انـــظـــر: Mirambel)A.(, L'Ecole des Langues Orientales de Paris et les etudts. 116. 2, P úd' orientalisme, in: Revue de l'enseignement superieur, 1957, n

(71) انظر بداية المجلد الخاص بالذكرى المئة والخمسين للمدرسة:

.1948, Cent cinquantenaire de I'Ecole des Langues Orientales, Paris

(72) انظر:. Carrière)A .) ،op.cit . ،P XXXVIlI et XLVIl.

(73) انظر:. op. cit. , p. XLIX

(74) انظر: Deny)J .) ،op.cit., p .11

(75) انظر: . Carrière)A.(,op. cit. O p. LII

(76) انظر: L' Mirambel)A. 1. t.I, 1964,.) ،orientalisme d'hier et d' aujourd' hui, In: Revue de l' E.L.O: p.4 marg

(77) انظر مادة (Arabisant) في قاموس: . Larousse du XXe siècle

(78) انظر: Carrière)A.) ،op.cit P.X.

(79) انظر: . op. cit. , p. XI

(80) انظر: op. cit. , p. VI

(81) انظر: . 103. Colin) G.S.) ،op.cit . ،p

(82) انظر: . 106. op.cit., p

(83) انظر: 10. Carrière (A)،op.cit . ،XLVlll. Deny (J)،op.cit, p

(84). 111. Colin) G.S.) ،op.cit . ،p

(85) انـظـر: ، 1957 Mirambel)A.(L'Ecole des Langues Orientales de Paris et les etudes 111. 2, p úd 'orientalisme, in: Revue de I'enseignement superieur, n

(86) انظر: . 119. op.cit., p.

(87) انظر: . Carrière(A)،op. cit. , p.XXII

(89) انظر:. 106. CoIin (G.S) ،op.cit., p

(90) اربينيوس: واسمه توماس، هولندي الأصل، عاش بين سنتي 1584 و 1634، درس اللغات الشرقية، بما فيها اللغة العربية، بجامعة ليدن بهولندا، وقد وضع كتابا لقواعد العربية طبع سنة 1636، ثم طبع بعد ذلك مرارا في ليدن وغيرها من مدن أوربا، وكان له فضل نشر دراسة اللغة العربية في أوربا، انظر كتاب: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا للمستعرب النمسوي يوسف جيرا، ص 21- 22.

(91) انظر: . 6- 5 .Masse (II),Les etudes arabes en Algérie (1830 -1930) ،Paris, 1933, p

(92) انظر: . 108. Colin) G.S.) ،op.cit . ،p

(93) انظر هذا الإعلان في آخر مقالة كاريير عن تاريخ مدرسة اللغات الشرقية.

(94) انظر مقالة: يومان في باريس لفيليب حتى، في مجلة الهلال المصرية مج 33, 1923، ص 843.

(95) م. س، ص 844.

(96) انظر:، . Mirambel)A.(, L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in:Revue de l'E.L.0

(97) انظر تفاصيل ذلك في: ... Masse)II.) ،Les études arabes

وهي في الأصل مقالة مطولة نشرت في: . , 1933 357- 356 La Revue africaine, Nos وفيها تاريخ لحركة الاستعراب والدراسات العربية التي قام بها مستعربون فرنسيون في الجزائر خلال مائة سنة من الاحتلال، والمعلومات التالية مستمدة في أكثرها من هذه المقالة، نظرا لرصدها الأعمال الهامة التي أنجزها هؤلاء المستعربون.

الفصل الرابع

(1) انظر: Dufrenoy(M.L.), L' Orientalisme romanesque en France, Montreal, 1940, p30

(2) انظر: Elisseeff)N.(, Themes et motifs des Mille et Une Nuits, Beyrouth, 1949, P 8

(3) انظر: 9. op. cit. , p

(4) فولتير: لقب أطلق على (فرانسو ماري أروبه) الكاتب الفرنسي الذي عاش بين سنتي 1694 و 1778. وقد تناول بالنقد أفكار عصره الكبرى، وسخر بأغلب الشخصيات المعاصرة له. وتعرض لذلك للإقامة الجبرية والسجن في الباستيل والنفي إلى إنكلترا. وقد عرف الشهرة والثراء، وقد

اتجه خلال إقامته في إنكلترا إلى الفلسفة الإصلاحية في تفكيره وآثاره. وقد خلد الحرية في مأساته بروتوس (سنة 1730) وهاجم العقائد المسيحية في كتابه «رسائل إلى اوراني» (سنة 1730) وحمل على النظام السياسي الفرنسي في «الرسائل الفلسفية» (سنة 1734) وله آثار كثيرة ومتنوعة أخرى لا مجال لحصرها هنا، منها ما كان استلهاما من الشرق العربي، وكان لجملة هذه الأعمال الغزيرة آثر عميق في تنوير الفرنسيين وتحريضهم على الثورة التي وقعت بعيد وفاته بإحدى عشرة سنة فقط (أي سنة 1789).

(5) انظر: أثر العرب في الفن الحديث للدكتور عفيف بهنسي ص 10.

(6) انظر: . Derenbourg)H. (Silvestre de Sacy, Paris, 1895, p . 22

(7) انظر هذا النص في كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص 218.

(8) انظر مقالة: أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج، 1927، ص 441.

(9) يمكن لمن يريد التعمق في الاستشراق الفني هذا أن يعود مثلا إلى كتاب (أثر العرب في الفن الحديث) للدكتور عفيف بهنسي. وهناك مرجع أحدث صدر عن سلسلة عالم المعرفة هو «الاستشراق في الفن الروماني الفرنسي» (العدد 157- 1992)، تأليف د. زينات البيطار-المحرر)

(10) انظر مقالة: الدروس العربية في فرنسا لكليمان هوار، ترجمة: عبد الله رعد، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 5, 1925 ص 158.

(11) انظر.، Elisseeff (N.), Themes et motifs des Mille et Une Nuits, Beyrouth. .P8 1949,

(12) استقينا معظم معلوماتنا الإحصائية التالية من كتاب: المستشرقون لنجيب العقيقي، وتحديدا من باب الاستشراق في فرنسا.

(13) وقد نقلها إلى العربية أستاذي الفاضل الدكتور إبراهيم الكيلاني، ونشرتها وزارة الثقافة بدمشق سنة1975، ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعتها الثانية سنة1985. ويلحظ بين منهجها ومادتها وبين منهج كتاب (مع المتنبي) للدكتور طه حسين ومادته شبه كبير، وكان الأخير قد نشر سنة 1936 لأول مرة.

(14) وقد نقل أستاذي الدكتور إبراهيم الكيلاني هذه المجلدات الثلاثة التي أنجزها بلاشير في حياته إلى العربية أيضا، ونشرت في وزارة الثقافة بدمشق في ثلاثة مجلدات كذلك ظهرت كالتالي: الأول والثاني سنة 1973، والثالث 1974. ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعتها الثانية في مجلد واحد سنة 1984.

(15) وقد استلهمها الدكتور أحمد كمال زكي في دراسته: (الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري) التي نشرت طبعتها الأولى سنة1960. وقد نشر الدكتور إبراهيم الكيلاني كذلك كتاب بيلا إلى العربية بعنوان: (الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء) في دار اليقظة العربية بدمشق سنة 1961. ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعته الثانية سنة 1985.

(16) وقد أخبرني المؤلف، في رسالة موجهة إلى بتاريخ10 شباط من سنة 1976، أن هذا البحث قيد الترجمة إلى العربية في تونس.

(17) وقد ترجمها إلى العربية أستاذنا الدكتور إبراهيم الكيلاني ونشرها في مجلدين سنة 1979 بعنوان: (الغزل عند العرب) ضمن منشورات وزارة الثقافة بدمشق.

(18) وقد بلغني إنه ترجم إلى العربية في تونس.

(19) ومازالت أطروحة مضروبة على الآلة الكاتبة في ثلاثة مجلدات في حدود اطلاعنا.
(20) يغطي المجلد الأول من هذا الفهرس الإسلامي مقالات المستشرقين والمستعربين من سنة 1906 إلى سنة 1955. والثاني من سنة 1956 إلى سنة 1960. والثالث من سنة 1961 إلى سنة 5, 196 والرابع من سنة 1972 إلى سنة1973. والخامس من سنة 1971 إلى سنة 1972. والسادس من سنة1972 إلى سنة 1973. والسابع من سنة 1973 إلى سنة 1974، الخ.
(21) وقد ترجمتها إلى العربية بالعنوان نفسه ونشرتها مع نقد وتعليقات في مجلة التراث العربي بدمشق، العدد 18, 1985، ص 90-104.
(22) انظر: ص 58-59 من هذا البحث.

الفصل الخامس

(1) انظر كتابها: تراثنا بين ماض وحاضر، ص 51.
(2) انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا للمستعرب النمسوي يوسف جيرا، ص 5.
(3) م. ن.
(4) انظر ذلك في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 7, 1927، ص 147.
(5) انظر: . Dugat (G)،op.cit . ،IV. p
(6) انظر: . op.cit .،P XXVI . p
(7) اتخذ وزير التعليم الفرنسي قرارا سنة1976 بجعل اللغة العربية من اللغات التي يختار منها الطالب لغة إضافية في المرحلة الثانوية، نظرا لازدياد اهتمام العالم بالتكتل العربي بعد حرب تشرين الأول من سنة 1973، إذ برز هذا التكتل قوة سادسة على الصعيد العالمي. وقد كان الإقبال ملحوظا على إيفاد الطلاب الأجانب من الشرق والغرب على حد سواء إلى جامعة دمشق مثلا لدراسة العربية في قسم اللغة العربية.
(8) انظر: Mirambel)A.(L ‘Ecole des Langues Orientales de Paris et les etudes. 116. 2, p úd‘Orientalisme,
in: Revue de l‘enseignement superieur, 1957, n
(9) انظر: . Masse(H)،op.cit., p. 2 -3
(10) له ترجمة وافية في الفصل السادس من هذا البحث.
(11) انظر: . Carrière(A)،op.cit., p. XVII
(12) انظر: . Masse)H.) ،op.cit., p . 8
(13) انظر:. Carrière(A) ،op. cit., p. LII. marg . 1
(14) انظر: . Masse(H)،op.cit., p. 24
(15): انظر النبذة المختصرة التي نشرت عنه بمناسبة نعيه بعنوان: (الأستاذ كليمان هوار) في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 7, 1927 ص 127.
(16) انظر مقالة: تعليقات وأقوال مأثورة لطه حسين للدكتور محمد الدسوقي، في: مجلة العربي بالكويت، ع 207, . 1976 ص 149.
(17) انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص47.
(18) انظر: تراثنا بين ماض وحاضر للدكتورة عائشة عبد الرحمن، ص 156.
(19) انظر حول ذلك: . Congres d‘Etudes arabes a Cordoue, in: Arabica, t. X 1963, ،p . 111

120) انظر مقدمة المجلد الأول من الموسوعة الصادرة سنة 1960، وكذلك:

. 8. Paris, 1970, P،. Pellat)Ch. (Langue et literature arabes, 2eme ed

(21) انظر مقالة: دائرة المعارف الإسلامية للدكتور سيد نوفل، في مجلة الهلال المصرية عدد يناير (كانون الثاني) 1976، ص 6- 13

(22) انظر مقالة: تاريخ دراسة المشرقيات في أوربا لفيليب حتي، في مجلة الهلال المصرية، مج 33, 1923، ص 406- 407.

(23) انظر عدد كانون الثاني (يناير) من تلك المجلة سنة 1974 : 2. p

(24) انظر كتابه المذكور أعلاه. T.I.,PXXXI

(25) (نظر: م. س. T.I.PVI

(26) انظر كتابه المذكور أعلاه: p.I.

(27) هذا المقطع من تلك الرسالة المؤرخة في 24/ 3/ 1976.

(28) هذا غيض من فيض من أمثلة التأثير والتأثر المتبادلين بين المستعربين أنفسهم، أو بينهم وبين الباحثين العرب، أوردناها للإشارة فقط إلى وجود الظاهرة، ولم نتوسع فيها لأن ذلك موضوع بحث خاص مستقل كنا قد عكفنا عليه منذ حين.

الفصل السادس

(1) ولعل هذه المفارقة هي التي كانت وراء انهيار الدولة العثمانية وانحسار إمبراطوريتها تماما، بعد الحرب العالمية الأولى، إلى حدود الرقعة المعروفة اليوم باسم (تركيا).

(2) وقد مرت بنا من قبل دراسة مفصلة عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث في الفصل الثالث من هذا البحث.

(3) انظر بعض المعلومات عن هذه المقالة المطولة في: ص 98 هـ 1 من هذا البحث.

(4) اعتمدنا في كتابة هذه النبذة على جملة مصادر من أبرزها:

- Sil، (Paris, 1895. Salmon(G،) (1838- 1758) Derenbourg)H(, silverstre de Sacy-le Caire (I 905, 1923).

Fuck(J.), Die arabischen Studien in Eu، . vestre de Sacy, 2t. 157-140. p، 1955, ropa, Leipzig

وانظر كذلك: الدروس العربية في فرنسة لكليمان هوار، ترجمة: عبد الله رعد، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 5, 1925، ص 160- 161 وأثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في: م. س، مج 7, 1927، ص 404 وتاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص 26.

أما المصادر الأخرى فقد أشرنا إليها في مكانها من هذه النبذة.

(5) وهو مذهب ينسب إلى اللاهوتي الهولندي يانسينيوس (1638 م) ,Jansenius وهو يقوم على فكرة الحد من الحرية الإنسانية انطلاقا من مبدأ يقول إن (العناية الإلهية) ممنوحة لبعض الكائنات منذ الولادة وبعضها الآخر محروم منها. وهو مذهب مستمد من كتابه: (أغسطينوس) الذي يعالج مذهب القديس أغسطينوس القائل بتدخل تلك العناية الإلهية في مواجهة حرية الإنسان.

(6) كان عند الأوربيين-حتى اكتشاف نصوص اللغة السنسكريتية وصلتها باللغات الأوربية على يد العالم جونز W.Jones اعتقاد راسخ بان (العبرية)، هي لغة الإنسان الأولى، وعنها تفرعت كل لغات

البشر في العالم ودفع هذا الاعتقاد الناتج عن التأثيرات التوراتية في التدين المسيحي، إلى دراستها والاهتمام بها على أنها لغة (مقدسة) من نحو، وأم للغات العالم من نحو آخر.
(7) والأحرى أن يطلق عليها جميعا اسم (اللغات العربية القديمة) لكون العربية في جزيرة العرب أما لها، بحكم الهجرات التي كانت تفيض بها إلى الشمال في كل من العراق والشام، كما أنها أحدثها أيضا لبقائها دونها جميعا لغة حضارية متصلة وحية إلى يومنا الراهن، ويرى رينان.E Renan, في كتابه: (تاريخ اللغات السامية)، أن تسمية هذه اللغات بـ (السامية) خطأ، وأن الأصح تسميتها (اللغات السورية-العربية).
(8) وهم فرقة من اليهود ذات مذهب خاص بها.
(9) سكاليجر: واسمه يوسف يوستوس، انسانياتي وفيلسوف بروتستنتي، من أصل إيطالي، عاش بين سنتي 1540 و 1609. انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص 21.
(10) انظر 17. p، . op. cit، Derenbourg (H)
(11) انظر: Derenbourg (H)،op. cit, p. 22
(12) انظر كتابه: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي ص 218.
(13) انظر نصها في ذلك الكتاب، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص 218- 221.
(14) انظر: . 23. op. cit., p، Derenbourg (H.)
(15) انظر 34. op. cit. , p
(16) انظر: . Ibid
(17) انظر وصف حالة الدراسات العربية قبل دو ساسي في:
.49- 47. paris, 1948,p . ،0. L'arabe litteral, in 0: 150e de L'E.L، (.Blachere)R
(18) انظر: Carrière) A.(, op.cit, p. XXIII
(19) استخلصنا هذه النبذة من جملة مصادر أبرزها:
L' Maurice Gaudefroy-Demombynes،arabe litteral.. . Blachere(R،). Blachere(R-in: Joumal asiatique, t.CCXXXXV, 1957, p.309- 311. Masse (H.), Mau (1957 -1862) 229-225، ،. 1957, in: Arabica, t.IV، (1957- 1862) rice Gaudefroy-Demombynes
(20) وهو يشتمل على خمس أكاديميات هي:
1- أكاديمية النقوش والآداب: وكان الوزير كولبير مد أنشأها سنة 1663لإنجاز النقوش على الميداليات والآثار الملكية، واهتمت كذلك بالمعارف التاريخية والأثرية وشيء من الآداب.
2- أكاديمية العلوم.
3- الأكاديمية الفرنسية: وكان الكاردينال ريشليو قد أنشأها سنة1635 (من أربعين عضوا) لإنشاء معجم للغة الفرنسية.
4- أكاديمية الفنون الجميلة: وتضم التصوير، والنحت، والحفر، والموسيقى، وكانت قد أنشئت سنة1795 بعد الثورة.
5- أكاديمية العلوم والأخلاق السياسية: وقد أنشأتها الثورة سنة1795 أيضا للاهتمام بدراسة مسائل الفلسفة والقانون وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي، والتاريخ.
(21) والمقصود به نابليون بونابرت الذي عاش بين سنتي 1769 و 1821.

(22) ويقصد به النبي الكريم محمد (ص). وقد وصف ماسيه كتاب ديمومبين عن حياة النبي ودعوته بأنه عمل ضخم ونموذج لترجمة الحياة وعرض الدعوة ثم خلص إلى القول إنه يشكل «فخرا للاستشراق الفرنسي».. انظر.. P. 229، op. cit . ، Masse)H. (

(23) انظر: . Ibid

(24) انظر: . 226 . op.cit., p

(25) وقد ترجمه بالعنوان نفسه كل من صالح الشماع وفيصل السامر ببغداد سنة 1952.

(26) ينبغي أن ننبه هنا إلى مسلمة هامة يبدو إن ديمومبين تجاهلها هي أن الإسلام كان قد ألغى نظما شتى من الجاهلية إلغاء تاما، وأبقى نظما أخرى على قلتها، كما أنه هذب أو طور نظما أخرى كثيرة، كما أتى بنظم لم تكن من قبل قط، وهكذا ينبغي أن يفهم استنتاج ديمومبين من دراسته، لا كما يمكن أن يكون قد وظفه على طريقة بعض المستشرقين في الطعن في الإسلام بتصويره مستمدا عناصر عقيدته من أديان ونظم وشعائر وأفكار كانت قبله فجمعها في إطار واحد. انظر تلك النتيجة في: . 227 . p ، . op.cit ، Masse)H. (

(27) اعتمدنا في كتابه أكثر ما ورد في هذه النبذة على المعلومات الواردة في:

Elisseeff(N.) (Gaston Wiet (1887-1971) in: journal asiatique, t.CCL X, 1972, p. l-9.

(28) ربما كان فييت يعني بهذا العنوان كتاب ابن إياس المسجوع الذي لا يبين صراحة عن مضمونه وهو (بدائع الزهور في وقائع الدهور) وهو يتناول فيه تاريخ مصر من أقدم العصور إلى ما بعد دخول العثمانيين إليها.

(29) استقينا هذه النبذة من جملة مصادر من أهمها.

Cohen (D.), Regis Blachere (1900-1973), in: Journal asiatique, T.CCLXll-1. in: Arabica, 1974, ،
Julien)Ch. . 15 1975 , ،Elisseeff (N.) p. V ll-Xll p 1-10 ،Regis Blachere(1900-1973) ،t.XXll, 1976, p
(Analecta de Regis Blachere, Damas

(30) ويبدو أنهما أثرا فيه تأثيرا عميقا في توجهه إلى الدراسات الأدبية العربية والدراسات الإسلامية، ولذا نجده يتوجه إليهما في إهداء كتابه: (تاريخ الأدب العربي) بالقول: إلى أستاذي السيدين هـ. ماسيه وإ. ليفي-بروفنسال، مع أوفى عرفاني بجميلهما.

(31) منها مقالات عن شعراء من أمثال: ابن دراج القسطلي، وابن زمرك، والمعري، الخ.

(32) له فيها مثلا نبذ ترجمية لشعراء من أمثال: العباس بن الأحنف، وأبي صخر الهذلي، والأخطل، وعمرو بن كلثوم، وعنترة وذي الرمة، وبشار.

(33) وله فيها نبذ ترجمية لشعراء من أمثال أبي نواس، والمعري، وشوقي.

(34) وقد عمدنا إلى ترجمة هذا الكتيب إلى العربية بالعنوان المذكور أعلاه، ونشرت هذه الترجمة دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق سنة 1988.

(35) تم نشره في سلسلة(كوسيج) المعروفة برقم 1245.

(36) انظر: هـ 1 ص 123 من هذا البحث.

(37) انظر: هـ 1ص 124 من هذا البحث.

(38) انظر.. Analecta de Regis Blachere ،Damas, 1975,p.lX

(39) انظر: op. cit., p. XII

(40) استقينا مادة هذه النبذة من ترجمة حياة ميكيل وأعماله وألقابه Curriculum vitae التي كان قد كتبها بنفسه عند توليه كرسمي (اللغة العربية الفصحى وآدابها) في معهد فرنسا (كوليج دو

فرانس) سنة1975، وقد بعثت بها إلي مشكورة السيدة إيف باريه E. Paret مع رسالة مؤرخة في 30 تموز (يوليو) سنة 1977، وهي السيدة التي كان لها فضل خدمة المستعرب بلاشير وتنظيم أعماله والقراءة له أكثر من عشرين سنة، أي منذ بدء محنته في بصره إلى وفاته سنة 1973. وقد حملت تلك الترجمة عنوان: Titres et travaux d'Andre Miquel, , p . 1-14 .

(41) سبق لنا أن رفضنا صفة (السامية) التي أطلقت على اللغة العربية وفروعها التاريخية، كما أطلقت على الشعوب المختلفة التي تنتمي إليها في المنطقة العربية، لأنها اصطلاح توراتي يستند إلى ما ورد في التوراة من أنساب لا تفسر شيئا ولا تعني شيئا أمام الواقع والحقائق الاتنوغرافية والاتنولوجية للبشر في العالم أجمع، ونرى أن الصواب استبعاد هذا المصطلح كلية ليحل محله صفة (العربية القديمة أو التاريخية)، وصفا للغات، الشعوب المقصودة به.

(42) وقد ترجم نيقولا أبو هنا، أحد آباء دير المخلص، شطرا من هذه الآماثيل إلى العربية شعرا، ونشره في صيدا (بلبنان) سنة 1934، بعنوان: (أمثال لافونتين).

(43) وقد ترجم ونشر في وزارة الثقافة بدمشق في ثلاثة مجلدات تحمل عنوان: (جغرافية بلاد الإسلام) سنة 1986.

(44) وقد نشر في سلسلة كوسيج برقم 1355 سنة 1969.

المؤلف في سطور:

د. محمد المقداد

* ولد في مدينة بصرى (سورية) سنة 1951.

* تخرج في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق سنة 1974.

* حاز دبلوم الدراسات الأدبية العليا من نفس القسم سنة 1975.

* ونال درجة الماجستير في الآداب من قسم اللغة العربية سنة 1982، ثم درجة دكتوراه دولة في الآداب سنة 1986.

* عمل منذ سنة 1978 معيدا لمادة الأدب في صدر الإسلام والعصر الأموي، ومدرسا لها منذ سنة 1986 في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة دمشق.

* يشرف على عدد من رسائل الماجستير ويشارك في مناقشة أطروحات الماجستير والدكتوراه.

* له من المؤلفات المنشورة:

1- الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، دار الفكر بدمشق، سنة 1988.

2- ترجمة كتاب (قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها) لريجيس بلاشير وجان سوفاجيه (عن اللغة الفرنسية)، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، سنة 1988.



الولايات المتحدة
والمشرق العربي

تأليف:

الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

هذا الكتاب

يتتبع هذا الكتاب ما كان بين الشرق العربي والغرب الأوربي من صلات متعددة الأبعاد، تمثلت في حركة الفتوح والحروب الصليبية والحركة الاستعمارية من جهة، وفي التبادل التجاري والاحتكاك الحضاري حتى النهضة العربية الحديثة من جهة أخرى.

ويرصد الكتاب حركة انتقال المخطوطات العربية عبر القنوات والأساليب المختلفة من البلدان العربية والإسلامية إلى فرنسا، ويبرز أهم الموضوعات التي تناولتها تلك المخطوطات.

ثم يهتم بدراسة إقبال بعض الفرنسيين بمبادرة فردية أو بتوجيه من الدولة على تعلم العربية، حيث كانت أولى اللغات الشرقية الحية التي يهتم بها الفرنسيون نظرا لأهميتها السياسية والاقتصادية، ويشير إلى أهم المدارس والمؤسسات العلمية والتعليمية التي أدرجت اللغة العربية ضمن اهتماماتها الأساسية. وقد تناول بالدرس والتحليل أبرز أنشطة المستعربين في ميدان تعليم العربية ووضع المناهج والطرائق لها.

وأخيرا يلقى المؤلف الضوء على خمسة أنواع من الدراسات العربية في فرنسا وهي. اللغوية والأدبية والتاريخية والإسلامية والجغرافية. وقد اختار خمسة من كبار المستعربين الفرنسيين يمثل كل منهم جانبا من جوانب الاستعراب، هم: (سلفستر دوساسي-موريس غود فروا ديمومبين-غاستون فييت-ريجيس بلاشير-أندريه ميكيل).